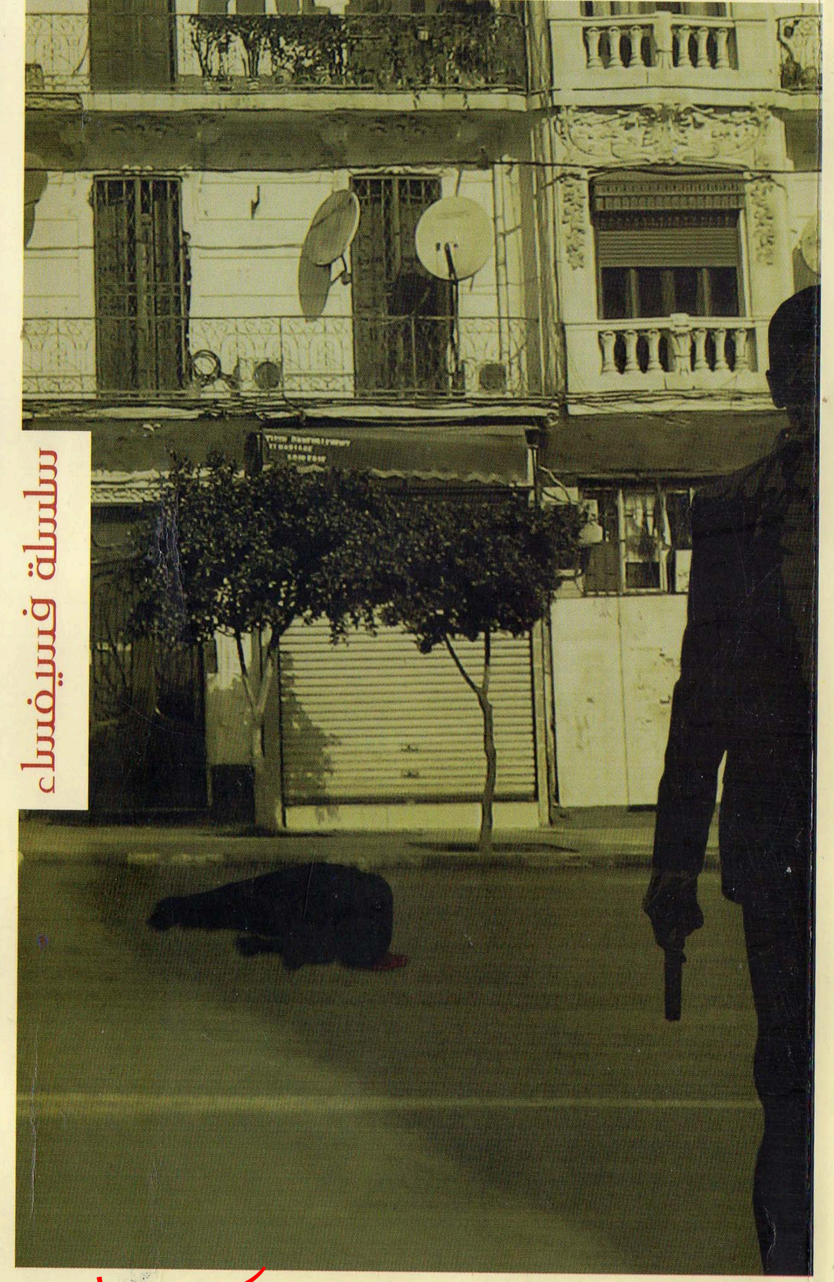


ياسمينة خضرا

بماذا تحلم الذئاب ؟

رواية

الردمك : 978-9947-872-74-1



بماذا تحلم الذئاب ؟

Yasmina Khadra

A quoi rêvent les loups ?

roman

ياسمينة خضرا

بماذا تحلم الذئاب؟

رواية

ترجمة : عبد السلام يخلف

سيديا

إلى أبنائي
وأبناء كل العالم.

يتحوّل الرخاء إلى فقر
بسبب سهولته الذاتية
هنيئا لمن استطاع أن يجد
الرخاء في الفقر.
سوغاوارا نو ميشيزان

ما الذي دهى جبريل الملاك حتى لم يمسك بيدي حين هممت بذبح ذاك الرضيع الذي كان يحترق بالحمى ؟ رغم أنني أقنعت نفسي بكل ما أملك من قوى بأن شفرة سكينتي لن تتجرأ على الاقتراب من تلك الرقبة الواهية التي لا تكبر رقاب باقي الأطفال. في ذاك المساء، كان المطر يهدد بابتلاع الأرض كلية. السماء تفرقع. انتظرتُ طويلا حتى يبعد الرعد يدي أو حتى يقوم برق بتخليصي من الغياهب التي تحجبني حبيس الهلاك الأبدي، أنا الذي كنت أعتقد أنني جئت هذا العالم كي أعجب وأغوي، أنا الذي كنت أحلم بامتلاك القلوب بفضل ملَكتي وحدها.

إنها الساعة السادسة صباحا والنهار لا يملك الجرأة بعدُ كي يغامر في الشوارع. مذ تنكرت مدينة الجزائر لأوليائها الصالحين، أصبحت الشمس تفضل البقاء بعيدا داخل البحر في انتظار أن ينتهي الليل من تجميع منصات الإعدام.

ما عاد رجال الشرطة يطلقون النار. أرى الآن أحدهم مترصدا خلف غرفة غسل الملابس التي توجد على رأس كوخ قذر. إنه ينظر إلينا عبر منظار بندقيته وأصبعه على الزناد. في الأسفل داخل الحي المحاصَر، ما عدا العربة المدرّعة وسيارتين كان قد انفجر زجاج نوافذهما، لا يوجد أثر واحد للحياة هنا.

تم إخلاء المبنى في الساعات الأولى من الاشتباك، في فوضى مريعة. رغم النداءات المطالبة بالهدوء، فإن سلالم العمارات كانت تعج بصدى صرخات النساء والأطفال التي تعلو مع كل موجة من طلقات الرشاش. أصيب علي حينما كان يحاول رؤية ما يحدث في مدخل العمارة. انفجر المنظار في عينه. انهار على ظهره بعد أن فقد عينا وتقطع جزء من جانب رأسه. بعدها دخلت الأروقة المهجورة في صمت عميق. لقد تم قطع الغاز والكهرباء ثم الماء بهدف عزلنا. جربنا العديد من عمليات تحويل أنظار العدو. أنذرَنا أحد الضباط رسميا كي نضع أسلحتنا ونسلم أنفسنا. نعتته بالحقير والمرتد وأفرغت مخزن الذخيرة صوبه. صرخ الضابط : «اطفرتْ فيكم»[1]. كان صوته عامرا بالازدراء.

انتهى كل شيء. لقد تخلى الأنبياء عنا وها نحن نحاصَر كالفئران. كل شيء يترنح من حولنا. كأن العالم

1 انتهى أمركم

يتلذذ بمكر حين ينسل ويهرب من بين أصابعنا كدوائر حلزونية من دخان.

لم يبق الشيء الكثير من الشقة التي اختبأتْ فيها مجموعتي. انفجرت النوافذ وتفتتت الحيطان بفعل جنون الرصاص. رفيق لا يحرك ساكنا وها هو يتمدد في بركة من الدم بعينين جاحظتين ورقبة ملوية على نحو ساخر. دجانة يحدق في السقف بعد أن مزقته قنبلة يدوية. حنظلة مات بالغرفة الأولى القريبة من المدخل بوجه متوجه نحو حذائه وأصابع منكمشة على الأرض. لفظ أخوه الأصغر أنفاسه على الساعة الثالثة صباحا. أبو تراب هو الوحيد الذي ما زال يتنفس وقد انهار جسده فوق حوض المطبخ وبندقية مضخية على ركبتيه.

رمقني بنظرة تافهة.

– لقد قلت لك أنها لم تكن فكرة جيدة.

راحت نظرته الواهمة تتسع بفعل الألم وصدره يتشنج. كان عليه الغوص داخل أعماقه بحثا عن نفَس الهواء الذي يساعده على البلع. بكثير من الحيطة، مدّ رجله نحو كرسي ومال على جنبه كي يقابلني وجها لوجه.

– هلا رأيت سحنتك. قالها بصوت متقطع يشبه صوت منظف المدخنة وقد علق بداخلها مكتوفا، ممنوعا من الحركة.

– تجلّد، نصحته.

تحرك بفعل ضحكة واهية :

– الحق أن هناك سفر طويل في انتظارنا.

تدلى خيط لعاب من شفته قبل أن يدرك لحيته في قشعريرة مطولة. أزاح بيده اليمنى قميصه المطلي بالدماء كاشفا عن جرح بشع راح يمزق خاصرته.

– كل أحشائي خرجت من أماكنها لكني لا أحس شيئا.

في الخارج، تتقدم عربة مجنزرة مزعزعة الأسوار.

– لقد استقدموا المدافع ذات العيار الثقيل.

– كنت أشك في ذلك لبرهة... هل تعتقد أن العالم سيذكرنا يوما ؟

بؤبؤاه الزجاجيان بالكامل اشتعلا للحظة بضوء راقص. انكمش صدغاه وعبّر عن سخطه قائلا :

– آه يا صاح... لن ينسونا أبدا. ستحتل أسماؤنا الكتب والنصب التذكارية. سيغني أطفال الكشافة في عمق الغابات أغاني تمتدحنا، وفي أيام المناسبات سيضعون باقات أزهار على قبورنا. أثناء ذلك، ماذا يفعل الشهداء الأبرار ؟... سنرتع بهدوء في الحدائق الأبدية.

كانت نظرتي المستنكرة تسليه. إنه يعرف جيدا كم أرفض الشتيمة. غالبا ما يأخذ الجميع احتياطه قبل أن يتكلم أمامي. لأول مرة يتجرأ أبو تراب، أخلص رجالي، على

إن ماج نزقي. مسح أنفه على كتفه ثم عاد إلى محاصرتي بعينين عائدتين من عالم الأموات. أصابني صوته الأجش بهمس مغيظ :

هناك في العلى ما علينا سوى فرقعة أصابعنا كي تتحقق أمانينا. سنختار حريمنا من بين قوافل الحوريات التي تملأ جنة عدن، وفي كل مساء، حينما تخبئ الملائكة مزاميرها، سنملأ القفاف بالشموس التي سنذهب لقطفها في حدائق الرحمان.

نخبة الرماة في مجموعة التدخل الخاصة هاجموا بكثافة الأسطح المجاورة والتحقوا بمراكزهم بقفزات رشيقة ودقيقة. يستعصون عن الإمساك تماما مثل الأشباح.

– لا تقترب كثيرا من النافذة أيها الأمير فقد يصيبك الزكام.

انطلقت أصوات صفارات الإنذار التي تسمع عن بعد وراحت تتسلل عبر تشققات الحي كي تملأ مخبأنا. قطب أبو تراب أحد حاجبيه ثم بدأ يتبع النغمة بالدق مستعملا أصبعيه.

– السمفونية الأخيرة... آه، ها أنا فجأة أجد اسما لكل شيء. السمفونية الأخيرة... لو دفعوا لي كل ثروات الأرض ما كان باستطاعتي إيجاد عنوان كهذا وأنا مستريح. لم أكن أعلم أن القرب من الموت يمنح الموهبة.

– لا تشغلني.

– لقد أضعت مسيرة حياتي...

– صه.

ضحك، وصمت لدقيقتين ويده تضغط على سلاحه ثم راح يتلو :

– «لست نادما على كل أخطائي ولا فضل لي في كل أفراحي. لن يكون للتاريخ عُمْرٌ سوى عمر ذكرياتي، وما للأبدية سوى نومي الكاذب»... المسكين ! له ما يقوله، سيد علي، كان شاعرا حقيقيا... لا أصدق كيف يصعب التنبؤ بسلوك البشر. كنت أحسبه متخلفا عقليا أو مجرد خرقة بالية ولكن في لحظة الحسم يأتيك بشجاعة لا نعرف مصدرها تقسم جسمك نصفين. هل تذكر ؟ لقد رفض أن ينحني على ركبتيه. لم يرتعش حتى حينما أدخلت مسدسي في صدغه. قال : افعلها فأنا جاهز. انفجرت رأسه مثل دمل كبير لكن ذلك ما قضى على ابتسامته الملعونة.

لا، لا أتذكر ذلك. لم أكن هناك. لكنني ما نسيت.

كيف لنا أن ننسى حين نقضي أيامنا في تنكير ذاكرتنا ونقضي ليالينا في إعادة تشكيلها مثل لعبة ملعونة لتركيب الصور، وبمجيء الصباح نقوم بخلطها أكثر فأكثر ؟... كل يوم وكل ليلة، دون توقف...

...ـي هذا الوسواس ونعتقد أن الكلمة لوحدها كافية لـي ـهزم الهاوية.

•ا الذي نعرفه فعليا عن الوسواس ؟

لقد قتلتُ أول رجل يوم الأربعاء 12 جانفي 1994 على الساعة 7 و35 دقيقة صباحا. كان محاميا. خرج من ـه متوجها نحو سيارته تسبقه إليها ابنته صاحبة الست وات بضفيرتين تحملان أزهارا زرقاء صنعت من شريط ازرق ومحفظة على الظهر. مرت بجانبي دون أن تراني. ـسم المحامي لكن في نظرته مسحة مأساوية تماما مثل حيوان مطارد. قفز حين رآني مختبئا في باب المدخل. لا ادري لماذا أكمل سيره كأن شيئا لم يكن. ربما اعتقد أنه بإظهار لامبالاته بالخطر سيمنح نفسه فرصة لدفعه. اخرجت مسدسي وأسرعت للحاق به. توقف ووقف امامي وجها لوجه. في لمحة بصر فرّ الدم من وجهه وانمحتْ ملامحه. خفت في لحظة أن أخطئ الشخص. سالته : «خوجة ؟ أجابني بصوت لا نبرة فيه : — نعم». دفعت سذاجته —أو يقينه من نفسه— بجسدي نحو الأسفل. تكبدت كل مشقات العالم كي أتمكن من رفع يدي. أحسست بثقل في أصبعي الذي يمسك بالزناد. صرخ سفيان : «ماذا تنتظر ؟ أقتل ابن السافلة هذا.» بدا أن الطفلة لم تكن تفهم ما يحدث أو أنها ترفض أن تقبل بؤسها. «غير معقول، يعاتبني سفيان مكررا الجملة. لن

تتراجع الآن. إنه مجرد شخص قذر». كانت الأرض تهدد بالهروب من تحت قدمي. يغمرني الدوار ويعقد أمعائي ويشلني. اعتقد المحامي أنه وجد فرصة حياته في لحظة ترددي. لو بقي ساكنا، أعتقد أنني ما كنت لأملك القوة الكافية للذهاب أبعد. كان جسمي يهتز من الرأس حتى القدمين مع صوت كل طلقة رصاص. ما عرفت كيف أتوقف عن الرمي لأنني ما عدت أدرك دوي الانفجارات أو صرخات الصبيّة. كنتُ أشبه بالنيزك، اجتزت جدار الصوت، حطمت نقطة اللارجوع. لقد سقطت للتو جسدا وروحا في عالم مواز لن أعود منه أبدا.

راح أبو تراب يسعل. تشنج خاطف رماه إلى الخلف. تمسّك بأخمص بندقيته ومدّ رجليه في أنين. دفق بوله عبر السروال ثم سال على البلاط.

– لم يكن ينقصنا سوى هذا ! ها أنا الآن أتبول في بنطلوني. سيقول الطواغيت أنني خوّاف. ما الذي تفعله ملائكة حمايتي ؟ لا يكفيها موتي فقط.

– هلا أغلقت فاك، سحقا !

صمتَ.

دخلت العربة المجنزرة الحديقة العمومية ومدفعها مصوب نحو مخبئنا. «سلّموا أنفسكم، للمرة الأخيرة». كان الصراخ يطلع من مكبر للصوت.

سحقا ! يقول أبو تراب بصوت مختنق. في أفغانستان ..ا ـ الأشياء تحدث بشكل مغاير تماما. في كل مرة يجد الم ـ اهدون أنفسهم في فخ إلا وهبّت عواصف رملية مقدمة ا م تغطية كي تمكنهم من التراجع أو تحدث أعطال غريبة في دبابات العدو أو تقوم أسراب من الطير بمهاجمة طائرات الهيلكوبتر السوفياتية... أليس لنا الحق في بعض هذه المعجزات هنا ؟

رفع مصورة بندقيته واضعا إياها على صدغه. تمددت ابتسامته بشعة ومحزنة في آن. أنظر إليه كما لو كنت في حلم، لا أحاول حتى منعه.

- سأسبقك أيها القائد لأننا لا ندري...

اقتلع الدويّ جزءا من رأسه في انفجار مخيف للحم والدم دفع بقطع المخ إلى الارتطام بالسقف وزاد في تأجيج التراشق بالرصاص الكثيف في الخارج.

I

الجزائر الكبرى

حينما سئمت البحث
تعلمت القيام باكتشافات
مذ أصبحت ريح شريكتي
أمد شراعي أمام كل الرياح.

نيتشه، سعادتي

.1

ملفك يدافع عنك يا سيد وليد، قال أخيرا مدير الو كالة. أتمنى أن لا تخيب آمالنا. مصداقية مؤسستنا تقوم اساسا على شهرتنا.

أدارت أصابعه النظيفة اللامعة الأوراق بحركة مرهفة. وقف قليلا عند صورتي الشمسية ثم عاد إلى ملاحظة جودة في أسفل الورق المقوى.

عملتَ لمدة تسعة أشهر سائقا بالديوان الوطني للسياحة... لماذا توقفت ؟

لقد اقترحوا علي دورا صغيرا في أحد الأفلام. ظننت انني سأجعل من السينما مهنة.

كم فيلمًا ؟

واحد فقط.

تجمع شعر شاربه الأشقر حول شفتين ملتقيتين تعبيرا عن الرفض. ارتمى إلى الخلف فوق مسند أريكته وقال :

– هذا لا يكفي لكنه يقدم لك خدمة. ربما تقدم لك وكالتنا فرصة حياتك. ستحصل على راتب جيد وستكون لك فرص كي تحصل على مكانة لك بين الأشخاص الذين لهم إمكانيات لدخول عالم الفرجة.

عاد من جديد يتفحصني بإصرار بعينين موحشتين. اعترفَ :

– وجه جميل. لا شيء أقوى من وجه طفولي كي نجبر القدر. هل تتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة ؟

– أتدبر أمري.

– حاول تفادي هذا النوع من الإجابة يا سيد وليد. كن واضحا، دقيقا ومختصرا. الناس الذين ستعمل لأجلهم يكرهون كل ما هو تقريبي.

– لقد دوّنت ذلك.

– هذا النوع من الإجابة هو أيضا في غير محله. من اليوم فصاعدا ستتمحور كل لغتك حول جملة واحدة : «نعم يا سيدي». أن تكون سائقا لواحدة من كبريات العائلات في مدينة الجزائر ليس مجرد رحلة سياحية. أنت مطالب بأن تكون معتدلا، منتبها، خانعا ومتوفرا على الدوام. هل فهمتني ؟

– نعم سيدي.

انا سعيد لأنك تستوعب الدروس بسرعة.

اغلق الملف بحركة جافة.

سيوصلك سائقي إلى حيث من ستعمل لصالحهم.

يمكنك الانصراف.

بمجرد ما تحركت السيارة من مكانها حتى بدا لي أن حياتي تغيرُ مجراها. أحسست بخفة وراحة بال وانشراح مثل زهرة في بستان. ها هي ذي الشوارع المتعبة بالمدينة راحت تبتعد في الوقت الذي فتحت الشوارعَ الكبرى ذراعيها كي تستقبلني تماما مثل موسى أمام البحر الأحمر. لم أشعر بذلك الإحساس من قبل بالرغم من أنني شهدت نفسي في كثير من المرات أقترب من قطف القمر. أما هذه المرة فقد أبدى حدسي قريحة لا شك فيها، هي أكبر من أي انتشاء، بل هي القناعة بأن هذه الصبيحة من شهر مارس جاءت بهية من أجلي.

حينما اقترح علي دحمان العمل لدى واحدة من أغنى العائلات في البلاد رفضت للتو. لم أقتنع بصورتي خلف المقود وأنا لا أفعل شيئا في انتظار أن تفرغ سيدتي من حصة الايروبيك أو أن أتجمد بجلد أمام باب الثانوية في انتظار أبناء سيدي الذين لا يغادرون المكان بسهولة. كنت أعتقد انني أستأهل أحسن من ذلك بكثير. منذ ذلك الدور الذي عهده إلي ذلك السينمائي الذي كان بحاجة إلى نجوم، لم

أستطع التوقف عن الحلم ببلوغ المجد. أقضي معظم وقتي في تخيل نفسي عظيما، أوقع الأوتوغرافات في كل زاوية شارع، أقود سيارة مكشوفة، ابتسامتي أوسع من الأفق، عيناي واسعتان كمثل عطشي للنجاح. لقد ولدت في يوم عاصفة ومستنقعات مبقورة وكبرت من دون أن أشك في آمالي الأكثر جنونا. كنت مقتنعا أنه عاجلا أم آجلا ستأخذني الأضواء من الزوايا الخلفية كي ترفعني عاليا في قبة السماء. بالمدرسة لم أكن أفكر سوى فيما كان يبدو لي انتصارا. من الإنقاذ إلى المجلس التأديبي كنت دائما أبقي رأسي شامخة في السحاب غير مبال بغضب أساتذتي ولا بحرج والديّ الذي يكبر في كل يوم أكثر. كنت مصرّا على الكسل، أحتل مؤخرة القسم بأصبع في الأنف ونظر مضطرب. لا أكون مرتاحا إلا حينما أكون متخندقا خلف أسوار هواجسي. محفظتي تفيض بمجلات السينما وكراريسي منتفخة بعناوين النجوم وقصاصات جرائد تحكي مغامراتهم العاطفية ومشاريعهم. في بلد يتحول جامعيون مرموقون بإرادتهم إلى بائعي شواء كي يتمكنوا من إنهاء الشهر بسلام، فكرة الحصول على شهادة ما كانت لتستهويني. أحببت أن أكون فنانا. أثثت حيطان غرفتي بالكثير من الصور التي في علوّ الإنسان. جايمس دين، عمر الشريف، ألان ديلون، كلوديا كاردينال يحيطون بي ويحاولون حمايتي من مأساتي العائلية : خمس أخوات تعانين، أمّ ثائرة من فرط قبولها

[illegible] الدابة ووالد متقاعد غضوب، مهتم فقط [illegible] ولا يعرف شيئا آخر عدا العبوس وتقديم اللعنة [illegible] في كل مرة تتقاطع نظراتنا مع نظرته. أمنع نفسي من [illegible] أو أرث بعضا من فقره أو ترويض تقلباته كما لو كان أمرا واقعا. ليس لديّ أدنى سنتيم ولكن لدي الأبهة والمهابة الزائدة عن الحاجة. في باب الواد، في القصبة، في ضاحية سوسطارة وحتى مداخل باش جراح وحيثما [illegible]، كنت أجسد تلك الأسطورة الصاعدة في كل [illegible]. كان يكفي أن أقف تماما في وسط الشارع كي [illegible] ضوءا بنظرتي اللازوردية. تتنهد العذراوات انتظارا في الشرفات لرؤية خيالي أما التافهون من الرجال في محيطي [illegible] يستلهمون من وقاحتي لمنح أنفسهم هيئة ولا شيء [illegible] قادرا على مقاومة قوة سحري الهادئة.

آتني بقطعة منه، حرّكني السائق بجملته.

المعذرة !

– أنا أطلب منك أن تحضر لي قطعة منه.

- قطعة من ماذا ؟

من القمر. مرّ زمن وأنا أحاول الاتصال بك ولكن لا وسيلة هناك لإنزالك من سحابتك.

– المعذرة.

نقص قليلا من صوت الراديو. سقطت يده المشعرة بقوة على فخذي.

– لا تقلق يا صديقي. ستكون الأمور على ما يرام. هل هذه هي المرة الأولى التي تعمل فيها على هذا المستوى ؟

– نعم.

– أرى ذلك.

تجاوز شاحنة ثم زاد في السرعة كي يلحق سلسلة من الحافلات. لعب النسيم بالخصلات اليتيمات التي تحاول جاهدة إخفاء صلعته. تكدس بطنه على ركبتيه كالنصب وبات يبدو غير مستريح في بدلته البراقة. أما ربطة عنقه البالية فتزيد من صورة البروليتاري المحزنة وهو يرتدي ثياب الأحد.

أسرّ لي قائلا :

– في البدء نكون دوما مضغة تائهة ثم ننتهي إلى وضع رجل على ركاب السرج ونتمسك جيدا. الأغنياء ليسوا بتلك الشناعة كما يوصفون. أحيانا يحدث للثروة أن تمنحهم أجنحة لكنهم على دراية بما يفعلون.

أشار إلى علبة عاجية موضوعة على لوحة القيادة.

– إن بداخلها سجائر أمريكية. هي ملك للزعيم لكنه لا يراقب كثيرا.

ـ ...را، أنا أحاول أن أتوقف عن التدخين.

و...ي بالتخفيف من السرعة. أخذ مفرقا ودخل الطريق ال...... أمامنا، بعيدا خلف رذاذ النهار، بدأت أولى نصب الأ... ب العاصمي تبدي بذخها على شاكلة جارية الحريم ..... امام قدمي سلطانها.

ـ اسمي بوعمران. أما بالوكالة فينادونني عادل، وهذا ا... ...لا من أسماء الفلاحين.

ـ نافع وليد.

ـ إذن يا نافع، إذا ما تمكنت من الدخول في اللعبة .. هؤلاء المغرورين ستذهب بعيدا. ستتمكن من تكوين ...ك الخاصة في ظرف ثلاث سنوات. مديرنا بدأ عامل بسيط لدى هؤلاء الأثرياء واليوم فإنه لا يحسد أبدا .. وصل إليه أسياده السابقين. إنه يملك سيارة مرسيدس و..ت تصرفه رصيد محترم بالبنك وفيلته لا تبعد كثيرا عن ... الجبل الذي أمامنا. يأتي إلى المكتب مرة في الأسبوع أما باقي الأيام فإنه يسيح في العالم وهو ينقر آلته الحاسبة.

ما عليك سوى أن تلعب اللعبة أنت أيضا إذا كنت ترغب ألا تحسده على ما وصل إليه.

نفخ خديه قبل أن يهز رأسه مستسلما.

– الأمر مختلف تماما. مرت أربعون سنة من عمري ولي سبعة أطفال وسوء حظ أبدي. أما فيما يخص البناء الجسدي

فإن الطبيعة لم تحابيني أبدا. المظهر الجسدي مهم جدا في العلاقات. إذا ما لم تتمكن من جلب إعجاب الآخرين من الوهلة الأولى فلا يمكن أن تصحح ذلك لاحقا. أضاف يقول بكل فلسفة : هناك أناس خلقوا هكذا. لا مجال أمامهم للإلحاح. إذا حاول الإنسان أن يضرط أعلى من مؤخرته فإنه ينتهي بظهر مكسور وبعدها لن يستطيع الجلوس بصفة طبيعية...

رغم كل شيء، تمكنت السيارة من التحرر من ضوضاء الأحياء الوسخة والانطلاق على الطريق السيار ثم الدوران على الجبل والدخول بعدها في جنة صغيرة، طرقاتها مستوية وأرصفتها عريضة عرض الساحات تحدها من الجانبين نخلات متعجرفة. كانت الشوارع خالية بعد أن طردت مواكب الأطفال الحاذقين الذين ينخرون الأحياء المكتظة بصخبهم. لا وجود هنا حتى لمحل للمواد الغذائية أو كشك. الفيلات الصامتة تدير لنا ظهرها، أما أسطحها العظيمة الموجهة نحو السماء فكأنما تريد أن تتميز عن بنايات الآخرين وتحمي نفسها من مرض راح ينهش باقي البلاد.

– مرحبا بك في بيفيرلي هيلز، همس السائق في أذني.

مسكن عائلة راجا يفرش عجائبه في الطرف الآخر من الحي، قبالة الشمس، بمسبحه الرخامي الأزرق وأروقته

اا املة التي تبدو للعابرين بالشارع. في وسط الحدائق، ا بآلهة تحمي جنانها، يقف القصر خارجا للتو من خرافة .

أوقفني السائق أمام سياج من الحديد المطرّق. انمحت بشاشته في لمحة بصر وقرصت شفتيه ابتسامة مرة. ينظر إلى دوة الآخرين وهي تطوقه بقوّتها وجأشها وثقلها مما جعل عينيه ينحدران نحو الأسفل. خط شاحب عبَر في عينيه اللتين امتلأتا فجأة بعداوة باردة. مرت علي لحظة ظننت فيها أنه يلومني لأنني لم أتمكن من العودة معه كي نخلد معا في الجلبة والعفونة المضرة في الأحياء الفقيرة.

إذا ما كنت بحاجة إلى بديل فأنت تعرف أين تجدني.
قال بدون اقتناع.

هززت رأسي موافقا.

أسرعت السيارة كي تختفي في منعطف الشارع. خلفي، ينبح كلبان دوبرمان مخيفان حتى كادا ينفلتان من السلاسل.

انكفأ رئيس الخدم عن مد يده لتحيتي أو للإشارة إلى أريكة. استقبلني ببرودة في مكتبه الذي يدخله ضوء خافت من نافذة كبيرة تلفها ستائر ثقيلة. رغم بلوغه الستين إلا أنه ما زال واقفا كالغصن وسط الغرفة بنظرته الجافة والحركات المتصنعة. كان يرغب في السيطرة علي روحا وجسدا، أن يبعث بي إلى الأسفل في دور العبد المأمور.

– ألا يكون هذا نوعا من المرض الوراثي ؟ قالها وهو يشير إلى فتوري.

– أنا...

– الرجاء أن تعتدل في وقفتك. قاطعني بنبرة مستعجلة. أنت لست أمام موظف في شبّاك.

تفقدني سريعا بعينين عارفتين غاصتا عميقا في بؤبؤيّ، منتقدا حذائي رغم أني مسحته جيدا بالدهان وربطة عنقي الجديدة وسترتي التي اشتريتها البارحة من منظف ثياب فاخر.

– هل يوجد هاتف بمنزلك ؟

– مرت علينا عشر سنوات ونحن نحاول تقديم الرشوة للعمال المرؤوسين بالبريد من أجل ربطنا بخيط...

– هلا اختصرت من فضلك.

– لا.

– اترك عنوانك لسكرتيرتي.

– كيف يمكن اختصار العنوان ؟

لم تصله وقاحتي لأنه كان قد تجاهلني.

– ستبدأ يوم الثلاثاء على الساعة السادسة بالضبط. ستكون لك غرفة في الجناح الثاني. ستقدم لك سكرتيرتي قائمة الأشغال المنزلية التي تضطلع بها.

ضغط على زر. حضرت السيدة الموجودة بالطابق الأرضي لتصطحبني.

هل هذه إقامة داخلية ؟ سألتها وأنا في الطرف الآخر من الرواق.

لا تنتبه إليه كثيرا، فالسيد فيصل رجل طيب رغم أن به نقص الجدية. ثق بي، ستعجبك الأشياء عندنا. إن رجا عائلة طيبة وسخية.

قادتني إلى مكتبها الصغير، أجلستني على مقعد ثم بدأت تسجيل عنواني في كناش. كانت مهندمة ولطيفة، ولولا مجاملاتها لما تركت جنائزية ذلك التافه الذليل تعكر علي مزاجي.

ما حكاية غرفة الجناح الثاني ؟

لست مضطرا للإقامة هنا، إنها فقط طريقة للعثور عليك لحظة نحتاج إلى خدماتك. أعتقد أنه من الأفضل أن تضع بعض الأغراض الخفيفة. ستضطر أحيانا للعمل حتى وقت متأخر من الليل وسيغنيك ذلك عن البحث عن وسيلة للعودة إلى البيت في أوقات مستحيلة.

هززت رأسي موافقا.

كيف لي أن أناديك ؟

– سيد وليد، الناس هنا يستعملون ضمير الجمع للمفرد.
قالتها بنبرة واضحة جلية ولكن مصحوبة بابتسامة صعبة كي لا تهينني.

– نعم سيدتي.

– أنا آسفة. نحن ملزمون باحترام التعليمات التي تأتينا من مسئولينا.

– لا بأس. كيف كان مآل السائق السابق ؟ أضفت كي أبدد سوء التفاهم.

– أعتقد أنه تعرض لحادث.

– من أي نوع ؟

– لا أعرف أكثر من هذا. هيا تعال أريك غرفتك.

خرجنا من باب الخدمة. استدرنا في صمت حول الأفنية المبلطة والساحة والمسبح، وكأن هذا الجزء من الملكية لا يعنينا. الجناح الثاني يختفي خلف شريط من نباتات الجهنمية يوجد في الحاشية في بناية قديمة وقصيرة مخصصة للخدم. تلتف غرفتي على نفسها في مؤخرة الرواق. إنها جميلة بنافذتها المحاطة باللبلاب وطلتها على الحدائق البهية. غلفت حيطانها بالورق الملون وفرشت أرضيتها بالموكيت وغطي سريرها بلحافات زرقاء. كانت هناك أيضا خزانة وكرسي قلاب في زاوية قبالة التلفاز، خزانة للثياب. هذه

... دعمت الإحساس الذي سكنني منذ الصبيحة في
... الذي كانت سيارة الوكالة تبعدني عن القبح العفن
... المشبوهة.

الأمور هنا هادئة جدا. راحت تطمئنني تلك السيدة.

... هذا الكلام...

... مني دحمان أن ألتحق به في «لبنان». «لبنان» هذا
... مطعم للوجبات الخفيفة عُمل أصلا لاستقبال المثقفين
... أما اليوم فإنه يشهد قدوم قوافل من الفاشلين
... التي تظهر الآثار المدمرة للإبر والحقن المشبوهة
... حلقوها ووجوههم اليابسة والمخيفة. في السابق كان
... والفنانون يلتقون هنا للتنديد بانحراف الثقافة
... والرقابة البليدة والرداءة وكلّها تهدد بتحويل المكتبات إلى
... للعناكب. كان بالإمكان الجلوس إلى طاولة كاتب
... سيناريو أو شاعر ممنوع من الكلام والاستماع إليه وهو
... يخرج سوائل جسده ضد مجتمع متوحش قليلا ما يبالي
... بحرق نخبته أو بالشقوق التي تنخر أساساته في صمت.
البيرة تُذكر ببول الأحصنة لكن المكان من شأنه أن ينسينا
همومنا لأن خيبات الجار دوما أكبر من أن تحتمل. كنت
أرتاد «لبنان» لأغراض أخرى. أولا لأن مقاهي باب الواد
كانت بائسة ثم أن السينمائيين لا يحصلون على خدمة

أحسن من هذا المكان ولذا كنت أود أن ألتقي بواحد منهم كي يمنحني ذلك الدور الذي أحقق به آمالي. للأسف، منذ أن تم إفساد المكان من طرف المدمنين والمخنثين، أصبح عدد من يغامرون بالمجيء إليه قليلا جدا. من حين لآخر، بين سكرتين مشوشتين تندلع شجارات، ويحدث أن تتعثر داخل المراحيض في جثة مشوهة. قامت الشرطة بغلق الحانة مرات عديدة لكن «لبنان» يتمكن دوما من إعادة فتح أبوابه تماما كما يفعل القاضي مع ملفاته. ما يلبث أن ينتهي من قضية حتى تأتي قضية أخرى كي تأخذ منه التفرد. كثيرا ما سألت نفسي عما يبقيني في هذا المخبأ المريب المسكون .بمستهلكي الكوكايين والسحاقيات واللصوص الذين هم في نقاهة. قد يكون بالذات ذاك الجو الملبد الذي يضع كل السماوات في متناول اليد، وكل مرتاد يترك العنان لنزواته. أختبئ في ركني وأنظر إلى هذا الجمع من المهمشين بكثير من الاهتمام. أقنعة بعضهم والحركات الكئيبة لبعضهم الآخر تمنحني جملة من الشخصيات المدهشة. كان ذلك .بمثابة درس في تكويني كممثل.

كان دحمان ينتظرني قرب النافذة الزجاجية وقد وضع أنفه داخل منديل ووجهه محتقن. لقد هدّه الزكام القوي. تململ بوهن كي يترك لي مكانا على المقعد المثقوب وقال دفعة واحدة :

– أتمنى ألا تكون قد ارتكبت حماقات.

لا، ليس هذه المرة.

امنح تنهيدة راحة واسترخى.

ما كنت لأستحمل ذلك.

وأنا أيضا.

كان دحمان صديقي منذ البداية. ولدنا في نفس الشارع العالي في مكان منسي بالقصبة. أبلينا مؤخرات سراويلنا على نفس الأرصفة وتكبدنا غضب أساتذتنا بنفس المتعة لأننا كنا من أشرس التلاميذ. مات والده في حادث وذاك ما قاد دحمان إلى التعقل. رب أسرة في الثالثة عشرة من العمر، وعد أمه بأن لا يخيب ظنها أبدا. في الوقت الذي كنت أحلم وأنا فوق السحاب، كان هو ينهك نفسه في كل مكان كي ينهي واجباته العائلية ويتمكن من الحصول على شهادة الباكالوريا بتفوق. بعد قيامه بتربص في معهد الفندقة بتيزي وزو، عمل في الكثير من المركبات السياحية وربط علاقات مع جملة من أفراد العائلات البرجوازية التي تسكن مدينة الجزائر. ها هو الآن سيد الورل الملك، أحد الكباريهات المقصودة على الكورنيش وقد ابتاع شقة في شارع ديدوش مراد. هو الذي دبر لي جميع الوظائف الصغيرة التي تقلدتها والتي لم أتمكن أبدا من الاستقرار فيها بما فيها الدور الذي منحني إياه رشيد دراق في فيلمه التافه أبناء الفجر.

بيده شدّ بقوة على يدي.

– نافع يا صديقي، الحظ رفيق نزق فلا تتركه يستبقك كثيرا. إنه لا يعود أدراجه إلا نادرا. (أوجعتني أصابعه.) هل تسمعني ؟

– أعتقد أنني سأجد لنفسي سببا مقنعا.

– أأنـت تعتقد فقط ؟

تمكنت من تحرير يدي المتألمة.

رمى إلي بجملة :

– تبدو وكأنك غير راض.

– لا يمكن أن نحصل على كل شيء دفعة واحدة. قلت بلغة فيها مرارة.

– ماذا تقصد ؟

– أنت لا تنتظرني أن أقفز في الفضاء غبطة لأنني خادم أسرة غنية. هل انتبهت : سائق، أنا نافع وليد.

– ومن يكون نافع وليد هذا ؟ قالها بغضب... هو شخص يأخذ من مدخرات أمه القليلة كي يشتري لنفسه حذاءا رياضيا مقلدا لا أكثر. ليس مهمّا أن تمر أمام الآخرين بربطة عنق من حرير وبطن خاوية. الهمة لا تعطى لأي متخلف.

– أنا لست بمتخلف.

هات الدليل. كم لديك من المال داخل الجيب ؟ هات،
ا ي إياه. أراهن على أنك لا تملك ما يكفيك لركوب سيارة
ا . لا أدري إذا ما كان الزكام أو عدم اكتراثك هو الذي
لي الصداع الآن ولكني أؤكد لك بأنك بدأت تتعبني
الوقت يهرب من بين يديك ولا تفعل شيئا. لا يحق لنا
إظهار الاستياء حينما نكون لا شيء يا نافع. إذا ما أردتَ أن
سلّم الرجال، عليك القفز في أول درجة في متناولك.

انا أقول لك بأنني سأحاول.

طلس أنفه من جديد داخل المنديل ومسح جيدا منخريه.
ارع نظره المحموم نظري وحاصره في لحظة. عاد للهجوم.

أعرف الكثير من الناس الذين بدأوا في أسفل السُلم.
لا يمكن اليوم اللحاق بهم حتى بواسطة صاروخ فضائي.
ل الشخصيات الكبيرة التي تسيل لعابك اليوم كانت أدنى
لا شيء عشر سنوات إلى الوراء. هل تريد الوصول أنت
أيضا ؟ هل تريد حقا الوصول ؟

نعم. قلتها بنبرة أقرب إلى الصراخ.

إذن هذه هي الخطوة الأولى.

ما الفائدة من الإصرار ؟ دحمان يجهل أن هناك أناس
يولدون بوضعية الواقف ويمقتون طول حياتهم العبودية.
أناس ينكسرون للتو إذا ما أجبروا على الانحناء. إنه لا يفهم
أن ما يسميه هو كسلا في الحقيقة هو بالنسبة للبعض رفعة،

مسافة تفصلهم عن العادي. أنا لست من أولئك الذين يرغبون في العيش بسهولة. لم يكن في نيتي أبدا أن أحصل على أكبر حصة أو تقلد منصب مسؤول في مؤسسة مهمة. كنت أود أن أكون ممثلا حتى آخر رمق مني، أن أتحصل على شهرة تجعل مني أسطورة أكبر من مبالغتي، أن أتقدم للحصول على امتيازات الآلهة، وإلا كيف لي أن أفسر لماذا خلقتني الطبيعة وسيما وعاقلا مثل الرب ؟

ملاطفة لي، أخذني دحمان معه كي نتعشى في مطعم برياض الفتح. لم يكف طوال السهرة عن رشقي بالنصائح والأمثلة التي كان غرضه منها زيادة عزمي. في كل مرة يحس بموجة غضبي قادمة إلا وقدم لي بيرة أخرى. حين بلغنا منتصف الليل، كنت قد سكرت. ليس بالإمكان الذهاب إلى البيت وأنا على تلك الحال. ما دام أبي مصرا على بعض المبادئ، فأنا لا أريد أبدا أن أرمي الأسرة بأكملها في فوضى عارمة. قبل دحمان إيوائي تلك الليلة. في الصباح، أخذني إلى بيتي. بمجرد أن رآني في المدخل حذرني أبي قائلا :

– أعلمك أنني لن أنفق سنتيما واحدا. لم أطلب شيئا ولا أعير اهتماما لأجراس التنبيه التافهة هذه.

تنحى جانبا كي يشير إلى جهاز الهاتف القابع فوق خزانة صغيرة في بهو الدار. بقيت أفكر للحظة. منذ سنوات عديدة وأنا أبعث الطلب تلو الطلب وأحاول تقديم الرشاوى للعامل تلو الموظف وأرسل رسالة تذكير تلو رسالة

اا ـ اس من أجل الحصول على خط هاتفي دون جدوى. ما ـ ي مني ترك عنواني لدى سكرتيرة عائلة راجا كي يتم . ـ ب الهاتف في نفس اليوم.

هل رأيت؟ صرخ دحمان بتعجب. هذه أفضال الأشياء التي لا يتم انتظارها طويلا.

وافقتُ على ذلك.

إذا ما لم يتمكن المال من صناعة السعادة فتلك ليست ماهيته.

.2

ذهبت إلى بيت أسرة راجا يوم الثلاثاء على الساعة السادسة صباحا بالضبط. تفقد السيد فيصل ساعة يده علانية قبل أن يحرك رأسه مبديا اقتناعه. قادني إلى مرآب ضخم حيث ركنت خمس سيارات فخمة جديدة وشرح لي استعمالات كل واحدة منها ثم راح يقدم لي أبجديات مهنة السائق.

– عليك تفادي النظر إلى عيني الزعيم أو مد اليد تجاهه. قالها بحرص.

أراني المكان الذي علي أن أكون فيه وكيفية فتح بوابة السيارة وكيفية غلقها.

– بكل لطف. مؤكدا على كلامه. يجب أن تدور على السيارة من الأمام وليس من الخلف أبدا. بمجرد الجلوس أمام المقود، أنظر أمامك. حين يتحدث إليك أحدهم لا تلتفت أبدا. نظرة بسيطة في مرآة السيارة تكفي. ليس أكثر من مرتين خلال الرحلة الواحدة.

أخذني في دورة حول الملكية، بيّن حدود «جولتي» وعرّفني على الاتجاهات الممنوعة.

– للالتحاق بالشارع لا تمرّ عبر المسبح. يوجد باب صغير هناك تحت الميموزا.

في حوالي الساعة التاسعة صباحا أرسلني إلى محل لبيع الأثواب الجاهزة. أحضرت منه نصف دزينة من البدلات المتشابهة تماما لكنها جيدة، ثلاثة أزواج من الأحذية الإيطالية، حزمة من الألبسة الداخلية، بعض القمصان، جملة من ربطات العنق السوداء ونظارات شمسية. في اليوم الموالي، على متن سيارة من نوع بوجو براقة، أسرعت لإيصال بعض العلب لقرابة عشرة من الوجهاء. كان هذا بهدف تدريبي على خطوط السير الأكثر أهمية. بعد خمسة أيام صرت أتمكن من الوصول إلى الباب المقصود بعينين مغمضتين ودون أن أضيع الوقت في الشوارع. احترام الوقت لدى هذه الطبقات العليا صفة حميدة، من الكفر أن تجعل أحدهم ينتظر.

بحكم أن أفراد عائلة راجا كانوا في رحلة عمل، أراد السيد فيصل تكويني قبل عودتهم. راح يقدم لي توجيهات كل صباح ويحفّظني بعض الأسماء والعناوين وقياس الزمن الذي أستغرقه في مشاويري، محاولا تصحيح أوراق الطريق التي بحوزتي، منفجرا غضبا مع كل حركة خاطئة. حين تصيبه نوبة الغضب، يتقوس ظهره ويشتعل وجهه بسرعة

نخاله معها وكأنه على حافة الإصابة بنوبة قلبية. في هذا الوقت، كنت في كل مرة أجهد نفسي للتخفي خلف مجاملات مفرطة. حينما يأتي المساء أكون قد أنهكني اليوم الماراتوني فألتحق بالجناح الثاني ورأسي على وشك الانفجار. بعد أن تغلق علي الغرفة أحس بنفسي وقد أصبحت مجنونا. حتى النوم راح يهرب من عيني. أبقى ممددا على السرير ويداي خلف رقبتي وعيناي في السقف. أحاول تسلية نفسي ساخرا من الطفل الذي كنته، من مغامراته البليدة وأسراره الكبيرة. دون جدوى. هناك شيء يرفض أن يدخل اللعبة. بدأت أشتاق إلى ضوضاء شوارعي، إلى نداء الفقر، إلى دفء أحبابي. في هذه الساعة بالقصبة كانت من عاداتي الصعود إلى السطح كي أتنفس الهواء أو الذهاب لدى الشاعر سيد علي كي أتفرج عليه وهو يمص سيجارة محشوة بالعقار ثم يقرأ بعض النثر بين نفس وآخر. هنا الصمت، الغياب، البرودة تعكر مزاجي في حين يجف جسدي وأنا أستقبل في راحة يدي رطوبة الوحدة. كانت غرفتي «العلبة» تشبه الشرنقة العقيمة التي لن تهرب منها أية فراشة.

يتعشى الخدم على الساعة السابعة مساءً في قاعة تشبه مخدع النوم قبالة المطابخ. ثلاثة رجال وامرأتين يتعشون حول طاولة كبيرة من حطب البلوط، لا يأبهون ببعضهم البعض تماما مثل حلقة من التماثيل. البستاني شيخ طاعن في السن، جاف، رزمة عظام جمعت بطريقة فوضوية

داخل ثوب العمل البالي. أشيب الرأس منهك البصر، يقضي وقتا محاولا إيصال ملعقة الأكل إلى فمه أطول من ذاك الذي يقضيه شخص أحْول لإدخال الخيط في خرم الإبرة. كان يبغي البقاء في الهامش، مثل الشبح، مكورا حول صحن الأكل، مقاطعا عالمه بعداوة صماء. عاملتا النظافة تضغطان على بعضهما البعض في ركن من الغرفة، بوجه متجعد وذقن للوراء. من الواضح أنهما غير مرتاحتين لوجود الذكور بالقرب منهما. يبدو أن فضولي قد أزعج الخادمين الآخرين اللذين راحا يزدردان أكلهما ويستعجلان مغادرة المكان.

الموظف الجديد يؤجج دوما الشكوك في البداية. قلت في نفسي أنه مع مرور الوقت سأتلقى ابتسامة أو ارتجاف حاجب. بعد أسبوع ما زال نفس الاستقبال البارد ونفس النفور. حاولت أن أقدم التحية، صباح الخير، مساء الخير، أهلا بالجميع، ولكن لا ظل نظرة، لا أبسط تمتمة ما عدا ربما صرير كرسي أو التوقف المؤقت لارتطام شوكة تخون المضايقة التي يثيرها حضوري الذي لم يكن في حينه. جلستُ في الطرف الآخر من الطاولة. يقدم إلي الأكل بسرعة، في صمت بليغ. أحيانا يتم أخذ الأواني قبل أن أنهي أكلي. في لمحة بصر، يغادر جيراني المكان على رؤوس أصابعهم وأجدني وحيدا في وسط المطابخ، بإحساس الغربة الذي يتحول عند آخر السهرة إلى اكتئاب غائر.

سيد علي شاعر القصبة، كان دوما يقول لي أن الجزائر أكبر أرخبيل في العالم يتكون من ثمان وعشرين مليون جزيرة وبعض ذرات الغبار. لقد نسي أن يقول بأن محيطات سوء التفاهم التي تفصلنا عن بعضنا البعض هي أيضا الأوسع والأظلم على الكرة الأرضية.

في اليوم الثامن وبينما كنت أحضر نفسي للتنازل عن كل شيء والعودة إلى «زنقات» القصبة دخل عليّ رجل في غرفتي.

– هل أنت هو الشخص الجديد ؟

دون أن يترك لي وقتا للوقوف، تناول قارورة ماء كانت موجودة فوق طاولتي وأخذها إلى فمه. هو رجل ضخم أسود، مربع مثل حلبة الملاكمة، منحه الله أذرع الجبابرة ووجه قوي ومحفور. عصر القارورة بين أصابعه ورماها داخل سلة الورق ومسح شفتيه بمعصمه. مسح بعينيه الحادتين طولي من الرأس حتى القدمين.

– أنا أبحث عنك منذ ربع ساعة.

– كنت أتعشى مع البقية.

– مع أولئك المهرجين، ألست مجنونا ؟ هذا ليس مكانك يا صديقي. هناك مطعم للأكل الخفيف برقم 61 شارع فخار. اسمه الفوكي يملكه جونيور. من الآن فصاعدا ستتناول وجباتك هناك.

– لم أكن لأعرف. قلتها وأحسست بالراحة.

– أنت تعرف الآن. (مد يده فجأة نحوي). اسمي حميد. أعمل لصالح ابن الزعيم. هيا نغادر هذا المكان لأنني أحس بشعر أبيض ينبت فوق رأسي بمجرد بقائي هنا.

غادرنا من الباب الصغير الذي تحت الميموزا. هجم الليل على الشوارع واحتلها وما بقي أمامه سوى آخر جيوب الحرارة. في السماء قمر منتفخ البطن وهو يستعرض فصائل النجوم تمر أمامه أرتالا. دعاني حميد لأخذ مكاني داخل مرسيدس مهيبة. اعتدل خلف المقود ثم انطلق مسرعا عبر الشوارع الكبرى المهجورة.

بعد طول صمت مضن قلت له :

– وجهك ليس بغريب عني.

كشف لي عن أسنانه الكبيرة وصاحبها بابتسامة قائلا :

– حاصل على ميدالية ذهبية في ألعاب البحر الأبيض المتوسط، نائب بطل العالم في الألعاب العسكرية، نائب بطل إفريقيا، بطل العالم العربي مرتين، مشاركتان في الألعاب الأولمبية...

رحت ألطم جبهتي براحة يدي :

– حميد سلال الملاكم.

– كنت ستخيب ظني.

– ألم تختر مسيرة مهنية ؟

– نعم ولكن أصحاب الريع من الفدرالية أبدوا جشعهم فقلت لهم : لن أقتسم معكم. طردوني. قضيت سنتين في مرسيليا. ربحت المباريات الأولى قبل الآجال وفجأة وجدتني أغسل الأواني في أحد البارات.

– كيف ذلك ؟

– تكفل أصحاب الفدرالية بسن قوانين أخرجوها من عمق خليط ما وألغوا كل عقودي. عدت إلى البلد كي أبدأ من جديد. ألبوا الطاقم الفني ضدي ثم ألقوا بي خارج الفريق الوطني.

– لماذا ؟

– أرادوا استغلالي. وسيلة نجاح أكيدة. أنا آخذ اللكمات وهم يأخذون الأموال. هذه هي الحال في الفدرالية. بلال الروجي، رشيد يانس، القوشي كان بإمكانهم كلهم أن يصبحوا أبطال العالم. لقد تم تحطيمهم فقط لأنهم رفضوا قبول المخططات الجهنمية للصوص الرياضة. استغل بلال أحد التربصات بكندا كي يهرب. رشيد يعمل ميكانيكيا ببوفاريك. القوشي هو الوحيد الذي نجح في الحصول على حظيرة في ضواحي مدينة غليزان، يدرّب الأطفال صباحا ويسكر ليلا. بلادنا يا صديقي ليست للأحصنة الأصيلة.

حتى تتمكن من العيش عليك أن تكون حمارا أو جوادا
ا دينا... اسمع، أوقفني عن الكلام متى أحسست بالضجر.
في ميدان الثرثرة لا أحد يغلبني وفي كل الأوزان.

- أنت لا تزعجني أبدا. مرّ أسبوع وأنا أمضغ فراملي.

ربما ولكن هذا ليس سببا كي أتجاوز حدودي. حين
يرى جونيور أنني حددت موجة الإرسال فإنه يرميني
الوجه بقطعة نقدية كي يقطع حديثي.

قبل أن أوافقه الرأي واصل قائلا :

- لقد جرجرت حذائي في كل الأماكن واشتغلت في كل
المهن النتنة حتى أنني ترنحت لبضعة أشهر على ظهر سفينة
صيد. في إحدى السهرات أين كنت أشرب الجعة كي أهضم
همومي، طلب مني صاحب البار أن أعمل لديه كحارس
داخلي. كان المكان سيئ السمعة. معرض وحوش حقيقي.
قد تقطع رقبتك من أجل لا شيء. في اللحظة ذاتها أعدت
كل شيء إلى نصابه. ليس لأنني أحتاج إلى بذل مجهود كبير.
است بحاجة أصلا إليه. الزبائن يحترمون البطل. في بلادنا
لا يعترف بمجدك كاملا إلا البسطاء من الناس. وحدهم
يعترفون بقدراتك أما الرسميون فيهنئونك في السهرة
وينسونك في اليوم الموالي. لهم انشغالاتهم الأخرى. كلهم
تافهون... بهذا الملهى التقيت جونيور. كان يبحث عن
حارس خاص. قال لي : أرني قبضتيك. أريتهما إياه فقال :

إنهما من البرونز. افتحهما الآن. فتحتهما فقال : لا شيء بداخلهما غير الريح. بعدها أراني قبضتيه فقلت : إنهما ظريفان لكنهما من خزف. ضحك جونيور ثم فتحهما. كان بداخلهما المال... أنا ملاكم. بفضل الضربات التي تلقيت على الرأس ما عدت أستعجل في قراراتي. لكن في تلك الليلة، ما كنت محتاجا إلى سبورة. لقد فهمت للتو. هكذا اختارني جونيور للعمل لديه.

وصلنا أمام شاليه سويسري متخف وراء غابة فتية من الأشجار الاستوائية. راحت العجلات تهدل فوق ركام الحصى ثم توقفت السيارة قبالة واجهة زجاجية. كان هناك رجل بلباس الكيمونو يرتاح على كرسي قلاب على حافة مسبح، بين شفتيه سيجار هائل كالطيف، بعينيه نظرة سيدة.

نبهني حميد بقوله :

– هذا جونيور.

رتبت بذلتي ووقفت مستقيما في أسفل المدخل الرخامي. تفقدني جونيور بنظره جيدا. حين تلملم محركا رجلين مكتنزتين ورطبتين، انفتحت بذلة الحمام التي كان يرتديها على سليب قصير عنابي اللون. سحنته قرمزية وبطنه مهاجمة. تنبعث منه رائحة الثراء على مئات المسافات في محيط دائرته. بلغ من السن حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين

سنة لكن يبدو أنه يرى نفسه أكبر من ذلك بكثير وذاك ما
مكنه من إظهار سلوكيات البطريرك.

أمرني بقوله :

– تقدم كي أتفقدك أكثر.

– تسلقت الدرجات الأربعة التي تفصلنا ثم توقفت
على بعد مسافة محترمة طبقا لتعليمات السيد فيصل.
وضع جونيور سيجاره من جديد على حافة مطفأة في
شكل زهرة نيلوفر. تفقد وجهي جيدا بشفتين باردتين.
بنقرة واحدة، دفع إلي دون انتباه بطاقة عمل عليها رسم
تخطيطي.

– ستأتيني بامرأة. إنها بانتظارك في «فوكا مارين». أنت
تعرف على الأقل أين يوجد هذا المكان ؟

– على بعد ستين أو ثمانين كيلومترا من هنا.

– عندنا الحديث لا يدور سوى حول التوقيت. لوحة
القيادة في سيارتك تمثل إطار ساعة يدك. هل فهمتَ ما
اقول ؟

– نعم يا سيدي.

– المسلك موجود على هذه البطاقة. أريدك أن تكون قد
عدت قبل العاشرة ليلا. لقد تأخرت ثلاث دقائق.

التقط حميد البطاقة ووضعها في جيبي ثم دفعني داخل المرسيدس.

– فليبدأ العد.

أدرت المحرك الذي بدأ يزأر.

– أين هي وثائق السيارة ؟

– سيارات عائلة راجا ليست بحاجة إليها. هيا انطلق، انطلق...

استهلكت ساعة للوصول إلى فوكا ضاغطا على الدواسة عن آخرها طوال الرحلة. لم أكن على استعداد للفشل في أول مهمة. قادتني الطريق إلى فيلا في طرف الحي. بمجرد ما كنت أستعد لإيقاف السيارة بجانب الرصيف حتى طلعت امرأة من الظلام وارتمت في المقعد الخلفي للسيارة.

– كان عليك إطفاء الأضواء القوية أيها المغفل. قالتها متأففة.

– أنا جديد يا سيدتي.

– هذا ليس بعذر.

امتلأت مرآة الرؤية الخلفية بتجهم صورة وجهها الباهت.

– انطلق بربك ! صرخت باللغة الفرنسية.

صعقني جفاف نبرتها وشوشني. انطلقت بالسيارة وخبطتها في الرصيف. رمت الخضة بالسيدة من مكانها مرتطمة بباب السيارة.

– أيها الأحمق، عد إلى دوّارك لإصلاح عربتك التي تجرها الحمير.

– أنا عاصمي أصلي، قلت لها بنبرة فيها من العدوانية ما يكفي لإفهامها أنني على استعداد لكي أترك لها خردتها والرجوع إلى بيتنا راجلا.

هدأت ثم انتبهت إلى أنها قد أضاعت شيئا ما. فتشت حولها ثم بعثرت محتويات حقيبة يدها ساخطة قبل أن ترتمي على المسند في الخلف منهكة متبرمة. بعد مسافة أخرى، أشعلت ضوء المصباح السقفي وراحت تتحسس بأصابعها أرضية السيارة وتقلب ما بداخل حقيبة اليد.

– هل أستطيع مساعدتك يا سيدتي ؟ اقترحت عليها وكلي محاولة لإقامة الصلح.

– نعم : اهتم فقط بما يخصك.

تلاقت صورتانا داخل المرآة العاكسة في تصادم عنيف. صرختْ :

– هل تريد أن أعطيك صورتي الشمسية ؟

أشحت بوجهي.

ارتجاج نفَسها راح يحرق قفاي طيلة الرحلة.

كان حميد بانتظارنا في مدخل الملكية. بمجرد ما تعرف على المرسيدس، أسرع لفتح باب السيارة حتى قبل توقفها التام. المرأة هائجة في الخلف بمزاج لا يطاق. بمجرد ما أن وضعت رجلها الأولى خارج السيارة حتى رأيتُ جسدها العاري تماما تحت معطف الفرو. التحق بنا جونيور، عانقها مرحا ثم لثم شفتيها.

– هل نسيتِ ابتسامتك فوق علبة البودرة يا عزيزتي ؟

– كنت أحضرت لك هدية صغيرة معي لكنني لم أجدها.

– أف ! كنت أعتقد أنك غير مسرورة بلقائي.

دفعها أمامه ولطم مؤخرتها محدثا صوتا.

– سأنهي أمر هذا الطارئ، على طريقتي طبعا، يا كنزي الغالي.

أغلقا الباب الزجاجي خلفهما. طلب مني حميد بنبرة محمومة :

– هل تعرف من تكون هذه ؟

– لا.

– ألم تسمع أبدا بالحديث عن سيدة شنوة ؟

– لا أعتقد.

– إذن هذه هي السيدة : ليلى سكار التي دوخت حتى التماثيل. هي ابنة دبلوماسي ويروى أن أحد أمراء الشرق قد تنازل عن مرتبته لأنها فقط طلبتٍ منه ذلك.

– ومن الضروري طبعا أن أصدق هذه الحكايات.

– أنا أصدق. اليوم ما زال كبار الأثرياء يفرحون لو ترضى أن يلحسوا أصابع قدميها. في عمر الأربعين لكنها تبقى الأنثى الأكثر اشتهاء في كامل الجزائر الكبرى. حينما التقى بها جونيور للمرة الأولى كاد أن يتعرى تماما أمامها بالرغم من وجود حريم تحت تصرفه في كل شارع. ليلى هي جائزته الكبرى، هي مجده. رغم فارق السن بينهما فإنهما يؤججان الغيرة في كامل المدينة.

– أنا مرهق، قلت له كي أضع حدا لضياعه. هل أستطيع المغادرة ؟

– غير ممكن يا صديقي. ستصطحبها إلى بيتها في ظرف ساعة. زوجها يعود مع الفجر ويجب أن تكون هناك كي تستقبله بقبلة.

– زوجها يعود مع الفجر ؟...

– يا هذا، هناك الكثير من الرغبات التي لا تقوم سوى على المخاطر التي تأتي معها. أنت لم ترَ شيئا بعد...

في حدود الساعة الثالثة صباحا، اصطحبت المرأة إلى بيتها. لم نتبادل طوال الرحلة ولا كلمة واحدة. تمددت فوق

مقعد السيارة وراحت ترمق السقف دون أن تحرك رمشا. دخنت سيجارة وهي تستمع للموسيقى المنبعثة من الراديو. حين وصلنا أمام بيتها، انتظرتْ كي أفتح لها باب السيارة ثم دخلت المنزل دون أن تنظر إلي. قبل أن أغادر المكان، شاهدت علبة محصورة بين مخدات الكرسي الخلفي. رجعت كي أناولها إياها.

– سيدتي، لقد نسيت هذا.

رفضتْ نظرتها الأثيرية التوجه نحو ما كنت أمسك بيدي مفضلة الارتماء في عينيّ كي تلاحق أفكاري. أحسست بها تغوص في أعماقي مثل الحمم المسكوبة، تغرق أحشائي وتعكر صفو روحي. بحركة ذابلة، تمددت أصابعها كي تلمس بخفة خدِّي وتشعل ذاتي قشعريرة متموجة. فجأة، تمالكت نفسها.

– أنا لا أنسى شيئا أبدا يا صغيري.

حين رأت أنني ما فهمت بعد أضافت :

– بإمكانك الاحتفاظ به.

بعدها أغلقت الباب برقة بيننا.

حين عدت إلى سيارتي فتحت العلبة ووجدت فيها روليكس، ساعة يد رائعة مشدودة إلى سوار من ذهب.

قلت لنفسي :

– نافع، أيها الشاب، لا أدري إذا ما كانت هذه الدرجات التي تسلقتها ستكون لك منصة فوز أو منصة مشنقة. هناك شيء واحد مؤكد : لقد بدأت الحكاية...

.3

عاد أفراد أسرة راجا من سفرهم منذ أسبوعين. ذهب حميد كي ينتظرهم في المطار ولم أتمكن من رؤيتهم ولو مرة واحدة. حرص السيد فيصل على غلق البويب الذي يفصل بين «مشواري» وساحة المسبح. من الصباح حتى المساء، أضيق ذرعا بالجلوس في غرفتي أتفرج على أظافري وأقلب أوراق نفس المجلات. أحيانا كان رئيس الخدم يرسلني لقضاء بعض الحاجات التي في غالب الأحيان تكون لشخصه، ما عدا ذلك فإن من أعمل لصالحهم يتجاهلونني. فالسيد راجا غائب على الدوام أما السيدة فلا أعرف منها سوى صوتها الحاد الذي يرعب مجموعة الخدم ويحدث تشتتا حقيقيا داخل القصر.

في ذلك الوقت كان جونيور قد أوكل إلي بمهمتين. الأولى هي ذهابي إلى مدينة تيزي وزو لأحمل هدية لأرملة أحد رجال الصناعة. الثانية هي اصطحابي لإحدى العاهرات إلى مدينة وهران. قضيت 430 كيلومترا من العواصف

والطرقات المكسرة واختناق لا يطاق في حركة المرور. كلمت جونيور في الهاتف لأطلب منه رخصة المبيت في النزل. قلت في نفسي أنني سأسترجع قواي بعد حمام وليلة نوم هادئة. صرخ في الطرف الآخر من الخط : «انس هذه المسألة. أريد السيارة هنا في الساعة الأولى من النهار». أخذت الوقت الكافي لازدراد ساندويتش في مطعم حقير وقفلت راجعا نحو طريق العودة. حل الليل. هطل المطر غزيرا وراح البرق يعميني. 430 كيلومتر إضافية كادت أن تنهي حياتي. نمت على المقود وأنهيت رحلتي في تراب حقل محروث.

– ستدفع ثمنه من جيبك، حذرني حميد حين رأى راد الصدمات بالمرسيدس قد أصابه عوج. لم يمر على وجودك شهر واحد عندنا وليس من الجيد أن تعلمهم بالحادث. لو كنت مكانك لذهبت أبحث عن مختص جيد في إصلاح هياكل السيارات.

– أين جونيور ؟ كنت أظن أنه بحاجة للسيارة.

– لقد طار إلى باريس بعد ساعة من المكالمة التي أجراها معك.

– يا إلهي، لماذا طلب مني إذن أن أعود في هذا الجو الرديء ؟

– هذا يا صديقي ليس رواقي. أروقة الرب مستعصية.

دعتني الحاجة إلى الاستعانة بدحمان لدفع تكاليف إصلاح السيارة. بعد هذه المصيبة عدت إلى التدخين من جديد مثل البهيمة، دون الانتباه إلى ذلك. ترهقني النهارات وتنتهي المساءات مستعجلة. رغم الوسط الرائع في الفوكي إلا أنني انتبهت لمراقبتي الدائمة للهاتف. كان من واجبي إخطار السيد فيصل عن كامل تحركاتي وإعطائه عنوان المكان حيثما وجدت. أحيانا كان يطلبني في الهاتف فقط ليعرف أنني لست مخمورا أو في ثياب النوم. حينما أعود بسرعة متقطع النفس، لا يفشل أبدا في إيجاد عتاب يبرر به ملاحقته لي قبل أن يأذن لي بالانصراف معكرا بذلك صفو لحظات راحتي النادرة.

تأتي بعد ذلك صونيا، البنت الوحيدة لعائلة راجا. مخلوقة مسمومة. جميلة بقدر الوهم الذي ستأخذ منه مساوئه. حين ذهبت لانتظارها في المطار وقعت حبيس فتنتها. بدت نحيفة في وسط أمتعتها وقد عصبت رأسها بمنديل من البوهيمية الراقية. رجليها الساحرتين غطيتا بجوارب طويلة تحبس الأنفاس. فارعة الجسم، بيضاء البشرة، ممتدة القوام. إنها تُذكر بسنبلة راحت تحيّي بهاء الصيف. أكرمتني بنظرة ملحاح في الوقت الذي كنت أضع حوائجها في صندوق السيارة.

على العكس من نظريات السيد فيصل فإنها جلست بجانبي ولم تنحّ نظرها عن صورتي الجانبية أبدا.

– هل أنت هو الشخص الجديد ؟

– نعم يا آنسة.

يبدو أنها معجبة بكلمة «آنسة». فجأة عيناها المضاءتان أخذتا لونا داكنا.

– ما هي حكاية «الفيس» هذه ؟ هل صحيح أن الأصوليين يحكمون بعض البلديات عندنا ؟

– نعم هذا صحيح يا آنسة.

– وهل كل البنات يرتدين الحجاب ؟

– ليس بعد، آنسة.

– حسب رأيك، هل سيحكمون البلاد ؟

– هذا ممكن، آنسة.

– هذا هو موضوع كل الحديث في أوربا. أتساءل إذا ما فعلت طيبا بالعودة إلى هنا.

رمت بجسدها على المسند ورفعت شعرها بحركة متذمرة :

– كنت أتمتع في جنيف... هل تعرفها ؟

– لا، آنسة.

– ألم تذهب أبدا إلى أوربا ؟

– ذهبت إلى فرنسا فقط في المرحلة التي كان لنا الحق في بعض أوراق العملة الصعبة.

– هل لديك عائلة هناك ؟

– لا، آنسة.

ظنا مني أن الفرصة مواتية، قلت :

– كنت أود الدخول إلى عالم السينما.

تفقدت وجهي لمدة ثلاث ثوان لا تنتهي :

– نعم صحيح، لديك الهيئة لذلك.

– شكرا، آنسة.

صمتتْ. تَولد لدي حزن عميق. كنت آمل في توقفها قليلا عند الموضوع والقول بأنها سترى ما تستطيع فعله من أجلي في حال كانت لديها علاقات في الميدان، أشياء من هذا القبيل. ولا شيء. أشعلتْ المذياع وارتمت خلف صمت مهيب.

في اليوم الموالي، جندتني كامل الوقت. أخذتها إلى النادي، في القولف، وانتظرتُ طيلة الصبيحة في موقف السيارات تحت شمس محرقة. في منتصف النهار، أخذتها إلى باش جراح وهنا أيضا سال العرق من يدي وابلا على المقود. في الساعة الثالثة ظهرا، عادت من جديد إلى النادي

كي تنسى نفسها هناك حتى يأتي الليل. ما أكلت مضغة منذ فطور الصباح. اكتفيت بساندويتش لم أفرغ من أكله.

لمدة سبعة أيام بلياليها لم أكف أبدا عن التململ في كرسي السيارة، عن دعك علب السجائر بحركة محمومة دون أن يكون في مقدوري الابتعاد عن السيارة لأن صونيا تمقت البحث عن عبد مأمور. في إحدى الأمسيات، لجأتُ إلى مطعم صغير في الرصيف الآخر من الطريق، كادت أن تجهز علي.

– ثم ماذا أيضا ؟ راحت تصرخ في الوقت الذي تشكلت مجموعة حولنا. قد يرغب سيدي في أن أحضر له طعامه حتى السرير. غير ممكن، من تعتبر نفسك ؟ ليس لك حق مغادرة السيارة إلا بإذني. يجب أن أجدك حيث تركتك. إذا أنت غير راض بهذا، فارجع إلى كوخك.

– نعم، آنسة.

– أنظر إلى هذا، رمرم أحد المتسكعين متقززا من الصورة الساقطة التي ظهرت بها.

لم أعتقد يوما أنه ستمر علي لحظة أحقد على شخص كل ذلك الحقد. في صمت تام، فتحت لها باب السيارة ثم أغلقته خلفها بصوت «كليك» ناعم. تسللت بصعوبة بين أفراد الجماعة المستائين ثم اندفعت أسوق متوجها نحو

أعالي المدينة. ركنت السيارة تحت شجرة خروب في مكان خال من الحركة. قطبت صونيا حاجبيها :

– أين نحن ؟

نظرت إلى الخلف في اتجاهها. ارتعدتْ حينما قرأتْ في عيني. وضعت يدي على كتفها بكل هدوء ثم جذبتها نحوي بحركة خاطفة وعنيفة.

– اسمعيني يا آنسة. صحيح أنني مجرد سائق سيارة عادي، هذا صحيح، تستطيعين الاستغناء عن خدماتي متى يحلو لك ذلك، لكن هناك شيء واحد تخطئين إذا ما لم تنتبهي إليه : أنا إنسان ولي احترام لذاتي. هذا غير كاف كي أغتسل من كل الأحكام المسبقة ولكن ليس لي شيء آخر. إذا ما حدث وأضعته، فلأضيع كل الحياة معه.

بلعتْ ريقها بعد أن أطلقت سراحها.

ظننت أن أشيائي انتهت وأن صديقي دحمان سيلوموني حتى آخر حياته. كنت مخطئا. في اليوم الموالي، جاءتني إحدى الشغالات بعلبة صغيرة بداخلها سلسلة من الذهب الخالص وقصاصة ورق معطرة كتب عليها : إذا ما سامحتني، ضعها حول رقبتك... لن تعنفني صونيا بعد هذا الحادث أبدا لكنها واصلت في استغلالي بطريقة بشعة حتى أن ثقل سلسلتها أصبح في رقبتي يزن أثقل بكثير من طوق حديدي.

دعاني السيد فيصل للحضور لديه ليلا. بدا مسمّرا خلف مكتبه الفيكتوري، قلقا وهو يجفف العرق بمنديله. شحوبه وجبهته البراقة أخافاني مما سيأتي. بدأ بتسريح ربطة عنقه الفراشة وقطب حاجبيه، كأن سبب وجودي هناك فر منه. حين استعاد قواه، مسح قفاه ولحيته وحاول التركيز ثم أخبرني :

– ستخرج السيدة اليوم... أحذرك، إنها لا تحتمل الاهتزازات. عليك أيضا تفادي الحفر والطرقات المهترئة. أي أن تقود بنزاهة. قلل من السرعة الفائقة وتجنب المجازفات.

رماني بقائمة تعليماته دفعة واحدة قبل أن يبرحه النفس. كأن مصيره مرهون بمهارتي في السياقة. الواضح أن السيدة راجا زرعت فيه خوفا خرافيا حتى أنه يبدو مسؤولا أمامها عن كل ما من شأنه أن يحدث في المنزل.

– نافع، أضاف قائلا وهو يسرع داخل الرواق، لن أمل من تكرار هذه الجملة : كن بسيطا ومنتبها.

– أعدك.

الظاهر أن السيدة راجا كانت في شبابها قد سحرت الكثير من المغرمين. تقاسيمها البهية ما زالت تحتفظ ببقايا نبل حقيقي. في الخامسة والخمسين من العمر، ها هي تنهار تماما مثل البناية التي طالتها الصاعقة. أدركها الوقت

واسترجعها في الوقت الذي لم تكن تنتظره أبدا. ما عادت تعرف كيفية التفاوض معه. أصبحت تشبه المومياء وهي ترتدي ذاك الساري بانعكاسات ألوانه الغسقية وتجلس بأبهة على المقعد الخلفي، إلهة محتضرة في بوابة تابوتها. عيناها الكبيرتان تتشبثان دوما بالنجوم الخاطفة أما وجهها المتآكل بفعل المرض ما عاد يؤمن بالمعجزات. بدأ ينقص بعزم شديد، مغلفا بسحره الماضي، مثل أسطورة قديمة ما عاد لها بهرج، سحر شبحي، مرٌّ، يعيده إلى رشده عجز الأثرياء عن تقديم الرشوة لانجراف السنين رغم مجهودات عمليات شد الجلد وماركات مساحيق التجميل الأشهر في العالم.

لم تتفوه بكلمة خائنة مذ ركبت السيارة، ولا حتى عندما دخلت العجلة في ثقب مملوء بالماء كان قد أفلت من انتباهي. قامت فقط بإعادة طرف شالها إلى مكانه واسترسلت في تأملها لأضواء المدينة بهدوء طفل يجلس أمام حوض أسماك.

عبرنا حيا سكنيا فاخرا. اجتازت الساعة منتصف الليل ولم يتحرك ظل واحد في الشوارع. من حين لآخر كانت السيدة راجا تدلني على الطريق بصوت خافت جدا، «يمينا»، «شمالا»، «نحو الأمام»، إلى أن طلبت مني التوقف أمام منزل مشتعل الأضواء.

— تعال معي.

نزلتْ من دون مساعدتي ودقت جرس الباب. فتحت لنا الباب شابة، انسحبت بمجرد تعرفها على الزائرة. دخلنا

إلى قاعة استقبال فاخرة : أرائك مغطاة بالديباج، قناديل من فخار وأواني لماعة. جلس رجل بتكاسل داخل أريكة وبيده غليون قريب من حركة لا إرادية. صلعته تلمع تحت ضوء ثريا من كريستال. بمجرد أن رآنا، قفز من مكانه امتعاضا أكثر منه مفاجأة، ثم نهض، رفع سترته وخرج إلى الشارع دون أن يقول كلمة واحدة. منعت السيدة راجا نفسها من النظر إلى الفتاة. أرادت أن تظهر أنفتها. تنحت قليلا إلى الجانب كي تترك أمام الرجل فسحة للمرور، وكأن هذا الأخير يحسسها بشيء من التقزز.

اتكأت الفتاة على الحائط وأوصلت سيجارة إلى مستوى شفتيها الفقيرتين للدم ثم نفثت الدخان باتجاه السقف، مبدية غيظها.

تسلق السيد داخل السيارة متبوعا بالسيدة راجا بأنفتها وبرودها وأمرتني أن أوصلهما إلى المنزل. خيم صمت عامر بالحقد في المقعد الخلفي للسيارة، راح يمتص كل شيء بما في ذلك هدير المحرك. أطلق السيد تنهيدة ثم استدار نحو النافذة. كانت أضواء المصابيح العمومية تنعكس على وجهه في شكل أشباح خيوط يتعذر الإمساك بها. تنظر السيدة راجا في الخط المستقيم أمامها بشفتين مليئتين بآثار الجراح الملتئمة وعينين معتمتين. أتخيلها تتصارع من أجل الإبقاء على أنفتها كاملة. في ظرف بضع كيلومترات مالت وانهارت قبضتها على المقعد :

– إلى أين تريد الوصول يا صالح ؟ قالتها وهي تلهث. أن تخونني مع فريق السكرتيرات، فهذا أستطيع تفهمه، لكن أن تفعل هذا مع أختي...

لم يرد السيد راجا. بوجه ملتصق بالنافذة، راح يحدق بجنون في بناية «مقام الشهيد» هناك عاليا في قمة الجبل.

ها قضيت خمسة أشهر لدى أسرة راجا فرأيت أحلام طفولتي تتبدد في عرض التعب الباطل. التقيت بالشخصيات المشهورة، نقلت الصحفيين، رجال الصناعة، بعض من يشبه علاء الدين، ولا مرة تمكنت نظراتهم من اكتشاف ذاك الشيء الذي أحمله بداخلي مثل المرأة الحامل والمتوترة، في انتظار أن تلد كوكبة نجوم. لا أحد انتبه إلى عصبيتي المفرطة بالطيبة إلا في حالة إعلامي بهشاشة متاع ما أو بهدلتي بسبب تأخري لدقائق قليلة. لا تستهويهم صورتي أبدا. ابتسامتي الجليلة وقوامي الكامل لا يؤثر في غرورهم كما لا يؤثر المكان المقدس في جلف. لم أكن سوى سائق عربة أنتمي للزمن الحديث، سوى حمّال تافه من الأفضل له أن يحاول تدبر شؤون الحياة بدلا من إضاعة الجهد للتعرف عن قرب على هرمية يصعب التعامل معها. خيبة بعد أخرى، جمعت من الحكمة ما يكفي لأرتضي للآخرين التعامل مع مكانتي كشخص لا يُمس من دون أن أخدع نفسي والسقوط في الحيل. وجدتُني مرغما على تقبل تقلبات مزاج صونيا وتهور أخيها وتحمل استبدادهما بطول بال. في الأسبوع

الفائت أخرجني جونيور من سريري على الساعة الثانية صباحا ليكلفني أن أتدبر له قارورة ويسكي. كان متواجدا في إقامته الفرعية وآخر غزواته مكورة بجانبه على الفراش. كانا يتفرجان على كاسيت فيلم خليع ويقهقهان. كل الحانات أغلقت أبوابها لكن لا مجال أمامي للعودة بيدين فارغتين. كان جونيور سيعتبر ذلك إهانة ولن يغفر لي بعد ذلك «الإهانة» التي أوقعته فيها أمام عشيقته العابرة. لتجاوز سوء التفاهم، توجهت نحو سيدي فرج. حين عودتي، كان جونيور وأميرة تلك الليلة قد غادرا كي يمرحا تحت سماء أخرى، أما أنا، فكنت أحمل القارورة بيدي، وقد أفرغتها، مترنحا بسبب موجة النوم والسعار. ألعن نفسي بكل الأسماء حتى في النوم. أقيس ضعف أنفتي بعدم تجرئي على مغادرة هذه المهنة. لم أكن بحاجة إلى وسائل جبارة. لقد تخلت عني عزة النفس، هي أيضا مصعوقة بحجم التنازلات التي قدمتها. بين غلق الباب خلفي أو الانمحاء، اخترتُ الزحف. بكل بساطة. هل هو تعذيب للذات ؟... ربما. وصولي إلى هذا المستوى من العبودية جعلني أعتقد أننا لا نحصل سوى على ما نستحق. ثم ماذا بعد كل هذا، من أكون ؟ نافع وليد، ابن متقاعد عمل سابقا في السكك الحديدية، أي رجل لم تكن بحوزته وسائل كرامته الخاصة. أأغلق الباب خلفي وأغادر ؟ إلى أين ؟ هل أعود إلى باب الواد لأشتم الروائح الكريهة من قنوات صرف المياه

المهشمة، لأتجول طوال النهار عبر شوارع القصبة الضيقة الملتوية، لأعاكس فتيات ثانوية سوسطارة وأعود عند المساء كي ألعن سخافة العيش داخل غرفة موصدة النوافذ ؟... فات الأوان. هناك من السحر ما لا يقدر ساحر على إبعاده، حين نكون قد ارتعشنا تحت فتنته، لا نستطيع العيش من دونه. هذا ما حدث لي بالضبط. الآن وقد أصبحت لي نافذة أطل منها على جنة الآخرين، سأجتهد في قضم الضواحي وأكتفي بحبة فتات هنا وقطرة هناك، مقتنعا بأن رائحة الثروة، حتى وإن كانت لا تتوقف عندي، فإنها تساوي كل فلكلور الأحياء الحقيرة.

– ها أنت تحكي مع الحائط الآن، باغتني حميد.

– أتحدث إلى الملاك الذي يحرسني.

– لا أرى بوقه الصوتي.

انفجر ضاحكا فرحا بردّه. أنزل سترتي المعلقة على المشجب ورماني بها على الوجه.

– أنا بحاجة إليك يا صاح.

– أطلب ذلك من فيصل.

– ليس ضروريا. جونيور في مدينة سطيف، صونيا على شاطئ البحر، أما السيدة فمريضة. بكل الأحوال لن يأخذ منا هذا المشوار وقتا طويلا.

بعد ساعة وصلنا «دار الرحمة» وهو ملجأ له صورة مأوى المحتضرين. استقبلتنا المديرة في مكتبها. امرأة صغيرة نشيطة، عقيصة شعرها مشدودة بإحكام وفمها عبارة عن فتحة صغيرة. تبدو منزعجة ورشقت حميد بنظراتها. تأففت قائلة له :

– يجب أن تداوي مرض النسيان الذي بك أيها السيد.

وبعد تنفس عميق :

– المهم أنك هنا وهذا أفضل بكثير من لا شيء. اتبعني.

قادتنا داخل ساحة محاطة بأشجار الصنار. تجلس نساء مسنات هنا وهناك، بعضهن على المقاعد والبعض الآخر في شكل عناقيد على درج مرقد كئيب.

– إننا مرغمون على إيوائهم بأي شكل من الأشكال، بدأت المديرة تشتكي. تنقصنا الأسرّة والمراقد. يتم اختلاس المساعدات المقدمة لنا ثم أن الجمعيات الخيرية أصبحت مترددة جدا. معدل الوفيات هنا هذه السنة أصبح مقلقا.

فجأة رجعت أدراجها متوجهة نحو عجوز جلست منفردة.

– لا تبقي هنا يا ميمونة. الشمس حارقة هذا الصباح.

– لقد جلستُ للتو.

– لا تكذبي يا عزيزتي. مكتبي يقابل هذا المكان. لقد كنت أراقبك منذ مدة ليست بالقصيرة. رجاء، هيا التحقي بالأخريات.

وافقت المرأة لكنها لم تعط مؤشرا على أنها ستطيع الأوامر. أدخلت رأسها بين كتفيها وتكورت فتقلص حجمها.

تابعت المديرة كلامها وهي تبتعد :

– هذه أقدم نزيلة بالمركز. توفيت صديقتها الأسبوع الماضي بضربة شمس صاعقة. إنها تريد اللحاق بها بنفس الطريقة.

وصلنا أمام امرأة في الثمانينات، هزيلة، منكمشة تحت ظل شجيرة. حيتنا المديرة ثم تركتنا لوحدنا. وضع حميد قفة الفواكه أرضا، سعل بخفة في قبضته ثم قال بصوت ناعم :

– الحاجّة...

قفزت العجوز من مكانها وتاهت عيناها البيضاوان. مدت يدا مرتابة أمسكها حميد بعناية.

– هل أنت ولدي ؟...

– أنا حميد فقط يا الحاجّة.

تبسمت. انكمش وجهها المشوه بالتجاعيد. كانت المسكينة عمياء، التفت في فستان رث لكنه نظيف. لا أدري

لماذا عبر روحي إحساس بالشفقة والضياع. وكأن الملجأ عمّه الظلام، وكأن الأشجار فجأة أدارت لنا ظهرها.

– ألم يأت ؟...

– لا يا الحاجّة.

– لا بأس. أتمنى أن يكون بخير.

– إنه بصحة جيدة.

– يقحم نفسه كثيرا وهذا من طبيعته. حين كان صغيرا كان هو آخر من يذهب للنوم. اشتقت إليه لكني أتفهمه. يجهد نفسه كثيرا في الشغل.

صوتها المرتجف التف حول الشجيرة تماما مثل كفن أخذته الريح. من جديد، بدأت يدها تبحث عن وجه حميد مداعبة إياه.

– هل معك شخص آخر ؟

– نعم، شاب رائع اسمه نافع.

– هل له قريبة هنا ؟

– لا، إنه يرافقني فقط وأراد أن يحييك.

– إنه شخص رائع حقيقة.

قبّلت ذؤابة رأسها. أعجبتها فعلتي فأمسكت بمعصمي.

– حميد يا ولدي، أناس الليل ليست لهم نظرة على الوقت. ينامون أو يسهرون، الأمر عندهم سيان، لا شيء يتغير. عماهم منفى. الضوء الوحيد الذي له القدرة على الوصول إليهم يأتيهم من قلوب الآخرين... هل فهمتني ؟

– نعم، أفهم يا الحاجّة.

– أنا لا أتشبث بالحياة سوى لأشتم رائحة ابني من جديد. إنه الميناء الوحيد فوق هذه الجزيرة... لا، قامت بردة فعل مباغتة، لا تقلقوه. أنا بخير. أنا بحاجة فقط لأستمع إلى نبرة صوته، لأتحسس أنفاسه فوق خدي. لا أحد لي سواه. سأحس بنفسي أقل وحدة هناك. لن أبرد كثيرا في قبري إذا ما كان لدي الاعتقاد أنه بخير. في نومي، يتلقى بطني ضربات خفيفة كتلك التي تلقاها حينما كنت أحمله في بطني. أستفيق وكلي عرق وأقول لنفسي بأن ابني ليس على ما يرام أو قد أصابه مكروه...

– أؤكد لك أنه على ما يرام يا الحاجّة.

– أصدّقك. ليس لك أي ذريعة كي تكذب علي لكن الأم مثلها مثل الطفل، تحتاج للمس الأشياء كي تصدّق. جاءوني بالطبيب إلى سريري مرات عديدة. قال أني انتهيت. عقلي اقتنع منذ مدة أنني انتهيت لكن جثتي ترفض قبول ذلك. قلبي غير مطمئن، هل تفهمني ؟ دقيقة واحدة من وقته كافية لصناعة سعادتي. سأرحل بعدها من دون حسرة.

استدارت كي تخفي دموعها. قبّل حميد كتفها قبل أن يتراجع القهقرى. عدنا إلى السيارة في صمت، كان عبوسا وكنت أمتص سيجارة مترددة.

بعد أن ابتعدنا عن المأوى سألته :

– من تكون تلك المرأة ؟

– إنها والدة السيد الذي تعمل أنت لديه، يا صديقي نافع. أم صالح راجا الرجل العظيم. إنها تتعفن هنا منذ سنوات لكنه لم ير في يوم من الأيام فائدة من زيارتها. حتى أنه ليس هو من يرسلني لزيارتها.

.4

قبل أن يتحول إلى ملهى ليلي، كان الفنك مركزا للمعاقين حركيا، ينام على صخرة عظيمة ولا يأبه بالأكواخ القصديرية التي راحت تقطر على خاصرتي الجبل. كان أكثر قربا إلى السماء منه إلى المحتشد، يصر على التوجه بالحديث إلى الإله، مكوّر فوق نعشه تحت ظل بناياته القديمة التي قليلا ما يزعجها من حين لآخر صرير الكراسي المتحركة. كل المارة الذين يحدث أن تقودهم أرجلهم بجوار هذا المكان إلا ورسموا خلسة إشارة الصليب متوسلين من رجالهم المقدسين حمايتهم من هذا النوع من الأمكنة. لكن المدينة ستبتلع آجلا المساحات المهملة الموجودة بجواره. تقوم الورشات العظيمة تحت ثقل أنهار الإسمنت بابتلاع البساتين الصغيرة قبل أن تطلق العنان للجرافات الهمجية على بقية الموقع. بسرعة البرق، في مكان الخضر البائسة التي يغرسها السكان تنمو فيلات فخمة منتشرة كالطحالب. في لحظة تغزو

الشوارع المتوهجة طريق الماعز المنحدر على الأكواخ والذي يمرح الآن بلباسه الجديد فيدور في منعرج وراء حصن الماء كي يهجم على الحي الجديد الموشح بلافتات النيون وواجهات مغرية ومراقص صاخبة. أصبح الملجأ يحرك الكثير من الأطماع. تم إيواء نازليه في مكان آخر بدعوى إعادة ترميمه. خلال أحداث 5 أكتوبر 1988 شب فيه حريق مشبوه وبفضل الاتفاق بين مؤسسات الإيثار ومؤسسات البلدية تم التنازل عن الملجأ بمبلغ زهيد لصالح أحد المتسلطنين. أحدث ذلك إذن بعض «الارتياح» لدى المارة الذين اكتشفوا في إحدى الليالي على واجهة المركز الثمانية حروف ملونة، دليل الاغتصاب، تشع في السماء مثل أضواء فجر الشمال. هكذا ولد أول ناد خاص بالعاصمة، مرقص هائل ترتاده لاتشيتشي، الفئات البرجوازية الجديدة.

عكس نادي الڤولف حيث كنت أضطر لانتظار صونيا، فإن الفنك يضع تحت تصرف العاملين بارا صغيرا قبالة غرف الحمام. بإمكان السائقين الاستراحة فيه قليلا. يحق لهم طلب هامبرغر وبعض المشروبات.

جلست فوق كرسي عال ورحت أقضم الأكل الموجود فوق طاولة الشراب ونظري مسمر على مصراع الباب الذي يحجب عني ساحة الرقص. من حين لآخر يدخل أحدهم أو يخرج فيحرر البابُ وابلا من الموسيقى الصاخبة المجنونة

ويسمح برؤية الأضواء الراقصة على رؤوس فيلق من الراقصين الذين عمّهم الهذيان. مذ جلست في هذا المكان لم يكف أحد الرجال عن النظر إلي. في كل مرة أتوجه خلفي إلا واصطدمت بنظرته السوداء التي تبدو غير منسجمة مع ابتسامته. ربما كان بلغ الخمسين من العمر، شعره أبيض وضاقت بطنه داخل تريكو من صوف. أخيرا، غادر طاولته وجاء ليجلس بجانبي.

– ألا تتذكرني ؟

حدقت فيه لحظة.

– هل علي ذلك ؟...

– لا لستَ مضطرا ولو أن ذلك كان سيفرحني. هل أنت الممثل الذي لعب في الفيلم الذي رأيناه مؤخرا على شاشة التلفزيون ؟

حين أدرك بأنه لم يقل لي شيئا راح يساعدني :

– الموسيقي الذي يصاحب سيد علي، الشاعر...

حاولت أن أتذكر لكن دون جدوى.

– لقد حضرنا الحفل مع بعض، قالها بإلحاح. عند الحاج الغوثي الذي زوّج ابنه في «سوق الجمعة». كنت أنت مع صديقك دحمان.

– صحيح لقد ذهبت إلى تلك الحفلة.

– إذن، الشخص الذي كان يعزف على المندولين هو أنا. قال سيد علي أن آلتي لو كانت كرة كريستال لأنبتتُ حوريات في أطراف أصابِعِي.

– أنا متأسف، لا أتذكر ذلك.

هزهز رأسه :

– هذا غير مهم. لقد جئت فقط للتحادث قليلا. مرت ثلاثة ساعات علي وأنا في زاويتي أنتظر... هل مرّ عليك زمن طويل وأنت تعمل لدى عائلة راجا ؟ شاهدتك وأنت توصل ابنتهم.

– ثلاثيان، لماذا ؟

– أعرف السائق القديم، لم نعد نراه.

– لقد تعرض لحادث.

– أتمنى ألا يكون خطيرا.

– لا أدري.

مدّ يده نحوي.

– أنا اسمي يحيَ، سائق عائلة بن سلطان.

– كنت أحسبك موسيقيا.

– أنا أيضا كنت أحسبك ممثلا... فرقتي الموسيقية التقليدية لم تعد تجلب أحدا. أصبح الناس يطلبون فرق أغاني الراي. تغيرت الأزمان والذهنيات أيضا.

أخرج من جيبه قطعة نقدية ودحرجها فوق المنضدة ثم أمسك بها ولعب بها بين أصابعه الخفيفة المدهشة. أغلق قبضته، أرسل نفسا فيها، فتح قبضته : لقد اختفت القطعة. تظاهر بالحرج، فتش حوله، مدّ فجأة يده نحو معصمي وبتصفيقة منه ظهرت القطعة بين سبابته والإبهام.

– هل أنت ساحر أيضا ؟

تبسم.

– يحدث لي أحيانا. كم الساعة الآن ؟

حينما أردت تفقد ساعة يدي، اكتشفت أنها لم تكن في معصمي.

– تبا، لقد أضعتها.

– إنها في الجيب الأيمن لسترتك.

فعلا كانت هناك.

اعترفت له قائلا :

– هذا مدهش حقا.

– هذه حيلة قديمة للحاوين الذين خانهم الحظ. أستطيع أن أفعل كل شيء بيديّ. لعبت بكل آلات الموسيقى، نحتتُ البرونز والخشب، أنجزت الكثير من المصنوعات الحرفية لكن حين تأتي مسألة الأكل فإن يديّ تنفلتان من سحابتهما

وتسقطان على المقود. في عالم الكواسر هذا، الموهبة لا تطعم صاحبها. فهي حين ترقّ لحاله نادرا ما تقبل تقديم الدعم له.

شجن في غير أوانه أعتم وُجهه. نظر مليا في قطعته ثم أخفاها بحركة ميكانيكية متصنعة.

– هذه هي الموهبة. تنهد...

تدحرج فكّاه برفق.

– روح أي أمة هي فنانوها، ضميرها هو شعراؤها، قوتها هي أبطالها. ربما أنا مخطئ ؟...

ارتعشت عيناه واختبأتا خلف فنجان الشاي، أما خدّاه فانتفخا غيظا. نفض برفق الكم الأيسر لسترته فظهرت القطعة النقدية شيئا فشيئا قبل أن ترن فوق الرصيف.

انكمشت شفتاه :

– تدمير، هذا هو معنى الموهبة عندنا. إنها مصدر للهموم، بهلوانية، بلاهة. إنها مقلقة وقد تجلب الشفقة أيضا. فحفلة للجوالين في أيامنا هذه تجلب الاحترام أكثر مما يفعله الفنان. حينما آخذ المندولين أخجل أحيانا. أقول لنفسي أن الموسيقى في النهاية ربما هي مهنة المغفلين، هي نوع من الانحراف، هي شيء له علاقة بالمخنثين. إنها تسلي مجالس المتفرجين دون أن تتلقى المكانة اللازمة. هل رأيت كيف يتعاملون معنا ؟ يخصصون وقتا أطول للتصفيق

بالأيادي من أجل مناداة المدلك في الحمام مما يفعلون مع أي فنان... يضحكون هزءا عند مرورك، يرمونك بتعابير السخرية ويتمتعون حين ينجحون في ذلك. كنت تظن أنك أصبحت نجما أيها الأحمق. ها قد غدوتَ مسخرة لجميع سكان الحي. حتى أن آخر حمّال في السوق أصبح يسخر منك. أما الأطفال بعد أن يحرضهم الكبار فإنهم يزعقون خلفك وأنت تركض كي تجد لك ملاذا خلف الأبواب الكبيرة مثل مريض بالطاعون.

ألفيتُ الغضب يتفجر من أعماق ذاته والحزن يمزق ملامحه وهو مندفع للغاية. كنت محرجا. فيما وراء عمليات الحاوي التي كان يقوم بها، كنت أعرف حرجه من عدم تمكنه من التحكم في تلك الحاجة المؤلمة للتعري تماما أمام شخص غريب. رفع عينيه نحوي ثم انكفأ خلف ابتسامته المبهمة. ما عادت جسارة قطعته النقدية تكفي لطمأنته.

بعد صمت بدا أنه يرفض التكيف معه، مسّح على شفتيه بلسانه، سرّح صوته ثم تأفف :

– أقول لنفسي بأن مجتمعنا مناقض للفن. في جميع الحالات، هذا هو الإحساس الذي يعتريني حينما أعزف. ينظر الناس إليك بلامبالاة وأنت هناك لتسليتهم لا أكثر. أما أنا فأراني أرفع المندولين لأكسره على رأس أحدهم، أي رأس، أن أضرب في المجموعة لأنهم متشابهون. هل ترى

هذا؟ فنان ينحدر إلى صف المهرج ثم يتم تجاهله بمجرد انتهاء العرض...

زاد تسارع وتيرة تنفسه وتجمع زبد لعابه الأبيض في زاويتي فمه.

تمايل برأسه متأثرا:

– إذا أردتَ أن تعرف فإن الحقيقة في مكان آخر. ليس الشعب هو الجحود أو الأمي. النظام هو الذي يفعل المستحيل كي يبقيه بعيدا عن نبل الكائنات والأشياء. يعلمه فقط كيف يتعرف على ذاته في الرداءة بكل أنواعها.

خبط قبضته على المنضدة، غطس نظرته الحاقدة في نظرتي وتمتم:

– وهنا أقول أنني مع الفيس (الجبهة الإسلامية للإنقاذ) بفرح يا خو. هذا ضروري...

هززت كتفيّ مما أزعجه. كمش قبضته ثم أرخاها قائلا:

– الإسلاميون على الأقل لهم فرصة تحريكنا ووضعنا أمام مشاريع كبرى. كل ما أريده هو أن أفعل شيئا بحياتي اللئيمة. أن أكون مفيدا. أن أشارك في منجز ما، ليس بالضرورة أن يكون بناية عظيمة، بل فقط نشاط جماعي جاد، مع أناس فخورين بمشاركتهم البسيطة وآخرين منتبهين لحماسهم. أن تقدم الخدمة دون الإحساس بأنك تزحف

على بطنك وتلحس الأحذية والحصائر. التحرك، تبا ! لا تلوي يديك وتنتظر التعفن في ظل التهميش. هل تفهم ؟ القيام بشيء ما... مع الأفلان (جبهة التحرير الوطني) كان كل شيء مباح لكنه متجاهل. م—تجا—هل ! قد تصل إلى بعث الحوريات من قيثارتك لكن الكل غير آبه. قد تشعل نيران ألف عبقرية لكنهم يتركونك تحترق في زاويتك، في اللامبالاة. لا شيء أخطر على الموهبة من اللامبالاة. رغم أن الفيس قد أعلن تحريم السهرات الموسيقية تماما كما فعل مع الضجيج الليلي، أنا على يقين بأنه سيتركني أغني مدائح الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ظل الاحترام والسعادة. ما أنتظره هو التغيير، الدليل على أن الأشياء تنفض عنها الغبار وتتقدم. في أي اتجاه، لا يهم بتاتا. فقط ليس ذلك الركود. الرحمة ! ليس الركود. أنا ما عدت أستحمله. إذن مع الفيس بفرح، يا خو. سأترك لحيتي تنمو عن طيب خاطر حتى وإن غمتني بالشعر، وسأستمع إلى الخطب المملة طول النهار، لأنني في المسجد على الأقل أحس بأن الخطاب موجه إلي، وبأن مستقبلي يشغلهم، بأنني موجود. مع الأفلان لم أكن أملك هذا الإحساس. نظامه متعفن ومضاد لكل عمل لا يخدم «اللصوص—قراطية»، سلطة اللصوص. الفن، المعرفة، العبقرية الإنسانية تعدّ كلها انحطاطا خبيثا تقاومه هذه السلطة بطرق العلاج الكيماوي. أرفض أن يتم التعامل معي مثل المرض. أنا فنان، صانع للجمال، أنا

الرفعة، يا خو. أريد أن أتنفس، أن أتفتح كالزهر. هل بالغت في طلبي ؟ لماذا إذن علي أن أقضي وقتي في الإشفاق على دحمان الحراشي الذي مات غمّا من المنفى ومرارة النفس، وأن أستمع إلى قصائد محبوب باتي قائلا لنفسي أن هذا أكبر شاعر غنائي في العالم وهو ضائع في أدهى صمت من الكرة الأرضية، وأن أتساءل إذا ما كان سيد علي مجنونا لأنه ما زال يؤمن بسحر الكلام في الوقت الذي يقتل نفسه ببطء بجمر سجائر المخدرات وبقنينات الخمر المغشوش.

انكمش حاجباه حول غضب متوهج. طرق بأصبعه بقوة على المنضدة وقال بصوت يقترب من الصراخ :

– أنا أنتظر كي تعاد إلي كرامتي، يا خو، كرامتي وكرامة أحبابي وكرامة أصدقائي.

سكت فجأة. أشاح بعينيه المشتعلتين عني وأطال تنفسه في شكل تنهيدة طويلة. فهمت أنه نادم على إفراغ ما في جعبته دون تمالك للنفس، وعلى بوحه بهذه الطريقة لأول عابر سبيل. لكني أحسست به قد تخلص من حمل ثقيل، كما الأمنية التي يتم انتظارها طويلا دون الذهاب إليها.

لمس القطعة بطرف إصبعه فارتعشت ثم وقفت على حافتها وبدأت تتدحرج لوحدها.

هز رأسه فانخفضت كتفاه. انكمش، ذاب تحت ناظري...

– المعذرة، أعتقد أنني تركت الحبل لنفسي أكثر من اللازم.

– ما دمتَ تقول أنه يجب التحرك.

– أنا لسْت إسلاميا.

ابتسمت له قائلا :

– ما دمتَ فنانا.

– هل تعتقد أنني أهذي ؟ استرجع ذاته فجأة حذرا. أنت تعتقد ذلك بصدق، أليس ذلك بصحيح ؟ أنت تقول لنفسك : ما الذي دهى هذا الشخص ؟ لماذا يأتي كي يزعجني في حين لم أطلب منه شيئا ؟... أنا واع بهذا، خو. أنا لست مخبولا لكن ما لدي حيلة. المشكل مع الحيطان أن لها آذان وليس لها أدنى رأي. بمرور الوقت يصبح ذلك مزعجا. يصبح من العجالة تقيأ ما لم تقدر المعدة على طحنه... أحس بنفسي أتحول إلى معتوه.

– نحن في بلد مجنون.

رفع عينيه نحوي قلقا :

– ألا تؤمن بخطاب الإسلاميين ؟

– أنا محايد.

– ماذا يعني أن تكون محايدا ؟ لا يمكن أن يبقى الإنسان محايدا في مفترق الطرق. من اللازم اختيار وجهة ما.

– إننا لا نختار أبدا.

– هذا خطأ. الواحد منا مسؤول عن مصيره.

– لا مصير في الجزائر. كلنا في مدخل الرحى.

– لا تخطئ يا هذا. هذا بالذات ما يريدون تعليمك: الانسحاب. يريدون قص جناحيك. الجزائر هي تلك الأميرة النائمة التي تريد مجموعة من المخصيين حمايتها من كل أمير يحاول أن يخرجها من نومها كي لا يخونوا عجزهم الذاتي. سيد علي هو صاحب هذا الكلام والشاعر لا يكذب أبدا.

– هذا ممكن، قلت مرهقا.

مرّ زوج أمامنا، رجل وامرأة سكرانان، بعجرفة منتفخة، وهما يفرغان داخل الحانة فوحان العطور الخيالية الثمن وفوق الأذلاء الذين فجأة تجمدوا خاضعين، راحا يفرغان ظل نبلهما القاتل. يبس النادل خلف متراسه وقد علّق ذراعه في مستوى أحد الرفوف. الفتاة التي تهدل داخل حجرة الثياب غطت فمها بيد غريبة آثمة. لم ينتبه الزوج إلى ذلك أصلا. ارتفع أنف السيدة عاليا حتى تبدو وكأنها منكسرة القفا. بانت بشرتها الشفافة من خلال فستانها الحريري الأزرق الغامق المرصع بالأحجار الكريمة. عيناها جوهرتان سحريتان كانتا تنظران للبعد، إلى الأمام وكأن تركهما يتجولان بطلاقة داخل القاعة كان يعرّض للشبهات. لم تكن أبهى من سمك الشيق حين ينصب الكمين، لكن

عقدها كان من جواهر وألماستها حقيقية. كان السيد يتبع أثر خطاها، معتزما في بدلته البراقة، ويبدو منزعجا لأنه مجبر على اجتيازنا والذهاب إلى الهواء الطلق. فجأة، في إحدى الزوايا كان هناك شيخ يغط في النوم، وقف مسرعا محدثا ضجيجا بكرسيه، ثم جرى ليسبقهما ويلعب دور الخادم المستطلع.

تبع محدثي الزوج بنظرة جامحة وبشفتين منكمشتين.

- الأرستوخرا! قال متذمرا... هل تعرفهما ؟

- لا.

- إنهم الفراعنة، بارونات القماش. يبدو ألا وجود للمراحيض في بيوتهم. التقيت في حياتي بالكثير من هؤلاء المتعجرفين لكن هذا الصنف لا تجده حتى في القصر الملكي البريطاني. الشخص الذي خرج يزحف على أربعة هو سائقهم منذ الأزل ولا يعرفون حتى اسمه. يعتبرون أنفسهم آلهة.

- إيه، هذه هي الحياة.

- هذا يظهر عدم معرفتك لهما. ولا ذرة من الإنسانية، أنا أقول لك، لهم مضخة معدنية مكان القلب. لا يملكون احتراما للآخرين أكثر مما تفعله آلة القمار. بما في ذلك أفراد عائلتهم. مات ابنهم في سن الخامسة عشرة. لقد انتحر شنقا

داخل المرآب... إذا ما لم يستطع ابنهم تحملهم، أنا أطلب منك الآن أن تقول لي : من يستطيع فعل ذلك ؟

– سائقهم.

أوقفته إجابتي بغتة. فكر قليلا مشدوها. فهم ما أردت قوله فأطلق ضحكة في غير محلها.

– أنت عفريت.

– لا ينفع.

عاود موجة الضحك من دون أن يتخلص من الظل فوق وجهه.

استرجع جديته وبدأت يده تطلب القطعة النقدية من جديد :

– مع الفيس بفرح. مع الإسلاميين سنكون على الأقل سواسية.

– نسبيا...

– نسبيا ربما، لكن سيكون لنا إله واحد.

انفتح الباب بشراسة على صونيا وكانت باهتة. أحس بنفسها فوقي أَخَنًّا وفظيعا. برأسها، أمرتني أن أقف. خلفها شاب طويل ونحيف، له خط في وسط شعره، يجفف جبهته بمنديل. كان مرتبكا وما كان يعرف كيف يتعامل. أمسك صونيا من مرفقها. دارت على نفسها دورة وصفعته صفعة

حازمة. كان في البداية مندهشا، ثم رفع يده التي لم تنزل بعد، وما لم يكن منتظرا هو أنه وضع يده على خده وراح يئن:

– ما كنت أعلم أنها هنا، يا عزيزتي.

انفتح منخرا صونيا بطريقة غير مريحة.

– حقير!

حاولَ أن يمسك بيدها متوسلا.

تراجعتْ.

– لا تلمسني.

غادرتُ مقعدي لأقف أمام ذاك الشخص وقبضتاي على أتم الاستعداد.

– لقد طلبتْ منك الآنسة أن تدعها وشأنها.

أزاحني بيده وأسرع للحاق بصونيا في الساحة. عدوتُ خلفه وأمسكته من كتفه. تقزز من فعلتي. كاد يسقط.

– هل لك علم بثمن هذا القميص؟ لا، وهل تدرك أين تتجول بيدك الوسخة؟ إنك تمسحها فوق قميص عمار باي، أيها التافه.

أتبع الكلام بالحركة، فأمسكني من رقبتي ثم دفعني إلى الحائط.

– اكتفِ بتلميع سيارات أسيادك أيها السافل. ذاك هو ما تحصل علىَ أجرة مقابله، أليس كذلك ؟ إذن، عليك البقاء خارج هذه القضايا الجادة. هذه مسألة بيني وبين خطيبتي.

كانت صونيا ترغي في الساحة. انتشلتْ خاتما ورمته به على الوجه.

– خد قطعة الحديد هذه، أيها الكلب. لا أريد أن أراك من جديد.

حدّد عمار باي المكان الذي سقط به الخاتم دون أن يلتقطه.

– أقسمُ ألا شيء بيني وبينها.

– أغرب عن وجهي.

– تبا ! أنا لا أستطيع بأي حال من الأحوال منعها من المجيء إلى النادي.

رفضتْ صونيا الإصغاء إليه.

صعدتْ إلى السيارة وهي تصرخ باتجاهي :

– هيا، أبعدني عن هذا الوصولي.

شغلتُ المحرك وانطلقتُ. تمسك الخطيب بمقبض باب السيارة وضرب بقبضته النافذة بشدة.

– انطلقْ أيها المعتوه...

رجعتُ إلى الخلف وكدت أدهس ذلك المتهور، ثم توجهت بسرعة نحو المخرج. لاحقنا الشاب، بيد يمسك الباب وبالأخرى يضرب هيكل السيارة.

– تعقلي يا صونيا، فكري مليا، هيا. هذا غير معقول. يجب ألا نتخاصم لسبب تافه. أنا لم أنظر إليها حتى.

كان علي زيادة السرعة للابتعاد عنه. وبعد سباق مجنون، ألفيته يتمهل، يتعثر، يتوقف ثم يركل إحدى الشجيرات.

– الحقير، الحقير. قالت صونيا بطريقة مسعورة. الوصولي الساقط. أيتجرأ على فعل هذا في حقي، أنا ابنة صالح راجا ؟ من أجل فتاة مغرية من الأحياء الحقيرة، ابنة غير شرعية لمشعوذة تقرأ الطالع في الورق ؟... لم ينته بعد من الإصغاء إلى هذا الحديث، صدقني. لا أحد سيرغب في النظر إليه. سأبهدله في كل مكان. إذا ما استقبله الناس اليوم فبفضلي. أنا التي صنعته. لم يكن في السابق شيئا يذكر، ولا شيء. إذا ما كان يعتقد بأنه وصل إلى القمة فعليه أن يدخل أصبعه في عينه حتى المرفق... دُر يمينا.

– ألا نعود للبيت ؟

– لا تزعجني أنت أيضا. عندما أقول در يمينا فما عليك إلا أن تنفذ، مفهوم ؟

– نعم، آنسة.

– الحقير ! الحقير ! الحقير !

لكمتْ بقبضتيها الكرسي أمامها.

– سيدفع الثمن، التافه... خذ المحوّل الصغير على اليسار.

غادرنا الطريق الكبيرة. قل عدد المنازل واتسع الريف أمامنا ببساتينه وحقوله وكذا جباله النائمة. في البعد، يمكن سماع نباح الكلاب بين الفينة والأخرى. فجأة قالت بنبرة متقطعة :

– جد لنا مكانا هادئا وتعال كي تنتقم لي من هذا الحقير الانتهازي.

بدأت تتعرى.

.5

اختفت بهجة الأرصفة وراحت السطوح تجمع تفاصيل أُلفتها. ما عاد من الممكن رؤية الأزقة وهي تسبح في الضَباب. وداعا للشواطئ والتحايل والاسترخاء. مدينة الجزائر من دون شمسها تغدو حكاية حزينة.

كانت السيدة راجا أيضا حزينة وهي تغادر مكتب طبيبها المعالج. ارتجفتْ في فستانها الأزرق الفيروزي ووقفت على السلالم ثم أدارت رأسها نحو السماء.

نزلتُ من السيارة كي أساعدها.

رفضتْ أن تمسك بيدي من دون إساءة.

– خذني إلى شاطئ البحر.

بدأ ضوء النهار في التراجع. لم يصل الوقت إلى الساعة السادسة مساء لكن الليل حل بالمدينة.

انهارت السيدة راجا على المقعد الخلفي وانهمكت في قراءة وإعادة قراءة نتائج التحاليل التي ناولها إياها الدكتور

للتو. تتوقف تنهيداتها مع آخر كل ورقة. فجأة، دست الوثائق في حقيبة يدها وأغلقتها بحركة سريعة. بعد تأمل لا نهاية له، ارتخت وفكت أصابعها المشدودة.

– كم عمرك يا سيد وليد ؟

جاء صوتها متقطعا.

– ستة وعشرون سنة، سيدتي.

حركتْ رأسها ثم بدأت تهتم بالبنايات المهترئة التي تنساب عبر النافذة.

استدرنا وراء الأحياء الفقيرة كي ندرك الشاطئ. كانت الطريق منتفخة بحركة مرور فوضوية. لقد انقلبت شاحنة في وسط الطريق ونشرت أرضا حمولتها من قارورات الماء المعدني.

– حدثني عن عائلتك.

– والدي رجل متقاعد، سيدتي. عمل بالسكك الحديدية. نقطن حي القصبة منذ أجيال عديدة.

– كم هو عدد الأطفال في الأسرة ؟

– ستة، منهم خمس بنات.

– هل أنت الأكبر ؟

– الثالث.

خفية مسحت أنفها في منديل صغير. نظارتها السوداء تتستر على الدموع التي يخونها ارتعاش ذقنها. لم أكن أتصور أن سيدة من مقامها يمكن أن تبكي، وأقل من ذلك أن تفعلها أمام أحد خادميها، هي التي تحرص حرصا مجنونا على تفقد كل طية من طيات فستانها، هي التي ترفض أن تبدو من عواطفها أدنى لمحة.

حين أدركتْ حرجي، لجأتْ للتخفي خلف تأمل الريف.

تمكن رجال الدرك من فتح جزء من الطريق. أشار واحد منهم إلى الممر أمامي وطلب مني التقدم.

– حدثني عن أمك.

انتبهتُ إلى أنني لا أملك الشيء الكثير لأقوله عن أمي.

– هل هي كبيرة في السن ؟

– مع ستة أطفال والأمية والانشغال المهووس بشؤون الدار، أرى أنها لا تملك الوقت كي تعدّ السنين.

– وداركم، كيف هي، كيف تعيشون فيها ؟

– هي بناية قديمة، تتكون من ثلاث غرف. نحشر سواعد بعضنا البعض.

– نحشر سواعد بعضنا البعض. قالتها مطرقة.

لاذت بالصمت.

وصلنا إلى شاطئ خال. كان البحر داكنا وهو يرمي بأمواجه المرصوصة على الصخور.

أطفأتُ المحرك.

بدت السيدة راجا صغيرة الحجم داخل الشال.

– ما اسمها ؟

– هي منْ، سيدتي ؟

– أمك ؟

– وردية.

– هل تحبها ؟

– بالطبع.

عفوية إجابتي دوختها كاشفة لها عن الطابع العبثي لسؤالها. أخرجتْ تنهيدة والتفتْ حول أصابعها الناصعة البياض.

– أنت شاب صغير، شاب إلى حد بعيد... حينما كنتُ في سنك، كنت أرد الطامعين فيّ دون أية مجاملة. لم أكن من ذاك النوع من الفتيات لأنتظر الأمير الوسيم يوميا خلف النافذة إلى الحد الذي لا أفرق فيه بين ظلال المغيب وظله هو. كنت أراني سرمدية.

لا أدري إذا ما كانت تحدث نفسها أو أنها بانتظار شيء مني.

– اعتن بوالديك. أقل الأشياء قد تكسر قلبهما. الأطفال الصالحون ما زالوا على قيد الوجود، أنا لا أنكر ذلك. أريد فقط أن أعلمك بأن الأم دوما مقدسة مهما كانت سيئة. من يجرحها أو يتجاهلها ملعون. ستدير له السماء ظهرها إلى الأبد.

سقطت يدها على كتفي.

– هل واضح كلامي ؟

– نعم، سيدتي.

– أتمنى ذلك.

فتحتْ باب السيارة. جلّد النسيم وجهها. كان الهواء باردا ورطبا ومحملا بقطرات الماء المتناثرة. انتشينا تقريبا بروائح البحر الأبيض المتوسط.

– لا أتذكر تاريخ آخر مرة سبحتُ فيها بالبحر. في السابق، كنت بمجرد أن أضع رجلي داخل البحر حتى أثير الاستنفار. يتعب رجال الحماية من الالتزام في كل مرة بالذهاب لاسترجاعي مهما كانت الظروف. كانت أمي تصرخ حتى يتجمع كل الحاضرين بالشاطئ. أما أبي فكان فخورا بجرأتي وكان يدعوني جنية البحر المحبوبة.

ترنحت على شفتيها ابتسامة تشبه النار اللعوب. امتلأت عيناها بالذكريات المؤلمة.

– كانت عائلتنا الأحسن في العالم. منحتني ثروتي أفراحا عارمة أما سعادتي الحقيقية فجاءتني من حب أبوي... المال ما هو سوى وابل من التنازلات يا سيد وليد. إنه الغبار في العيون.

– نعم سيدتي.

– هذا ليس كلام سطحي.

– أعي ذلك، سيدتي.

– أنا أشك، أيها الشاب.

نزلتْ من السيارة، مشت حتى بلغت تلة ثم جلست قبالة الأمواج. حلّ الليل. هدرت السماء. شق البرق السحاب ونزلت قطرات كبيرة من المطر وأخذت تصطدم بزجاج الواجهة الأمامية للسيارة. اكتفت السيدة راجا بالالتفاف داخل شالها والتزام السكون. لم تغادر البحرَ عيناها لمدة طويلة.

– انهض يا هذا. أسرع. اذهب لإحضار السيارة.

كان حميد على غير حاله. نزع عني البطانيات ورمى بها إلى الأرض. كسرت أصابعه كعبة رجلي كي يسحلني من السرير. راح يدور حول نفسه داخل الغرفة بلباسه الداخلي وبرجلين حافيتين. اندفع نحو الخزانة وأخذ بذلة كانت معلقة ورمى بها إلي.

– ارتد ثيابك بسرعة، ليس لدينا دقيقة واحدة لإضاعتها.

خرج راكضا في الرواق.

وقفت مذهولا. ساعتي تشير إلى الثانية صباحا. دون أن أتساءل كثيرا، انتظرت حتى استرجع حواسي وألبس ثيابي. عشر دقائق بعدها، التحقت بحميد أمام الباب تحت الميموزا. ركب بجانبي وأمرني أن أسوق بسرعة.

– هل لي أن أعرف ما يحدث ؟

– جونيور وقع في مشكل.

– بهذه الخطورة ؟

– لم يقل شيئا لكن يبدو من خلال صوته أن الأمر بشع. ليس من العادة أن يفقد وعيه.

هز الرعدُ الليلَ بسبحة من الأصوات المتجشئة. انسكبت أمطار جارفة على المدينة. كانت الطريق تصفّر بجنون تحت العجلات ومن حين لآخر تثير بجانبي السيارة باقات نباتية موحلة.

كان مسكن جونيور غارقا في الظلام وذاك ما زاد من قلق حميد. دخلنا البهو. استقبلنا صمت مزعج. نادى حميد :

– جونيور.

خيط من البرق أضاء الفناء بسرعة قبل أن ينسحب. تمكنتُ من إيجاد مفتاح الكهرباء. كانت قاعة الاستقبال

فارغة لكنها مرتبة. تفقد حميد غرف الطابق الأرضي ورجع خائبا. أشار إلي كي أتبعه إلى الطابق الأول. تسلقنا سلالم حلزونية. ضوء خافت راح يقطر في عمق الرواق. كان جونيور هناك ببذلة الكيمونو، مرتميا فوق الأريكة ورأسه بين يديه وهو يئن.

كانت هناك فتاة عارية، مستلقية على ظهرها، بذراع مائلة على حافة السرير. عيناها مفتوحتان عن آخرهما وهما يحدقان في السقف. شعرها الأسود فوق الجوخ الأبيض يوحي بفأل مشئوم.

– الخطأ خطؤك، قال جونيور بصوت حاد. من أين تدبرتَ ذلك المخدر اللعين ؟

– عند ممونا المعهود، أجاب حميد وهو يقترب من الفتاة.

أخذ معصمها، بلع كلمة «تبا !» ثم ترك الذراع فسقطت باسترخاء. إذاك فهمت أبعاد الضرر. الفتاة، مراهقة تفتحت كالزهرة لتوها لن تستفيق بعد هذا. وجهها الطفولي المنتفخ به مسحة من السكينة التي لا تخدع. كانت ميتة.

– لقد جربتُ كل شيء كي أعيدها، قال جونيور بهوس.

وقف فجأة وقفز فوق حميد :

– هذه غلطتك أيها الساقط، الأبله، الحقير. لقد خدعوك.

– هذا غير ممكن. تفقدتُ السلعة، أؤكد لك. لقد استهلكتها من قبل. أنت تعرف أن هذا النوع من الأشياء لا يغيب عني. أقسم أنها كانت من النوعية الممتازة.

– لماذا إذن انفجرت بين أصابعي ؟ أنظر إلى آثار الحقن على ذراعها، هذا دليل على أنها معتادة على تلقي الحقن. لماذا توقف قلبها هذه المرة ؟

– جرعة قاتلة ؟

– خطأ. لقد أعطيتها أقل من ذلك بمرتين. لقد أعطوك أي شيء وكفى.

دفع حميد جونيور بلطف وبيدين مفتوحتين دعاه أن يبقى هادئا.

– إنه مجرد حادث. لا داعي للعراك. لنحافظ على برودة أعصابنا ونفكر.

– لدي انشغالات أخرى. هذه ليست مشكلتي أنا. أنت الذي انخدعت وليس أنا. أنا لا أريد أن أجد نفسي داخل هذه الحكاية. انهارت هذه الصبية بسبب رعونتك. هل تسمع ؟ سأحضر حقيبتي لأهرب. عندما أعود، أريد أن أجد مكاني نقيا. بالنسبة لي، هذا لم يحدث أبدا.

– اهدأ أيها الزعيم.

– إني هادئ. خذ عني هذا البراز حالا. إني الآن في مكان آخر، موافق ؟

هرع نحو الخزانة، لبس ثيابه بسرعة وغادر الغرفة دون أن يلقي نظرة على الجثة.

أما أنا فكنت خائفا. أذهلتني الجثة اليابسة. كانت تفاحة آدم تحك رقبتي. أتمسك بشيء ما كي أحمي نفسي من الانهيار. بعض الرعشات راحت تنقر عضلات بطن ساقيّ ثم تسلقت نحو الأعلى وهي تتوسع. حينما انصبت على أحشائي، تملكني الدوار. فاجأتُ نفسي وأنا أتمايل في الرواق أبحث متحسسا عن غرفة الحمام. وضعت رأسي داخل حوض الاستبراء ورحت أتقيأ.

تسمر حميد ورائي :

– تقع الأشياء دائما على ظهري أنا.

كان مستاء أكثر منه منشغلا. برودة أعصابه أحيت توعكي من جديد. وضعت رأسي تحت إحدى الحنفيات وتركت الماء البارد ينعشني قليلا. صوت دقات قلبي يتردد في صدغي فيصم أذنيّ.

– إنها ليست نهاية العالم يا نافع. هو مجرد حادث بليد. سنقوم بتصليحه.

شدني من ياقة قميصي ورفعني.

– لا بأس، أقول لك. لا شيء خطير يذكر.

– أنت الذي تقول هذا.

– رأيت أشياء أخرى قبل هذه.

– لا أريد ذلك... سأستقيل.

– أنت لن تتخلى عني.

– أنا لم أر شيئا ولا أعرف شيئا. لم أضع قدمي في هذا المكان الليلة.

جففت أعضائي في منشفة وكانت يداي ترتجفان بين الفينة والأخرى.

قاطع حميد ذراعيه على صدره، اتكأ على الحائط بابتسامة باردة وعينين لا تعبير فيهما. تركني أسترجع أنفاسي ثم قال لي :

– هذا ما سنقوم به...

– نقوم به؟ تعني نحن معا؟

– تبا، أنا لا أطلب منك القمر. اكتف بأخذي بالسيارة خارج المدينة.

– غير ممكن. هل أنت مجنون أم ماذا؟ ما دامت القضية مجرد حادث، اتصل بالشرطة.

انتفض وكأن به صعقة كهربائية. ضربني بجثته كاملة على جسدي. أحسست بفقراتي تنكسر على بعضها بفعل وزنه.

– ليس هذه الكلمة يا نافع. أسرة راجا لا تعرف حتى معناها. ليس المأساة هي التي قد تزعجهم و إنما الفضيحة. عليك إذن أن تحترس من مفرداتك. أذكرك بأنه من واجبك أن تعتبر نفسك في ورطة مثلي تماما. أين تحسب نفسك أيها الساذج ؟ حينما ننتمي إلى عائلة من الوجهاء، ومهما كانت المكانة التي نحتلها، علينا الوقوف في وجه كل ما من شأنه أن يدنس سمعتها. إذا ما لم تفهم اللعبة بعد فأمامك الوقت للتعلم. أحذرك كي تهدأ. هذا ما سنقوم به. تكون موافقا أم لا فذلك لا يغير في الأمر شيئا. سننقل الجثة إلى خارج المدينة، الآن.

قطعت أصابعه رقبتي حتى ظننت أنه سيقتلني. تجاوزتني الأحداث بالمنعرجات التي أخذتها وأصبحت غير قادر على ترتيب أفكاري، فسلمت أملا في ربح بعض الوقت واستعادة وعيي.

ضاعف المطر من شراسته دون أن يتوصل إلى تخليصي من الأوهام. رمى حميد بالجثة داخل صندوق السيارة. كاد صدري ينفجر حين أنزل الغطاء. انتبهت إلى رجليّ المخدرتين وإلى أنني لا أستطيع القيادة.

– أيها الخواف، صرخ حميد. دعني أقود.

بعد بضع كيلومترات تسمرت في مكاني لرؤية حاجز للشرطة. بحثت عن مقبض السيارة كي أهرب. منعتني يد

حميد. طلب منا الشرطي التوقف على جانب الطريق، نقّل ضوء مصباحه اليدوي على السائق ثم توقف عندي. في تلك اللحظة، اندلعت النار في أحشائي.

– صديقك هذا، هل لديه مشكلة ؟

– إنه يعاني ربما عسرا في الهضم.

انتقلت دارة الضوء إلى الكرسي الخلفي.

– أين تذهبان هكذا ؟

– إلى البيت يا سيدي الشرطي. عدنا من سفر طويل وقد أنهكنا التعب. إننا في خدمة صالح راجا.

حرك الشرطي ذقنه الذي يقطر ماء ثم تنحى.

غادرنا المدينة دون عوائق. بعد ساعة، غصنا في غابة باينام. لاقى حميد صعوبات للتحكم في السيارة على الطريق الترابية الزلقة التي أصبحت مستحيلة الاستعمال مع كل آثار العجلات على الطين. تهيج الأشجار وتتلوى تحت الزوابع والرياح العاتية. تقوم أغصانها الهستيرية بالنقر على هيكل المرسيدس.

توقفنا في سفح ربوة. أخرج حميد الجثة من صندوق السيارة ومشى متزحلقا نحو أجمة. مشيت خلفه دون أن أعرف لماذا، كأن قوة حقيرة تدفع بي نحو الكابوس.

ترك حميد الجثة تهوي أرضا.

– هل ستدفنها هنا ؟

– لو كانت تلك نيتي لكنت أحضرت مجرفة لذلك.

فتش في الأحراش المجاورة، أتى بحجر كبير، رفعه عاليا ثم ألقاه على وجه الفتاة بقوة جعلت قطعة من اللحم تقفز وتستقر على خدي. من هول المفاجأة، انثنيت ورحت أتقيأ.

ضرب حميد وعاود الضرب مرات عديدة حتى وسختني الدماء وشظايا العظام. كل كلمة هاه تطلع من فمه إلا وتوخز دماغي وتحنيني أكثر. ما كنت قادرا على صرف نظري من وجه الفتاة الذي تحول شيئا فشيئا إلى عصيدة. سال بولي على فخذيّ المرتخيين. صرت منهكا عن آخري، مقطعا، سقطت على أربع، وجهي في القيء ورحت أعوي، أعوي...

– ها هو العمل، قال حميد وهو يقف. حتى أمها التي ولدتها لن تتمكن من التعرف عليها.

في استفاقة أخيرة، نهضت بقامتي كي أهرب في الاتجاه المستقيم أمامي عبر الغياهب.

استردني حميد من داخل حفرة. كنت قد اصطدمت بجذع شجرة والدم ينزف من ركبتي.

– إنك تخيّب ظني فعلا يا نافع. هذا غير ممكن، صدقني. لو رأيتَ نفسك. حتى أحط مومس لا تنزل إلى هذه الدرجة.

وضع ركبتيه أمامي على الأرض وبحث عن عينيّ.

– كان مجرد حادث، حادث أليم. لا تخش شيئا. الفتاة كانت قد هربت من البيت. ثم إنها لا تقطن المناطق المجاورة. الآن انتهى كل شيء. ها هو الشق الأصعب قد فات.

– أريد الذهاب إلى البيت.

– بالضبط.

– إلى بيتي، في القصبة.

– موافق، أين هو المشكل ؟ سأقودك إلى باب بيتك. غدا سآخذك إلى «سون سنتر» كي تظفر بأجمل جميلات منطقة مدينة الجزائر.

– لن أذهب إلى أي مكان رفقتك. سبيلانا يفترقان هنا. لا رغبة لدي في الاستماع إلى أي كلام عنك أو عن عائلة راجا...

أمسكني من شعري بحزم و لوى رقبتي وضحك هازئا. برق أضاء وجهه. كان وجه الشيطان.

– أنا أكره الجاحدين، يا نافع. قد أستلطف أي شيء عداهم. لم تمر عليك سنة، كنتَ متسوّلا في باب الواد، ببطن فارغة مثل رأسك تماما. جئت عندنا فرفعناك إلى مصاف الأثرياء. أصبحت تعرف الأماكن الراقية ونغمة الحاضر ورائحة الثروة. كنتَ مجرد شخص حقير، لم تكن تعرف

كيف تستقيم في وقفتك، هل نسيت ؟ اليوم ترتدي قمصانا بخمسة آلاف دينار، تنتعل حذاء رياضيا بختم ماركة عالمية ولا تأخذ سنتيما واحدا من أجرتك بما أنك تأكل مجانا. فجأة، وبسبب عاهرة في سن الخامسة عشرة حسبتْ نفسها في سن الرشد، ضيعتَ صوابك ولم تعد تعرف أصدقاءك ولا تفكر سوى في إنزال اللعنة بنفسك. ما هكذا تكون الأمور يا نافع. هذه ليست عدالة، وهذا سهل جدا. لكنها أشياء متوقعة ولا نستطيع أمامها شيئا. إني أشعر بخيبة أمل بالتأكيد لكن لا أكثر من ذلك. إذا أردتَ الهروب فلك ذلك، فقط هناك شروط يا صديقي. أنا لا أطلب منك تعويض المال لأن هذا سيكون من الغباء بمكان، بل أطلب منك أن تغلق فمك الثرثار بسحّاب. فما عشتَه هذه الليلة يجب أن تمحوه من ذهنك كما فعلتَ للتو جاحدا لما تفضل به عليك الخيرون. إني أقسم بحياة أمي أنك إذا رحتَ تعبث وتذكرتَ هذه الحكاية، سأجدك حيث تختفي وأخرج أسنانك واحدا واحدا من مؤخرتك. هل أنت موافق ؟

انهارت قبضته على جبهتي.

– هل أنت موافق ؟

رفعني بيد ووجه لي لكمة صاعدة قطعتني إلى نصفين.

– السائق الذي سبقك أراد هو أيضا أن يستذكى. هل قصوا عليك ما حدث له ؟ أنا متأكد من أنهم لم يفعلوا.

الأمر فظيع إلى درجة ألا أحد يود تكراره... لن أدعك تعكر حياتي من أجل حادث تافه يا نافع يا ابن العاهرة. لن أسمح حتى للإله أن يمس شعرة واحدة من شعرات جونيور. هو جونيوري أنا. هو ملكي أنا، أنا وحدي. هو مدينتي وبلادي، هو كل علة وجودي. هل تفهم أيها الحقير، هل فهمت ؟...

تملكه الهيجان، فغرس رأسي في الطين وراح يضرب ويضرب...

ما زال الظلام مخيما حين استعدتُ وعيي وما زال المطر يزمجر مع هجمات الرياح العاتية. كنت ممددا داخل بركة من الماء ويداي متقاطعتان كالصليب. مرّ علي وقت طويل قبل أن أتعرف على حائط الواجهة المشققة لمنزل أبي.

.6

بقيت مسجونا في غرفتي لأيام طويلة لا أصغي لبكاء أمي المستميت، رافضا الأكل، محصنا بابي. كان وجهي المهشم والكدمات على جسمي تشغل بال أفراد عائلتي. أبي رفض الإلحاح بعد المواجهة الأولى. بعدما رفضتُ الإجابة على أسئلته، ذكر اسم الله ولم يكلمني بعدها أبدا، أما أمي فلم تنثن أمام غضبي العارم. كانت تريد حقا معرفة ما تعرضتُ له ومعرفة من ذا الذي يتجرأ على بهدلة ابنها الوحيد بهذا الشكل. سمعتُ أبي وهو يصرخ مشمئزا : «لا يمكن مصاحبة الأشرار دون عقاب. إن الضرب الذي تعرض له لا يحتاج إلى تعليق. ابنكِ غير عاقل. هو غير راض بوضعيته ومن المؤكد أنه قام بحركة خطأ فتزحلق. أحذرك بأنني لن أحرك ساكنا من أجله. ما كان عليه سوى الاحتراس». وترد أمي ساخطة : «ابني ولدٌ صالح. كان دوما حريصا على نوعية من يعاشرهم. أرفض الاعتقاد بأنه قد أقحم نفسه في قضايا الفجور». يقول أبي : «ليس بمقدور مجرد سائق

بسيط شراء الأثواب الفاخرة والمجوهرات بين ليلة وضحاها مثل ابنك. جيوبه تفيض بالأوراق النقدية. كلها مؤشرات لا تكذب. لهذا كنت أرفض هداياه».

تكورتُ خلف ركبتيّ في إحدى زوايا الغرفة وأذني على استعداد. يكفي أن أسمع صراخا يطلع من الشارع أو يدا تدق على الباب كي أنكمش على نفسي. كنت أعتقد بعقلي المعذب أنها الشرطة جاءت باحثة عني.

قضيت أيامي مذعورا. كان نومي مسكونا بهواجس مرعبة. غابة باينام تصرخ مثل خرافة ترغب في التزاوج، راحت تحيي مخاوفي الليلية. شبح تلك المراهقة يلاحقني تحت الضباب ورأسها تظهر في كل مكان، في وسط الأحراش، فوق الصخور، تنبت على الأشجار مثل فاكهة كريهة. تذوب دقات قلبي مع كل كلمة هاه يقولها حميد، مع الأصوات الصماء للصخرة التي تهشم وجه الميتة. أستفيق وأنا أصرخ عاليا ويداي ممدودتان في الظلمة. تناديني أمي من وراء الباب. كانت تعذبني وكنت أتوسل إليها كي تدعني وشأني.

في إحدى الأمسيات زارني دحمان. تعرفت على صوته الأخن وأسرعت لأفتح له الباب. كنت بحاجة عارمة للتحدث إلى شخص ما.

طلب دحمان من والديّ أن يتركانا لوحدنا. لقد رأى الحد البشع الذي بلغته لكنه يتحرك وكأن شيئا لم يكن.

جلس على حافة سريري وراح يجول بناظره في الفوضى التي تعم غرفتي.

– لم أكن أعرف أن لك أعداء من بين أغراضك الخاصة، قال بشيء من التهكم. من الذي بدأ : الخزانة أم طاولة السرير أم الأغطية أم أنت ؟

قام وفتح مصراعي النافذة. ضوء النهار الساطع اضطرني إلى حماية عينيّ.

عاد للجلوس بجانبي.

– الآن نستطيع أن نرى أفضل ونقوم بتهوية الغرفة.

ناولني علبة مارلبورو.

انتبهتُ إلى أنني لم أدخن لمدة أسبوع. ارتعشت يدي وهي تأخذ السيجارة. قدم دحمان ولاعته مني وانتظر بلطف حتى ابتلعت خمسة أو ستة أنفاس ثم سألني :

– هل أنت بخير ؟

أحضرت أختي الصغرى القهوة ثم انصرفت.

– أبوك هو الذي دعاني. يبدو أن هناك شيئا ما يشغلك.

رفع ذقني وتفقد جروحي.

– لقد قدموا لك خدمة خاصة، أليس كذلك ؟

– لدي مشكل خطير.

– شككت في ذلك، بائع مخدرات أو زوج غيور ؟

– أفظع.

– إذن هات الحكاية.

استمع إلي دون اكتراث وبشفته برطمة مترددة. لم يبد متأثرا بقصتي إلا حينما حكيت له بشاعة باينام. هنا قطب حاجبا :

– هذا لا يطاق، قال معترفا.

– هل هذا كل ما وجدت قوله ؟

– للأسف.

– أنا ما عدت أغلق أجفاني ليلا.

– هناك ما يقنع.

أفشلني اقتضابه وزاد من اندهاشي.

– كان يجب أن تشاهده وهو يدك وجه الصبية دكا، رحتُ أصر على أمل تحسيسه بعظمة الصدمة العصبية التي تعرضتُ لها. قطع من اللحم التصقتْ بي كما العلق. أما هو فكان يضرب ويضرب... كان... كان...

– ما الذي تنوي فعله الآن ؟ أوقفني ببرودة.

– لا أدري، أنا تائه.

– أقترح عليك أن تقلب الصفحة.

– هل تعتقد أن ذلك سهل. القضية لها علاقة بموت إنسان. إذا ما أوقفوني، سأنتهي. سيطلبون مني لماذا لم أبلغ الشرطة عن حدوث المأساة ما دمت بريئا.

أشار بالنفي محركا رأسه.

– أنا لا أنصحك بالذهاب إلى الشرطة. ستكون المتهم الوحيد.

– ماذا ؟ أنا لم أفعل شيئا.

استعاد جديته. حفرت بعض التجاعيد جبهته.

– فكرْ ثانية واحدة. هل تعتقد بأن الشرطة ستكون فرحة بشهادتك ؟ القضية تتعلق بعائلة راجا وليس بجاركم المقابل. هل تعي الحرج الذي ستسببه للشرطة ؟ القانون عندنا يطبق على السمك الصغير أما الحوت الكبير فهو فوق القانون. من يحتك بهم لمرة واحدة سيتعرف على ذلك ولكن على حسابه. لن يسترجعوه أبدا. لا، أين تظن نفسك يا نافع ؟ هناك أناس لا يمكن الوصول إليهم. ليس موت فتاة صغيرة فاجرة، جراء حادث، هو الذي سوف يهدد بإفساد نكهة خبزهم الناعم. لن يرغب أي محافظ شرطة التدخل في هذه القضية. لقد كان سلوك حميد طبيعيا للغاية. هناك مشكل لدى زعيمه فمحاه. بكل البساطة الممكنة. فلنفرض أنك ذهبت عند الشرطة. سينفي حميد كل الأفعال المنسوبة إليه. سيقول أنه كان رفقة جونيور في الإقامة وأن هذه الفتاة لا

يعرفها أحد وسيقوم هذا الأخير بتأكيد هذه الرواية. سيكون موقفك مقابل موقفهما. لا حظ لديك. ستتوصل الشرطة إلى أنك أنت الذي قتلت الفتاة وحاولت إقحام جونيور للاستفادة من سمعة عائلته وتخليص نفسك. لن توجد هناك أية تسوية يا نافع. ستؤلب الجميع ضدك. لقد حدث هذا من قبل، هل أنت على علم؟ حوادث من هذا النوع، يمكن إحصاء العشرات منها. نتجاهلها تماما كما نفعل مع النحس، هذا إذا ما أردتَ رأيي في القضية. سيجدون جثة الفتاة –إن لم يكن هذا قد حدث– ويضعونها في مصلحة حفظ الجثث لمدة معينة. إذا ما لم يتقدم شخص للتعرف على هويتها سيقومون بدفنها وانتهى. نقطة إلى السطر.

– هذا غير ممكن، إننا نعيش في دولة القانون.

كشف دحمان عن أسنان مدببة وتكشيرة مُرّة. رأيت أنني أثير سخريته.

قال لي :

– نعم بالتأكيد. بلادنا دولة قانون. هذا لا يمكن إنكاره. يجب أيضا تحديد نوع الحق الذي نتحدث عنه هنا... هناك حق واحد، متفرد لا يتجزأ : الحق في التزام الصمت.

في نفس الليلة، راعني حلم ورمى بي إلى الحائط. كانت منامتي تعتصر وحلقي مخدوشا بسبب عوائي العالي. زحفت في الظلام ثم كدست نفسي في زاوية بغرفتي، على حافة

الجنون. غرست قفاي تحت أصابعي وسمعت نفسي أقول باكيا :

– إلهي، ساعدني.

طلع صوت الأذان امتدادا لصوتي مهدئا فجأة روحي. كانت لحظة بدفق لا يصدق. كأنه السحر، تفتت قلقي وغمرني إحساس بالخلاص. كنت على يقين بأن ذلك شارة من السماء. كان الله يخاطبني بواسطة المؤذن كترجمان. لا شك في ذلك. دق الخلاص على نافذتي. تبدلتُ كلية بفعل تأثير خارق. خرجت إلى مدخل الدار، أخذت بعض الماء من برميل بجانب غرفة غسل الثياب وقرفصت أمام الإناء وتوضأت. عشر دقائق بعد ذلك عبرتُ الليل وسكون الشوارع ملتحقا بالمصلين في المسجد وهم قائمين. فرح بعض الجيران حين رأوني بينهم في الصف وحيوني برؤوسهم. ربتت يد على كتفي وأخرى لمست يدي. لم أعد وحيدا!. استفاق عالم من حولي وراح يحضنني مخلّصا إياي من مخاوفي. تراجعت مخاوف الليل لأنني بجوار ذويّ. الآن أصبح باستطاعتي الوقوف دون ارتعاش، السجود دون انهيار، غلق العينين دون التعرض لاعتداءات الكوابيس الثاقبة.

– لن تستطيع معرفة حدود ارتياحي، همس في أذني رشيد الإسكافي. مرحبا بك في وسط إخوتك.

حضنني بعض المصلين الآخرين.

– الحمد لله، قال لي من بعيد أحد زملائي في المدرسة.

– الله أكبر، زايد نبيل غالم.

تفرق المؤمنون في صمت. لم يبق في المسجد إلا بعض الفقراء في انتظار طلوع النهار. لم أحس بالحاجة للعودة إلى البيت. أخذت كتابا من على الرف وجلست القرفصاء بجانب المكتبة. كان عنوان الكتاب هو «سيرة النبي». مع نهاية الفصل الأول، نامت الأوراق وغفوت أنا. كان نوما عميقا دون حلم أو صدى. لقد عقدت صلحا مع روحي.

بعدها استغل الإمام يونس خلوتي كي يتحادث معي. كان رجلا في الثلاثين من العمر، جميل مثل الأمراء، بعينين صافيتين مخططتين بالكحل ولحيته مثل الطوق في عنقه مخضبة بالحناء. سكان القصبة معجبون باستقامته ولطفه. هو دوما جيد الإصغاء للمحتاجين والشبان العاطلين عن العمل، نجح كثيرا في ربح ثقتهم. يمتلك موهبة التقريب بين الأضداد وفك تشابكات الخصومات بسهولة كأنها خيوط ملتوية. صوته مختوم بطيبة تترفع عن الوصف ويتردد صدى حكمته لدى الناس البسطاء كالنبوءة.

جلس على ركبتيه أمامي بابتسامة متألقة ونظرة راعية. قميصه يتلألأ بياضا ساحرا.

– أنا أراقبك منذ أسبوعين يا أخ نافع. أنت أول من يأتي وآخر من يغادر المصلى. كنت سأكون سعيدا لو لم يكن في

مظهرك نوع من الشجن. فهمت بأن وحدتك ترزح تحت سر خطير. لقد استخلصت من طريقة جلوسك منزويا بأنك في حاجة إلى البوح، لإراحة ضميرك من الكربة الماكرة العنيدة التي تنخره.

منعتني يده النقية من الكلام.

– كل إنسان معرض للخطأ يا أخ نافع. خير الخطّائين التائب الذي يعترف بخطاياه، يستلهم منها كي لا يكررها.

– أنا لم أخطئ يا شيخ.

حرك رأسه مظهرا شكوكه.

– أنت لست في محكمة بل في بيت الله. إنه رحمان رحيم. يمكنك الاعتراف دون وجل. سرك وشرفك مصانان.

– أنا ما لي بحاجة لذلك يا شيخ، صدقني. أعتقد أنني قادر على تخليص نفسي ما دمت قد وجدت الإيمان.

– هذا جيد يا أخ نافع. أنا مسرور.

لم يكن ملحاحا.

في اليوم الموالي، ودون أن أدري، وجدتني ذاهبا لألقاه في مكتبه المغطى بستار بجانب المنبر. استقبلني بكثير من الاعتبار وصرح بأنه مغتبط وأن الإيمان الذي نتقاسمه يساوي كل زهد العالم. قبل أن يمنحني فرصة للكلام، أصر على جعلي أحس بالراحة. قرأ علي بعض الأحاديث الشريفة وقص

علي قصة أيوب وشرح لي بأن الألم لم يكن معاناة إلا بالنسبة للكافرين. بعدها تلا علي سورة «الرحمان». سحرني صوته الغنائي حتى تمنيت ألا يوقف التلاوة. امتلأت عينا الإمام يونس بالدموع حين همّ بالاستماع إلى اعترافاتي. لم يخن وجهه الملائكي أي إحساس ولو لثانية واحدة.

– هذا أحسن ما قد يحصل لك يا أخ نافع، قال بعد أن أنهيت سرد حكايتي. معظم أفراد رعيتي هنا لم يلقوا ما لقيتَ من حظ. إنهم هنا لأن آباءهم قبلهم كانوا هنا. لقد وُلدوا مسلمين ولا يقومون إلا بالمحافظة على العادة. أنت ذهبت للبحث عن شيء آخر تحت سماوات أخرى. كانت لديك أحلام وطموحات. كنت جائعا للحياة. قادك الله إلى حيث كنت تنوي الوصول. من أجل تنويرك. عرفت البذخ والسلطة والخيلاء. أنت الآن تعرف بأن هذا الإسراف وهذا التفاخر الصارخ لا يجتهدان إلا في مواراة قبح الغرور والفقر الروحي لأولئك الذين يرفضون الاعتراف بأن الملكية الحرام لا تمتّع صاحبها. أنت الآن تعرف الحق من غيره. الفقر ليس هو العوز إلى المال بل نقصان المعالم في الطريق. لقد عشت لدى العائلات الثرية، إنهم أناس بشعون، لا رحمة لديهم ولا أخلاق. يدعون بعضهم للقاءات كي يتجسسوا على بعضهم البعض، يكرهون بعضهم البعض بحرارة. مثل الذئاب تماما، يهجمون جماعات جماعات لمعاضدة بعضهم ولا

يترددون لحظة في أكل لحم أحدهم نيئا بمجرد أن يكبو. وراء الواجهات الجبارة لقصورهم والعناق الخبيث، لا يوجد سوى الهباء. يجب أن تشكر الله على هذه التجربة التي لا تقدّر بثمن. كنتَ في مدخل جهنم لكنك نجوت من السقوط. على العكس من ذلك، لقد عرفت الحقيقة، تلك التي تمكنك من النظر إلى ذاتك في المرآة دون أن تنظر للوراء أو تنحي نظرك، تلك التي تساعدك على استيعاب ذاتك في كامل الاختلاف. لقد عدت إلى الحياة من جديد يا أخي نافع. هل أنت واع بالفرصة التي أتيحت لك ؟ إننا نضيع دوما حين نذهب بعيدا للبحث عما هو في متناول اليد. اليوم، لقد فهمتَ. أنت تعرف مكانك. ليس موت فتاة متهورة هو الذي يحزنك. قد نسلّم بأنها تستحق ما حدث لها. أنت حزين لأن بلدك يغيظك. كل ما فيه يفقدك الأمل. أنت ترفض أن تكون ما يريدون لك أن تكونه، ظلا لنفسك، خطّاء رغما عنك. أنت مثل باقي شبان هذا البلد، تم إغواؤك ثم تم التخلي عنك. من الآن لن تكون لوحدك. لك العالم وملايين الأسباب كي تتمنى. حين ينتهي كل شيء في هذا العالم، عندما تتحول الأرض إلى رماد، لا يبقى سوى وجه الله. ويوم القيامة ستُسأل دون محاباة : «ما الذي فعلته بحياتك يا نافع وليد ؟». يجب أن تفكر الآن في تحضير الإجابة ما دام الوقت متاحا. هل تصر على فعل شيء مهم بحياتك يا نافع ؟ مرحبا بك. كنت تريد أن

تصبح ممثلا، أن تتقلد الأدوار التي ترفعك إلى العلياء. إذن أنا أمنحك هذا : أقترحُ عليك السماء شاشة والله كمتفرج. ما عليك سوى أن تظهر مدى امتداد موهبتك.

لا أعرف حتى الآن بالضبط ما حدث لي ذلك اليوم.

غادرتُ المسجد وتجولت في القصبة كما لم أفعل في سابق عهدي أبدا، ثم صعدت نحو التلة.

حين كنت طفلا، كنت أحب الصعود مساء إلى حيث كنيسة «السيدة الإفريقية» كي أتوحد مع الخليج والبواخر الراسية في الميناء. زقزقات الأطفال المارقين تحلق حولي مثل طيور محجبة. يبدو أن نظري يذهب أبعد من أفكاري وأنه بإمكان العالم الذي عند قدميّ أن يحرض دوما على الحلم. انتظرت كي أكبر وأقطف أشجار الدفلى التي انتشرت في المدينة وغطتها بكاملها.

جلست على السور الحجري الصغير أتنفس باستزادة، فرحا بوحدتي وبعدم إزعاجي لأحد. بعد أن امتلأتُ بالآفاق المبرقشة، عدتُ كي أحضن بصَمْتي القصبة العتيقة الرابضة في الأسفل. بسهلها الموحل في دور مجففة الغسيل وخليط سقيفاتها المشابه لكومة من الغسيل. تذكرني بأمي التي كانت على حافة الوادي، تسخّر كل إبداعها كي تمنح البريق الحريري لخرق بالية.

أحببت أمي كثيرا.

يعلم الله أنها تثير شفقتي...

الرأس بين اليدين والقلب مثل قبضة في عرض الصدر وأنا ضائع داخل أفكاري. كان يجب أن أختار. نهائيا. الحرارة النتنة التي تصعد من سراديب البناءات تضيع علي التركيز. شيء بداخلي لا يجيب. في لحظة وددتُ لو أختفي بحركة من عصا سحرية. ألا أكون هنا بالمرة، فجأة، مثل انعكاس ضوء تلتهمه الظلال.

خلفي، تراصت مجموعة من الشبان تحت رواق منزل يغنون لبعضهم بعضا أحد ألحان «الحاج مريزق». أفقرهم جميعا يُعرف ببراعته وها هو يخدش قيثارته بيد ليس لها من عزاء. حينما التقت نظرته المعذبة بنظرتي، تدارك نفسه هنيهة ليحك رقبته ودون سابق إنذار صرخ بأعلى صوته أبيات قصيدة لسيد علي راح يلاحق رويّها بضربات نوتات متفجرة:

حين يتخلى الحلم عن الشراع
حين ينصرف الأمل
حين تضيّع السماء نجومها
حين يغدو كل شيء بلا معنى
يبدأ بالنسبة لي و لك
يا أخي
السقوط في الهاوية.

نزلتُ إلى البحر لأرى لحظة استسلام الشمس. حين وصلت إلى الثغر البحري، رأيت النهار يحرق ذاته بنيرانه، والأمواج هناك في البعد تشبه جروحا عظيمة.

فجأة أحسست بثقل سلسلة صونيا تعذب ضميري. نزعتها بحقد ورميتها للموج في حركة تمثل رِدتي.

أجهل كم قضيت من الوقت هناك. آلمني البرد في كل من جسدي وعقلِي رغم أنني كنت مقتنعا بِأن الحلم يغري ويقنع ويصاحب لكنه في غالب الأحيان ليس بصديق.

من منا لم يحلم يوما بأن يغرز أسنانه في القمر ؟ لكن القمر إذا ما أخذ من مكانه فسيتفتت بين الأصابع مثل هيكل عظمي عفن. ما هي النكهة التي سيوعَد بها القصرُ من طرف العناد المستميت؟

II

القصبة

إذا ما كنت سأختار من بين النجوم لأقارن
لن تعرف الشمسُ كيف تخفي
ضياء الكلمة التي تخفيها
لا وجود لمكان مقدس أو عاصمة
قادرة على جمع ما يمنحك الفجر
كل صباح كعنقود شعر.

حيمود براهيم المدعو مومو
قصبتي أنا

.7

مدينة الجزائر عليلة.

لقد علقتْ في روثها المتقيح، تتقيأ، تتبرز دون توقف. الجماعات المصابة بالإسهال تهجم من الأحياء الفقيرة في شكل هيجان صاخب. تطلع الديدان من مجاري المياه، فوارة ومدمرة، وتنتشر في الشوارع التي تحرقها حرارةٌ فولاذية.

تتمسك مدينة الجزائر بجبالها وهي مشمرة فستانها أعلى من فرجها المتفجر، ترفض المهاترات التي تطلقها المآذن، تتجشأ، تتبرم، وهي ملوثة في كل مكان، لاهثة، بعينين ذابلتين، بفم سال لعابه، في الوقت الذي أمسك الشعب أنفاسه أمام الوحش الحرام الذي كانت تلده.

مدينة الجزائر تلد. في الألم والغثيان. في الهول طبعا. نبضها يجتر شعارات الأصوليين التي تعلو الاستعراضات في الشوارع الكبرى بخطوات غازية.

هناك لحظات يحل الزعماء الروحيون محل الشياطين. تقلد الحرارةُ شرارةَ جهنم كي تذوّب الأدمغة. أما الرجال، وعلى حسابهم طبعا، فيندمجون في كرنفال الملعونين.

تحترق مدينة الجزائر بنشوة الجماع مع المتنورين الذين انتهكوا عرضها. حبلت بحقدهم وها هي الآن تمنح نفسها للفرجة في ذات المكان الذي تعرضت فيه للتلوث وسط خليجها الملعون للأبد. وضعت دون تمالك للنفس بالتأكيد ولكن بغضب امرأة تكتشف بعد فوات الأوان أن والد طفلها هو ابنها.

صعدت إحدى الشخصيات الرمزية على سقف الحافلة، وضعت مكبر صوت في فمها طالبة الصمت.

رفضت الجماهير أن تهدأ.

– ما دام الجزائري لا يملك الحق في كونه مواطنا كامل الحقوق، ما داموا يبقون عليه في صف عابر السبيل، ما داموا يستمرون، محاولة منهم للتأكد أنه على قيد الحياة، في الصراخ في وجهه : «هيا، انصرف، لاشيء هنا»، لن نبرح هذا المكان.

يرتفع الضجيج في شكل موجة رعد من الصياح.

– لن نذهب إلى أي مكان. سنبقى هنا، في الشارع، ليلا نهارا. بإمكانهم محاصرتنا بأسوار شرطة التدخل، واستفزازنا ببنادقهم وبقية الشحنات الممنوحة لهم، لن نغادر هذا

المكان. نقول لهم أننا مللنا سيركهم وأننا لن نطيع أبدا حساباتهم. لن نعود إلى أشغالنا العادية إلا بعدما يفهمون للمرة الأخيرة بأننا لا نريدهم، بأن لنا من التدريب ما يمكننا من أخذ زمام أمورنا بأيدينا دون أي مساعدة منهم. لقد ولّى عهد الآثام. لقد استعادت أرضنا قداستها من جديد. لم يعد لهم مكان بيننا. ما داموا يرفضون إتباع طريق الله، فليذهبوا إذن إلى جهنم.

لقد أعلن الفيس العصيان المدني.

.8

ألقى سيد علي بكمشة من البخور في الكانون وراح يشتمّ بمتعة كتل الدخان المتصاعدة من الجمر. رائحة الصمغ القوية طردت نتانة العفونة من الغرفة مرغمة نافع وليد على حك أنفه خفية.

منزل الشاعر كما السجن تماما. الحيطان عارية، حرشاء الملمس، لم تعرف الطلاء منذ زمن. الحجارة المئوية تلمع في الظلام. السقف العالي مبرقش بنترات البوتاسيوم. أما البلاط المخرّب فقد تم ترقيع منظره بجلود الغنم التي وضعت هنا وهناك. ضوء شاحب يدخل من إحدى الفتحات، قاطعا مثل الشفرة، كاشفا عن رزمة من الزرابي التي تركن في الزوايا، آلة مندولين، جرة، مخطوطات، قوقعة سلحفاة عظيمة. سيد علي مسرور داخل هذا العوز الصوفي. يقضي معظم وقته ممددا على حصيرته المحمية بالناموسيات وهو يمتص غليونه العامر بالمخدرات ويؤلف قصائد حول ملهمته.

بالنسبة لسكان «سيدي عبد الرحمان» المتزمتين حتى النخاع فإنه أكبر شاعر بعد المتنبي. يفتخر به الشيوخ أما الشبان فيعشقونه، حتى أنه يكفي أن يردد أحدهم شعره كي يغفر كل شيء. حين يقرض سيد علي الشعر، تعرض فراخ الطاووس مروحة ريشها وتخفي الملائكة مزاميرها. لقد كان أكبر من أسطورة، إنه العلاج.

أكل نافع وليد بعض حبات الفول السوداني. جلس القرفصاء على حصير في انتظار أن ينتبه إليه مضيفه.

لم يكن سيد علي مستعجلا. منح رجْليه لامرأة ذات نظرة معتمة راحت تدلك كعبيه وهو يقهقه مستريحا بفضل اللمسات.

– لقد قرب آذان صلاة العصر، ذكّر نافع.

عاد سيد علي إلى الأرض. بحركة النبلاء من يده صرف المرأة ثم اعتدل في جلسته.

– لا مكان للوقت في هذا البيت.

– إنني منتَظر في الخارج.

– لم تأت لوحدك ؟

– معي شخص آخر.

– ما كان عليك أن تتركه لوحده في الشارع. في بيتي الكل مرحب به.

– اعتقدت أنك تريد أن تكلمني.

حك سيد علي ذؤابة أنفه.

– إنْه أولا كأس الشاي.

– بي ألم في المعدة.

ابتسم سيد علي وقد تلف وجهه بفعل العفيون وسهرات التأمل الطويلة وحفرته تجاعيد شبه رمادية، تنطلق من طرفي فمه وتنتهي في صدغيه في حركة لولبية تشبه ما يحدثه حجر على سطح الماء.

– تعال معي.

قام نافع وليد من مكانه بامتعاض وتبع الشاعر فوق السطح.

نفض سيد علي قندورته الصحراوية التي تمزق تطريزها حول الرقبة، مسّح لحيته وانحنى فوق الدرابزين ليتأمل البحر متظاهرا بعدم اكتراثه بالصرخات المتمردة الطالعة بالحي ولهفة ضيفه المتزايدة.

قال :

– قد أكون شخصا حالما بدون حدود، أو مثل «القريبو» الإفريقي، شاعرا ساحرا مندهشا بارتدادات عبقريته، لكن مهما حادت نقاط معالمي فإنه من المستحيل أن أتخلى عن فكرة أن البحر الأبيض المتوسط كان في البداية ينبوع ماء.

ينبوع لا يكبر كثيرا عن ظل شجرة الخروب، هذا قبل أن تستحم به أمنا حواء ويشرب منه أبونا آدم حتى الارتواء. إنه هنا، في مكان قريب أمامنا، بعد أن أخرِجا من جنة عدن وهاما على وجهيهما لسنوات بحثا عن بعضهما، وجد كل منهما الآخر.

انتصب واقفا وشرّع ذراعيه لاحتضان الأفق :

– لأن كل شيء يولد هنا، في مكان أمامنا. لقد تشجعت العين وأصبحت بحرا وولدت المحيطات...

– هل استدعيتني لتحدثني عن البحر ؟...

خبط سيد علي بيده على الدرابزين غير راض بمقاطعته.

– نعم، لأكلمك عن البحر. أريد أيضا أن أكلمك عن السماء لكن سبقني آخرون إلى ذلك.

جلس أمام نافع وعيناه تقدحان شررا. جعل الغيظ لحيته ترتجف. خرجت سبابته من قبضته وبقيت جامدة.

– ما الذي كنتَ تفتش عنه في المسجد يا نافع وليد ؟

– السلام.

– السلام ؟ لم أكن أعلم أن السلام كان فوضويا أيضا. (أشار أصبعه إلى المدينة المنتفخة بالحقد). في الأسفل هناك، يريدون الحرب.

– ليس الحرب بل الكرامة.

تصلّبَ سيد علي.

سقط صوته مثل الحمّى :

– في صغري، كنت أتوجه كل يوم إلى المحطة كي أنصت لصفير القطارات. كنت أعشق صورتها وهي تتقدم وتصقل سككها بالعجلات الضخمة. كانت لحظات رائعة. مجرد تخيل نفسي داخل إحدى المركبات كان كافيا لإسعادي. طلباتي كطفل لم تكن كبيرة. كنت أقول لنفسي، يأتي يوم وأذهب بدوري أنا أيضا. اعتقدت أن معرفة العالم كانت مسألة سفر... ثم، بدون سبب، لم أضع قدمي في محطة القطار أبدا.

نافع محترس. سيد علي غامض ومن العبث محاولة مقارعته.

– عرفت أباك في محطة القطار، واصل يقول. كنت من دون والدين. «بدون لقب» هو لقبي. ورغم أنه لم يكن يملك سنتيما، إلا أنه كان يحمل دوما في جيبه حبة حلوى من أجلي. أحيانا كان يناولني الساندويتش كاملا. كان إنسانا طيبا... أنا اليوم شخص مشهور لكنني لم أكبر. بقيت فقيرا كما في سابق عهدي. لا أملك سوى كأس شاي أقدمه لك وبعضا من وقتي.

أمسك نافع من كتفيه ونظر في عينيه :

– لا أريد أن تسبب له أي ألم.

– لا أرى كيف، الآن وقد عدتُ إلى جادة الصواب.

– من جهة المخلوقات الشريرة المتغيرة...

دفع نافع بيديّ الشاعر وتحول لون وجهه إلى أحمر قان :

– ليس لك الحق أن تنعت بمثل هذا الكلام مسلمين بسطاء.

– اسمعني...

– أنت الذي ستستمع الآن. إنهم ليسوا بوحوش. إن بهم إنسانية مثلك. إنهم يدافعون عن قضية نبيلة.

على هذا، استدار حول نفسه ليغادر.

– نافع !

توقف نافع عند فتحة الباب دون أن يلتفت.

لم ير سيد علي من ضرورة للاقتراب منه.

قال له :

– احترس من أولئك الذين يأتون كي يكلموك عن أشياء هي أهم من حياتك. إنهم يكذبون. يريدون استعمالك. يكلمونك عن مُثل عليا، عن تضحيات جسام ويعدونك بالمجد الأبدي مقابل بعض القطرات من دمك. لا تصغ إليهم. تذكّر دوما هذه الجملة : لا وجود لشيء، لا شيء

يعلو على حياتك. هي الشيء الوحيد الذي يجب أن يكون له معنى لديك لأنها الثروة الوحيدة التي هي ملكك فعلا.

عبر نافع الغرفة هائجا ثم خرج إلى الشارع.

جلس نبيل غالم القرفصاء في سفح حائط قبالة منزل الشاعر، وراح يرسم بعض الزخارف على الأرض مستعملا قطعة حديدية صغيرة. حين رفع رأسه ألفى نافع وليد وهو يخرج بوجه حانق من الكوخ فأدرك بأن الحوار قد آل إلى نتيجة سيئة. ترك من يده قطعة الحديد ومسح أصابعه بذيل قميصه وأسرع كي يعترض سبيل السائق السابق لعائلة راجا.

– ما الذي أراده منك ؟

– لا شيء، قال نافع متذمرا.

ما أقلق نبيل هو موقفه أكثر من كلمة «لا شيء» التي قالها بنبرة جافة.

– ماذا تعني بقولك : لا شيء ؟

– لا شيء مهم.

سدّ نبيل الباب أمام غضبه، هو الذي يكره أن يحدثوه بهذه النبرة. دارت عيناه المتوهجتان نحو منزل الشاعر وارتميا عليه بشراسة اللعنة وراحتا تبحثان من دون جدوى عن ظل خلف النوافذ المشرعة.

– أراهن بأن غليونه اللعين لا يزال بين يديه.

– هل بإمكاننا التخلص من ظله.

– لقد وجدتَه مشدوها أليس كذلك، أصرّ نبيل بلهجة بوليسية. من المؤكد أنه كان يهذي. ما الذي قاله لك حتى تركك على هذه الحال؟

فضّل نافع الصمت وغاص في ضيق الشارع الملتوي الذي تنحدر سلالمه بثقوبها ولمعان مائها الوسخ نحو أساسات البناءات. أكوام الأوساخ التي تحرقها الشمس وتحاصرها أسراب عجيبة من الذباب تعفن الجو. بعض الأطفال الذين لم يبد عليهم أي انزعاج من الروائح الكريهة راحوا يلعبون مع جرو انتهى أجله، بفمه المفتوح أكثر من اللازم ومنخريه الطافحين بالحشرات. أصبح من النادر رؤية الكلاب أو القطط تغامر داخل الحي. لعدم وجود ساحات تمكن الأطفال من ضرب الكرة فإنهم يكتشفون في ذواتهم نزعة التحول إلى جلادين. في بعض الأحيان يكون المشهد من القسوة بمكان حتى يكاد يُحدث سكتة دماغية لدى الشيوخ.

طفلان صغيران منسيان قرب الباب يقهقهان ويضربان ركلاً بركة ماء الغسيل فيتطاير رذاذها. كانا وسخين، بساقين كثيرتي الكدمات وبوجه ريفي. أما الثالث فبمؤخرة عارية ورأس مغلفة بجروح بيضاء اللون، راح يتسلق نافذة صغيرة مكسرة الزجاج، أمام نظر المارة الذين يمضون في هدوء.

– إننا على علم بمكيدته، عاود نبيل غالم قائلا. كل شيء تحت مراقبتنا هنا. نعرف أنه يحاول أن يحوّل عنّا بعض أفراد حركتنا... أنا سعيد لأنني تأكدت من أنه لم يستطع شيئا معك أنت أيضا.

هز نافع كتفيه.

صعدت شابة الشارع الضيق وبين ذراعيها حقيبة يد شدتها إلى صدرها. أدان نبيل التنورة التي ترتديها وانتظر وصولها بجانبه كي يصرخ في وجهها.

– ألا تستحين ؟ تتجولين في الشوارع نصف عارية.

لم تنتبه الفتاة إليه. لقد تعبت على ما يبدو من مكابدة هذا النوع من التعنيف، سارت بجانب الحائط مكملة طريقها.

– أيتها الفاسقة، صاح بها نبيل. اذهبي لترتدي ثيابك.

بخطوات ثابتة ورقبة منحنية، تسلقت الفتاة السلالم في صمت واختفت.

– لو توقف الأمر علي لكنت بطيب خاطر قد قطعت رجلي هذه السافلة بمنفاخ النار.

– هذا يكفي، صاح فيه نافع مغتاظا. هناك أطفال بالقرب.

تأفف نبيل قبل أن يهدأ.

الكثير من الناس بالقصبة لم يدركوا بعد ما يمكن أن يقرّب بين شخصين مختلفين للغاية. يعتبر نافع شخصا لطيفا، متحفظا بعض الشيء لكنه جذاب، أنيق، غيور على سمعته «كرجل وسيم». كان من بين القلائل الذين لم يرتدوا قميصا ويحلقون ذقونهم بانتظام. في أيام الجمعة بالمسجد، كان غير مهتم بالتواجد في الصفوف الأولى. خلال أيام مسيرات الاحتجاج لم يظهر في أي مربع ولا يشارك في أي اجتماع غير قانوني. في المساء، حين يتخلف عن الذهاب إلى المدينة لمشاهدة فيلم مهم أو الجلوس لاحتساء كأس قهوة من على شرفة بمحاذاة الجادة فإنه يبقى في بيته.

أما نبيل غالم فلم يكن يحتمله مكان. كان في كل مكان : في المسجد، في التجمعات، فوق الأسقف يقلع الهوائيات من مكانها، في أوكار الرذيلة من أجل ردع المومسات ومن معهن من تجار الجسد. على أهبة الدخول في عراك مع أيا كان من أجل أي شيء. كان شابا مفرطا، كريها ومكتسحا. الحامي الأمثل للمعبد. لا شيء يهرب من تيقظه. لقد تمكن وهو في سن العشرين من إقناع مسئولي الحزب بإرادته في تنظيف الحي من السكارى والمفسدين. بمجرد تنصيبه على رأس لجنة الشباب الإسلامي بالحي حتى فرض على فريقه نظاما من حديد وتوصل إلى تجنيد العديد من العاطلين. يتحكم في عشرة من أعضاء الميليشيا المتطوعين، جماعة لجمع الأموال وأخرى متكونة من فتيات متطوعات مثابرات،

للتكفل بالأسر المحتاجة والأشخاص المسنين. فعاليته ومردوديته سلبت ألباب الأصوليين. لقد شكر الإمام يونس محاسنه في مرات عديدة أمام شخصيات مهمة في مجلس الشورى. بفضل منهجيته العنيفة، تحولت كل الحانات إلى محلات، حتى أن قاعة اللعب الوحيدة في الساحة أصبحت مكتبة قرآنية، أما الشبان الطائشين الذين يعكرون صفو الليالي بالضرب على ما والاهم فقد اضطروا لتبديل النغمة. استعادت الشوارع طمأنينتها، ولم يعد المارون ليلا بحاجة إلى الالتفات إلى الوراء حين يعودون إلى أكواخهم.

نافع وليد لا يحب كثيرا نبيل إلى درجة أنه يهابه بعض الشيء وخاصة حين بدأ يخالطه بانتظام. فلا تعجبه فجاجة عباراته وهوسه بالتدخل في كل ما لا يعنيه. لكنه لا يمكن تجنبه فيما يخص المشاريع التي يعدّها منذ عودته إلى الجماعة. الحقيقة أن نافع لا يفكر سوى في الزواج وقلب الصفحة على سالف أفعاله. لقد حدد موضع بيت من غرفتين في «سوق الجمعة» وبدأ يحضر نفسه للاستقرار فيه قبل نهاية السنة. الشقة كانت بالطابق الأرضي من عمارة آيلة للانهيار، دون ماء ودون إنارة في السلالم، غير أن الكراء معقول والجيران لطيفين. أما المرأة فقد شاهدها في إحدى الأمسيات في موقف الحافلات وللتو سقط في حبالها. كانت بنتا من «الحومة» لم يرها تكبر. لقد فاجأته برشاقتها وتواضعها.

اسمها حنان. هي الأخت الكبرى لنبيل.

كل يوم في حدود الساعة الخامسة مساء، يذهب نافع للتسكع بجوار موقف الحافلات، قلقا، مستعجلا، عيناه مسمرتان على إطار ساعته اليدوية، يعبر عن سخطه في كل مرة تجيء الحافلة الخطأ. حينما تنزل أخيرا، يرتبك ويبتلع لعابه بتشنج. يحرص الحرص الشديد أولا على ألا يلاحَظ وجوده من طرفها أو من طرف الجيران الذين لهم توجه في منح الأولوية للقيل والقال مع خطر المجازفة بإطلاق صواعق السماء، والذين يغذون أيضا كلا من النقمة والحنث والتدنيس ضد هذا النوع من المقاربة في الحب.

يختفي خلف كشك مخرب وينظر إليها عن بعد بانبهار ساحر يشبه تعلق تلميذ بمعلمته.

دون أن يكلمها مرة ودون أن يكون على يقين بأنه سيفعل ذلك في يوم ما، كان مقتنعا من أنها ستكون هي شريكة حياته. ليلا، في غرفته، يعريها كما يريد وهو عاجز عن الخلود للنوم ما دامت عيناها الكبيرتان السوداويان الجميلتان تلازمان وحدته العميقة. يراها من جديد وهي تعبر الزقاق بسرعة، وضاءة تحت حجابها كحورية في بستان، غير آبهة بمضايقات الحمقى الموجودين في السكة، جليلة ورائقة، ببصر مخفض حشمة كما يحلو لبنات الأسر الجيدة أن تفعل.

مع الصباح، يستيقظ كي يدرك أنها ليست هناك، أن غرفته كانت يتيمة إلى ذكراها، وأن عليه انتظارها طوال

النهار لساعات فارغة وقاسية تفصل بينه وبين الدقيقة الرائعة حين تظهر في الساحة، مساء، قبل أذان المغرب.

لكن منذ بضعة أيام، لم تعد حنان تأتي.

– عليك أن تكلمه، اقترحت علي أمي.

– هذا ليس بالسهل. إنه شخص مزاجي.

أصبحت أمي عبوسة لأنها غير موافقة على مماطلتي. بصبر كبير، سمحت لي بالانتهاء من تناول العشاء، أخذت الطبق الذي أكلتُ منه لقيمات. انتقدتْ زهدي في الأكل وهي تمر أمامي، وعادت إلى غرفتي كي تعقّلني. جلستْ، جمعت تحت ذقنها يدين أفسدتهما الأشغال المنزلية وراحت تفكر.

ظهرت أختي الصغرى في فتحة الباب.

– لقد وعدتني بأن تساعدني، قالت وهي تحرك كراسها في الهواء.

– نورة من فضلك، نبهتها أمي. أنت ترين جيدا بأن لي وأخوك انشغالات أخرى.

– نعم ولكن سنجري الامتحان غدا.

– انتظري قليلا يا عزيزتي.

كشرت نورة حائرة ثم عادت إلى الغرفة المجاورة.

انحنت أمي على الطاولة القصيرة.

– أنت لست في انتظار شخص كي يقوم بالعمل مكانك. من الواجب حسب رأيي أن تتحادث معه. لا ضرر في طلب يد فتاة.

– أقول لك بأنه شخص معقد وهو قادر على اتهامي بمعاشرة أخته منذ عهد بعيد. أخشى ردة فعله. نبيل ينظر دوما إلى الأشياء من الزاوية الخطأ. لقد تبت منذ أشهر، أؤدي الصلاة وأحتاط دوما. رغم ذلك وفي أدنى فرصة يعاود الحديث عن سنوات الضياع التي قضيتها. أحاول أن أراضيه دون جدوى. يبقى جلفا ولا يفكر سوى في المناوشات. ثم أنه مع كل المستجدات التي تجنده فأنا لا أجد وقتا كي أفاتحه في الموضوع.

– أظن بأنك أنت الذي تعقد الأشياء. الأمر متعلق بطلب للزواج وهذا شأن جاد. أحداث الشارع لا تغير في الأمر شيئا. لقد تزوجتْ أمي خلال مجريات الحرب الكبرى. كان الأمريكيون يحتشدون بباب الواد، الطائرات المقنبلة تملأ السماء شخيرا وصفارات الإنذار تزعق في ظلام الليل. تم العرس في فرح عارم. أنا تزوجتُ في 1962. كانت منظمة الجيش السري تنسف بالديناميت الحي والرشاشات تعوي في كل زاوية من زوايا الشوارع. في كل يوم كانت التفجيرات تختار بعض المجهولين. هذا لم يمنع موكب العرس من النفخ في الأبواق على طول الجادات. دوت

«الزرنة» حتى الصباح. هذه هي الدنيا يا ولدي. لا وجود لبأس بمقدوره إيقاف مجرى الحياة. نتزوج رغم كل شيء. بغير ذلك لا تكون للعالم علة وجود. أتذكر : ليلة عرسنا. في الوقت الذي راح أصدقاء والدك يدفعون به إلى غرفة الزوجية، دوت طلقات نارية على بعد عشرات الأمتار فقط من المدخل. قال لي أبوك...

– لم أقل لك شيئا، صاح أبي بصوته المبحوح من طرف الصالون. ثم لا أحد دفعني تلك الليلة. احذري مما تقولينه يا امرأة. في زماننا لم أكن في حاجة كي يدفعني أحد وخاصة أمام عذراء في سن الخامسة عشرة.

أخواتي اللواتي كن يستمعن من المطبخ، انفجرن ضحكا. أخفت أمي فمها بيد مذنبة وأدخلت رقبتها بين كتفيها. باليد الأخرى راحت تحرك مروحة خيالية حول غلطتها التي ما كان الشيخ ليغفرها لها إلا إذا حدثت هناك معجزة.

أنا بدوري تملكني الضحك.

.9

قبل الهستيريا الوطنية لشهر أكتوبر 1988، كان عمر زيري فتى سيئ الأخلاق، فخورا بالمراسي الخضراء الموشومة فوق عضلاته، أذنه مغطاة بقبعة باسكية وقحة وقد علق بحزامه خنجرا من نوع «كرانداري». يرتدي على طول السنة سروالا أزرق شنغ هاي منتوفا على مستوى الركبتين وتريكو البحارة مهترئ حتى لحمة النسيج بسبب الشد الذي تمارسه بطنه المشوهة. عبوس، سيجارة في فمه، لا يعرف كيف يقول شكرا حتى أنه يعتبر أن الاعتذار أحقر طريقة للتملص. هو مسيّر لانيف، مطعم حقير بشع محاذ للمسجد. ثقب للفئران، تعيق الحركة فيه طاولات نخرة ومقاعد تتآكل عليها السراويل أسرع مما تفعله على درابزين السلالم.

من منتصف النهار حتى قدوم الليل، تداعبه دعوات دحمان الحراشي المنتهي، يغفو خلف حاوية النقود البالية مثل منقار غاز يغْلق بعناد في كل مرة يود زيري إرجاع

بقية النقود. زبائنه هم خليط من الزبالين والأجراء اليوميين أصحاب الروائح النتنة، الذين يأكلون بفظاظة وبأيديهم الوسخة يتركون على شرائح الخبز الثخينة خطوطا مائلة إلى السواد. حدد سعر الوجبة بعشرين دينارا. نفس الأكلة المفروضة في الغذاء تقدم في العشاء : شربة بدون لحم، بطاطا مقلية مريبة، كأس رائب وقطع كسرة عنيدة.

بعد أكتوبر 1988 انبهر عمر زيري بالدفق الإسلامي وسلّم بوشك حدوث ثورة لن تغفر لمن لا يركبون القطار عند انطلاقته. الخطاب واضح والخطر جلي. لذا حينما اقترح عليه الإمام يونس تحويل مطعمه الصغير إلى «مطعم القلب» على طريقة الفيس، صرح عمر بأن هذا يشرفه كثيرا. بين عشية وضحاها، اختفت حاوية النقود، واضمحلت أغاني دحمان الحراشي الضارة لصالح الأناشيد الدينية. انضم المتسولون إلى الزبائن القدامى من أجل الحصول على وجبات مجانية. أثرت فيه شهيتهم المثيرة للشفقة، فمسح عمر الخيّر دمعة من عينه بحركة واضحة الغرابة شاكرا السماء التي اصطفته مع الخيرين. استبدل سرواله الأزرق بقميص به أريج المدينة المنورة وفي مكان القبعة الباسكية لبس قلنسوة تشبه قلنسوة علي بلحاج لتحضن المخاض الهادئ لمشاريعه الكبرى.

يوميا تتكدس طوابير من المتسولين أمام المطعم الصغير ويكاد عمر أن يجد نفسه محرجا بسبب تعابيرهم التي تمن

عن اعترافهم بالجميل، ويردد دائما بأن لا شيء يكدر يومه أكبر من تشكرات تقدم من أجل واجب صدقة بسيط. كل البؤساء لهم الحق في نفس الأكلة تماما مثل الزبائن القدامى إضافة إلى ما يأتي من الصدقات، قطعة دجاج أو شريحة بطيخ أو علبة ياغورت. إذا ما لم يشبع أحدهم، كان بالإمكان زيادة نصيب من الطعام دون تبرم. بعد أن تمتلئ بطونهم، يصبح المحتاجون على استعداد للإصغاء إلى طيور مهاجرة غريبة، سافرت نحو المشرق مبشرة بالخير وعادت إلى الوطن حاملة رسالة أمل وبرنامج خلاص. فتيان بتربية عالية، مهندمين مثل رجال الزوايا، يلفتون الانتباه بزيهم الأفغاني لكن لهم قناعة وطيبة يؤثرون بها في الآخرين. ينادونهم «الشيوخ». يتدخلون بين مضغتي أكل، كل حسب دوره، كي يقولوا لأولئك الفقراء كم هم حزانى لتعاستهم. إضافة إلى أن اللحى تمنح وجوههم شيئا غريبا، فإن صوتهم عامر بالتعاطف، وصدقهم جلي مثل صدق من الكتاب المقدس الذي يعرضون. يبدو أن لهم معرفة واسعة بكل مآسي الضعفاء من الناس وأنهم يعانون من ذلك أيضا. يتحدثون عن البلاد المتروكة للكلاب والتافهين، عن المجون السائد في الدفة العليا، عن التناقض الذي لا يشرح لماذا في بلد غني جدا مثل الجزائر يضطر مواطنون بكامل حقوقهم لقضاء حياتهم في الإملاق الفاضح. يقولون : «قبل 1962 كانت بلدنا مخزن حبوب لأوروبا أما اليوم فهي خراب. قبل

1962 كان الجزائري يفضل أن يقص يده كي لا يمدها. أما اليوم فهو يمد الاثنتين». يقولون :

«لماذا أنتم هنا في هذا الملجأ تعتمدون كلية على صدقات بعض المحسنين ؟ لماذا عليكم الاكتفاء بالحساء الشعبي في حين يرمون بأموالكم من النافذة ويضخون بترولكم تحت أنظاركم ويدوسون كرامتكم ومستقبلكم ؟»... أسئلة رغم بساطتها لا تجني جوابا سوى بعض السخط الصامت والحيرة. لم يكن الشيوخ في انتظار أكثر من ذلك. يرفعون إصبعهم للسماء ويعلنون أن الملائكة قد هجرت الأراضي الجزائرية وأن الله سيعاقب شعبا مؤمنا حتى النخاع لكنه نسي قسمه وتجاهل ضعفه بيد أن «السبيل» مرسومة أمامه لتحرره من مخالب الشيطان وتقوده نحو الضياء.

للشيوخ معرفة جيدة بقول الأشياء، حتى أن أولئك الأشقياء لا ينتبهون إلى تلك اللافتة التي تحمل الشعارات الإسلامية وقد عوضت لافتة المطعم الصغير، وأن الملجأ قد تحول إلى مركز للاستقبال والدعاية، وأنه في مكان المنضدة والطاولات النخرة وتجهيزات المطبخ، تقف مجموعة من المكاتب، وأن الحيطان التي مسها الطلاء أخيرا تحمل الآن صورا فظيعة تظهر تجاوزات قوات الأمن خلال أحداث 5 أكتوبر. يؤكدون على أن الصور غير مزورة... بفضل الصور يمكن تذكر الشوارع المغمومة بالغازات المسيلة للدموع، المركبات والمؤسسات التي التهمتها ألسنة النيران،

رجال شرطة التدخل السريع وقد انهالوا ضربا بالعصي على المتظاهرين، رجال الإسعاف وهم يحملون الجرحى، النساء الباكيات، الأطفال المصدومين... وفوق كل هذا، الجثث الراقدة فوق البلاط في برك من الدم، مشوهة، مصعوقة، بعيون مشرعة، بأصبع نحو السماء وكأنه حسب لغة الشيوخ يقول للأحياء : «لقد متنا من أجلكم فلا تنسونا»...

بالطبع، في بلاد يعد فيه تغيير الرأي والنفاق شيئا بسيطا، فلا عمر زيري ولا مطعمه الوسخ يستأهلان التوقف عندهما لحظة واحدة، لكن الإيجابي في هذه الحكاية هو أنها علّمت بالبساطة المفحمة كيف تحولت القصبة، دون مواجهات أو صخب، من قصبة للشعراء إلى قصبة للأصوليين.

في هذه الصبيحة، كانت هناك جماهير حول المسجد وفي الشوارع المجاورة. مئات من المصلين، المناضلين منهم والمتعاطفين انتشروا على الأرصفة، البعض تحت قطع القماش والبعض تحت المظلات لحماية أنفسهم من لسعات الشمس. كانوا بانتظار الأخبار التي ستصدر عن المجلس. العصيان المدني مستمر والبلاد معطلة. مكبرات الصوت توزع خطبهم النارية على المدينة. بعض أفراد الميليشيات الشبان يحملون شارات على أذرعهم وقد حزموا جبهاتهم بمناديل خضراء، يوزعون الماء والبسكويت ويقومون بتنظيم الوافدين الجدد القادمين قوافل من الزوايا الأربعة للحي. من حين لآخر، يصعد شيخ فوق سلالم من خشب أعدت

خصيصا كي يقرأ بلاغات المكتب الوطني التي بالضرورة تتخللها هتافات مدوية تقول «سيسقط النظام» والتي يحييها الجمهور بالصراخ والغضب.

استغل نافع وليد مرور وفد كي يجد له طريقا حتى بلغ مطعم عمر زيري. كان نبيل غالم يجمع العلب الكرتونية داخل غرفة المطبخ التي تم تحويلها إلى قاعة أرشيف. لم يكن وحيدا. تعرّف نافع على بعض الأشخاص الذين تكدسوا فوق كراسي معدنية، الأخوين شاوش، جامعييْن مشهورين، حمزة يوب، صباغ العمارات، رشيد عباس، أحد أقرباء الإمام يونس وثلاثة «أفغان» من ميليشيات مسجد كابول بالقبة الذين يلتحقون أحيانا لمراقبة تنظيم الإضراب ومد يد العون لنبيل غالم. أكبرهم اسمه حسان، كان قد فقد ذراعا في بيشاور حين كان يتعلم صناعة المتفجرات اليدوية. أما الآخران فيحملان اسمين مستعارين يستجيبان لنزوة ما، «أبو مريم» و «إبراهيم الخليل». منجزاتهما الحربية كانت من التعقيد والمهارة بمكان حتى انتهى الأمر بهما إلى عدم تصديقها.

—... ثم ما الذي حدث بعد ذلك؟ سأل عمر زيري وهو يتململ من شدة الإثارة.

– طبعا، تابع إبراهيم الخليل كلامه بنبرة غير مكترثة، حدث ما كان يجب أن يحدث. سألتُ الرجل عما كان يفعله في الغابة في تلك الساعة المتأخرة مع فتاة داخل سيارة

قديمة. أصبح أخضر من الخوف. قال أنه يتحادث حول مشاكل خطيرة مع زوجته. قلت : «أرني الدفتر العائلي». قال : «لقد تركته في المنزل». طلبتُ من المرأة إذا ما كان الرجل زوجها. قالت : «نعم». قلت : «ما اسمه ؟» قالت : «قادر». قلت : «قادر، ما لقبه ؟» بلعتْ غددها اللعابية ثم انهارت وبدأت تخرج حماقاتها كالقول أنها مطلقة وعاطلة عن العمل ولها أطفال ووالدين مقعدين ولا وجود لأحد تعوّل عليه وأنها مضطرة لفعل هذا كي تعيل أسرتها. قلت للرجل : «أيها الكذاب الخاسئ، أرني يديك». ارتعش شاربه. أراني يديه على طريقة التلاميذ في المدرسة. ضربته على أصابعه بحزامي الخشن. شلاخ ! شلاخ ! كل ما ضربته ضربة إلا ويحني ركبة على الأرض مقطبا وجهه من الألم، واضعا يديه تحت طابقيه. كان المشهد مؤثرا حتى أن الرجل كان يبالغ بعض الشيء. هنا تملكني الغضب. أنا أغضب دوما حين يبالغ أحدهم. طلبت من الإخوة أن ينزعوا عنه ثيابه ثم أعطيته فلقة لن ينساها أبدا. لم يستطع الوقوف بعدها. لقد انصرف على أربعة.

ضحك عمر زيري حتى بان حلقه وحتى ارتعشت بطنه فوق ركبتيه.

– ليس أحسن من الهراوة، نطق أبو مريم بالحكم.

– والمرأة ؟ قهقه عمر شبقا.

– هذا ما لن تعرف أبدا يا «حلّوف»، قال له إبراهيم.

– وما الذي كنتم تفعلونه في الغابة في تلك الساعة المتأخرة ؟

– هذا أيضا لن تعرفه أبدا.

تراجع نبيل غالم كي يتفقد الرفوف.

– ما رأيكم يا جماعة ؟ أليس هذا بجميل ؟

– جميل جدا، أكد رشيد. يجب أن أدعوك إلى بيتي يوما ما كي تقوم بعملية تنظيم.

– أنا لست خادمتك.

انحنى عمر زيري على إبراهيم :

– أنت فعلا لا تودّ قول شيء عن الفتاة ؟

تناول نبيل خرقة ومسح الخزانة، أضاف علبتين أو ثلاثة ثم تراجع كي ينظر إلى ناتج عمله. كان مرتاحا لما قام به.

– هل تمنحني دقيقة ؟ قال له نافع.

– إنه لا يملك ساعة حتى، رد عمر وقد انفجر ضاحكا بابتذال.

مسح نبيل يديه على ركبتيه.

– هل من مشكل ؟

– لا أعتقد.

حاول نافع أن يمسكه من ذراعه كي يبعده عن الآخرين لكن نبيل راح يقاوم.

– سيستسلم النظام من لحظة إلى أخرى، أعلن قائلا. لقد نجح الإضراب. ها هم الإخوة يعودون من أماكن متعددة. توصلوا إلى إجماع : ليس أمام الكلاب سوى بضعة أيام كي يأخذوا حقائبهم وينصرفوا. هل أنت واع بهذا ؟

ارتاح نافع لأن نبيل كان مبتهجا وبالتالي فهو أخيرا مستعد لسماعه.

– نعم ؟

حكّ نافع خده، مسّح بلسانه على شفتيه، جنّد كل شجاعته لكن خانه النفَس.

– هذا هو الموضوع، قال مغمغما. أردتُ أن أحدثك منذ مدة لكنك لم تبد... أعني كنتَ مشغولا كثيرا. الآن... ألا نستطيع الذهاب إلى مكان غير هذا ؟ لن يأخذ الكلام منا وقتا طويلا.

– نحن هنا إخوة ولا وجود لسر بيننا. أتمنى ألا يكون هذا الأمر بخطير ؟

– لا، لا، أبدا. أود أن أحدثك عن نيتي... نيتي طيبة...

لم يدرك نافع ما أثاره في تلك اللحظة. عانقه نبيل وقبله ثم حضنه بقوة :

– كنتُ أعرف ذلك، كنت أعرف...

استدار إلى الآخرين :

– ألم أقل لكم في السابق ؟ لنافع نوايا طيبة. لقد قرر أخيرا الانخراط في حركتنا.

– بالفعل، سيزيد هذا من رقتنا، قال عمر هازئا.

انهار نافع بعد تعرضه لهذه المفاجأة. كانت السخرية تخنقه. سلّم لحماسة مرافقه وندم بمرارة على اضطراره تأجيل طلب الزواج.

في الخامسة مساء عاد لكي يحسب الحافلات في الساحة. بعد مرور ثلاثين دقيقة ما رأى حنان قادمة فبصق على الأرض وعاد إلى المنزل.

– إكرام، أنظري من يطرق الباب، نادت الأم غالم من مطبخها.

بخوف خبأت الطفلة الكراس المرسوم تحت المخدة وجرت نحو المدخل. فجأة توقفت. ماذا لو كان نبيل ؟... لا، نبيل يملك مفتاحا إضافة إلى أنه ما طرق الباب يوما. رفعت إكرام نفسها قليلا على مقدمة حذائها وفتحت

تِرباس الباب. رأت امرأة واقفة عند المدخل، فارعة وجميلة، حزمت نفسها برداء من صوف. زيها الأوروبي شغل الطفلة التي خافت فاختلست نظرة من مدخل المنزل. لو يرى نبيل هذا ؟ قالت لنفسها وهي ترتعد.

– أنتِ بلا شك إكرام، الأخت الصغرى لحنان ؟

– نعم، سيدتي.

– هل أختك هنا ؟

رفعت إكرام أصابعها إلى مستوى فمها مترددة.

– نبيل يكره النساء اللائي يلبسن هذا النوع من اللباس، قالت بحرج.

– آه، ولماذا ؟

– يقول نبيل عن النساء اللواتي لا يرتدين الحجاب بأنهن ساقطات. بعد مماتهن، سيرتدين النار والجمر طيلة الأبدية.

داعبت لها المرأة خدها.

– قولي لحنان أن السيدة رايس بالباب.

حركت حنان رأسها موافقة ثم أسرعت باتجاه غرفة أختها. فاجأتها وهي تتفقد وجهها في المرآة بشفتين متفجرتين وعين بكيس منتفخة.

– السيدة رايس هنا.

– قولي لها أنني غير موجودة بالبيت.

– يقول نبيل أن الكذابين سيُشنقون من ألسنتهم فوق الجمر ويشوون في جهنم حتى نهاية العالم.

تركت حنان المرآة لتسقط من يدها ووقفت على مضض.

تنهدت السيدة رايس تنهيدة استراحة تكسرت للتو :

– يا إلهي !

طلبت حنان من الزائرة أن تتبعها إلى الصالون وأشارت إلى مقعد وثير.

– ما الذي جرى لك يا عزيزتي ؟ قالتها السيدة رايس مفزوعة.

أرسلت حنان أختها لتحضر القهوة قبل أن تقول بنبرة غاضبة :

– لماذا أتيتِ ؟

– ليس من عادتك التغيب من دون إخبارنا. بدأنا في المكتب نقلق عليك. لقد كلفني المسؤول بأن أعرف ماذا جرى لك.

– انتهى.

– ما الذي انتهى ؟

– المكتب، أنّت حنان بغصة في الحلق.

– وهذا يعني ؟...

– رغم أن الأمر واضح : لن أعود إلى العمل.

– هذا أفهمه لكن لماذا ؟ هل بسبب رضوان ؟ إنه يعشق مضايقة الفتيات لكن من دون خلفية.

انهارت حنان فوق مخدة وراحت تبكي. جلست السيدة رايس إلى جانبها ومررت ذراعا حول رقبتها.

– ما الذي جرى يا عزيزتي ؟

– أنت تضيعين وقتك فقط، قالت الأمِ وهي تحضر صينية القهوة.

وقفت السيدة رايس كي تقبّل العجوز.

– أنا زميلة ابنتك في العمل. إنها لم تظهر أثرا للحياة لمدة خمسة عشر يوما ولذا طلب مني المدير المجيء كي استفسر عن الوضع... ما الذي حدث لابنتك يا الحاجّة؟

– ما يحدث يوميا لبنات هذه البلاد، تنهدتْ الأم.

قطبت حنان حاجبيها كي تسكتها لكن العجوز هزت كتفيها، وضعت الصينية فوق إسكملة وراحت تحاول إفراغ القهوة في الكؤوس الثلاث.

– لقد صرفتُ كل ما لديّ من أجل تعليمها، راحت تحكي مغيظة. لقد مارستُ كل المهن المنهكة كي تكمل دراستها.

حين تمكنتْ من الحصول على شهادات وأصبحت إطارا في مؤسسة محترمة ها هي الآن تتراجع.

– أمي...

– أسكتي. لقد ضحيتُ بأجمل سنواتي من أجلك وأعتقد أنه ليس من حقك أن تخيبي آمالي. حليفك الوحيد هو عملك. سيأتي يوم أغمض فيه عينيّ إلى الأبد. سيتزوج أخوك وينجب أطفالا وسيرغب في الحصول على المنزل له وحده. سينغص عليك حياتك متهما إياكِ بكل الآثام، سيعتبرك دخيلة وينتهي بطردك إلى الشارع. وقتئذ ستندمين على المنصب الذي تريدين تركه اليوم.

– أمي...

– ماذا ؟ لن تمنعي عني الكلام على الأقل.

فهمتْ السيدة رايس بأن شيئا خطيرا قد حدث.

شرحتْ لها الأم :

– أخوها الوحش يضطهدها. لقد هدموا الشيوخ عقله. لا يتحدث سوى عن الممنوعات والتدنيس. الحقيقة هي أنه يغار منها وهي تحصد النجاحات في الوقت الذي لا ينتهي هو من جني الفشل تلو الفشل. إنه يحسدها على تعليمها ومنصبها و بطاقة أجرتها. لهذا فهو يضربها. في كل مرة تلتئم جراحها يتدبر الأمر كي يفتحها من جديد. هي طريقته لحجزها، لمنعها من مغازلة الرجال.

استدارت السيدة رايس نحو حنان :

– هل هذا هو مشكلك ؟

– هذا كابوسها.

– ألا تحبين البؤس يا عزيزتي ؟ أتريدين إقناعنا أنه بالإمكان حجزك أيضا وأنت في هذا العمر ؟...

– لقد أقسم بأن يذبحني، انفجرت حنان.

– ثم ماذا ؟ هذا ما يقولونه جميعا. نحن لسنا جزء من القطيع، انتبهي.

– إنه وحش باستطاعته فعل أي شيء.

مدت السيدة رايس يدها إلى الوجه المعطوب، رفعت لها ذقنها :

– تفاهات ! لقد مررت على هذه الطريق مثل كل النساء. لقد زعزعتني الصفعات وهدتني التهديدات وارتعشت دون أن أعرف السبب. يحدث ألا أغمض عيني ليلا من أجل هفوات لا معنى لها. في النهاية قررت أن أنتفض. تحملتُ مسؤولياتي والنتيجة : أنا حرة. كل ما أملكه لا أدين به لأحد غيري. رسمت مشواري بنفسي. أذهب حيث أشاء برأس شامخة. تزوجت مع الرجل الذي أحب. لقد ولى عهد الدواب. لن تتكرر أبدا هذه الحيلة. لن نتركهم أبدا يدوسون أقدامنا من جديد. يجب أن تكون لنا فكرة واحدة واضحة : الوقوف في وجوههم، أن نقول لهم : « لا، انتهى»...

– يبدو أنك لا تعرفين نبيل.

– نبيل أو عنتر أو آية الله أو ذو اللحية الزرقاء، أنا لا أوليه أي اهتمام. استفيقي يا عزيزتي. إننا نعيش في عصر الكمبيوتر والسكانير والذكاء الاصطناعي. هناك مجسات فضائية تستمع للكون وأنتِ ما زلت تواصلين تكبد خبل شخص معتوه. إنك إطار يا هذه ! تستحقين الاحترام. لقد أثبتتِ جدارتك بأنك حرة. لقد جاء هذا في حينه. ستنظم جمعيِة النساء يوم الخميس مسيرة احتجاج ضد الذكورية والابتزاز الأصولي. انضمي إلينا وسنذهب كي نصرخ عاليا مللنا في وجه المجتمع.

– أنت مجنونة.

– لا، ما أنا إلا امرأة بسيطة تمكنت من كسر الأغلال التي تكبلها. قلتُ : كفى ! أريد أن أكون ذاتي، ألا أخجل من بدانة جسدي، أن أتقبل نفسي كما أنا : كمخلوق كامل، بكل الاستعارات الممكنة، بقلب، بشجاعة، بطموحات وملايين الرغبات.

انكمشت حنان على نفسها.

غادرت أمها الغرفة وهي ترمرم معبرة عن سخطها.

– اذهبي الآن، بكت حنان متوجهة إلى زميلتها.

– لا، أبدا.

– بلى، سوف تذهبين وبسرعة. أنت تجهلين موضوع حديثك. لقد كان معك الحظ لكن ليس معي أنا. أنا لم أستسلم. لم أحصل يوما على...

– هذه انهزامية أيتها الشجاعة. هذا بالضبط ما يحاولون ترسيخه في دماغك. اشحذي أظافرك وحوليها إلى مخالب وافقئي بها أعينهم. عضّي واضربي واصرخي. إذا كانت أذرعهم أقوى وضرباتهم أشد، قاومي بقلبك. تذكّري كم مرة اضطررت للخضوع، يا امرأة محتقرة، ما آلت إليه يداك الجميلتان بفعلَ الغسيل والماء القذر، وما تكبدت أذناك من شتائم. أنت امرأة يا حنان. هل أنت منتبهة لما يعنيه ذلك؟ امرأة. أنت كل شيء : العشيقة والأخت والمرشدة وحرارة الأرض والأم، هل نسيت؟ الأم التي حملت الرجل في بطنها، التي وضعته في هذا العالم بالألم، منحته الثدي والحنان والثقة ورافقته في كل تلعثماته الأولى وخلف خطواته الأولى... أنتِ، الأم العظيمة، البسمة الأولى، الحب الأول بالنسبة للرجلَ.

كان نبيل في غضب ليس له حدود. كانت تصفيرات تنفسه ترتطم بالحيطان. لم تكن تمتّ للإنسانية تلك النظرة التي رمق بها إكرام التي يمنع عليها الخروج إلى مدخل الدار.

– أين هي؟ زمجر وهو يمسك أمه من ذراعها.

– لعن الله اليوم الذي ولدتَ فيه أيها البائس. كيف تتجرأ على رفع يدك على أمك ؟

دفعها نبيل. دار فكاه في وجهه الحانق حين رأى حجاب حنان مدعوكا في إحدى الزوايا.

– لقد ذهبت إلى مسيرة النساء، هذا ما حصل. أنا على يقين من أنها ذهبت كي تمنح نفسها للفرجة مع أولئك الفاسقات.

رأى في نظرة أمه المتملصة أنه كان على حق. أطلق صرخة وهرع نحو الخارج. تفرق أمامه الأطفال الذين كانوا يلهون على الرصيف. منخراه يرتعدان غضبا وهو يبحث عن سيارة صديق أو تاكسي ثم نادى من بعيد على شاب كان فوق دراجة نارية، صعد خلفه وأمره بأن يوصله إلى ساحة الشهداء.

حوالي مائة امرأة حملن اللافتات ورحن يلتصقن بعضهن ببعض في الساحة تحت النظرة الساخرة للعابرين. هجم نبيل على الحشد، دفع بمرفقيه وعنف كي يشق له طريقا. قريبا من صدغه علا صوت فيه نعيب يقول : الشيطانة ! هل تتحداك ؟ هذه البغية تتجرأ على التحقير من سلطتك... شق جمع النساء مثل كاسحة للجليد وراح يفتش ويفتش. في لحظة تخيل نفسه وهو يحمل قاذف اللهب ويحرق جماعة البغيات، الساحرات... ساقطات ! ساقطات... أسقطَ

امرأة أرضا، دفع الممرضات، ضرب كل من حوله مثيرا بداية ما يشبه الهلع. من وراء مجموعة من المتظاهرات رآها. كانت حنان هنا، واقفة أمامه، مقولبة داخل التنورة التي يمقتها. لمحتْه متوجها نحوها... أدخل يده في شقة قميصه. أغلق قبضته على الخنجر... فاجرة، فاجرة... طعنَ تحت الثدي، هناك حيث تختبئ الروح الضالة، ثم في الخاصرة وبعدها في البطن...

انطفأ النهار. لم تعد حنان تدركه. لقد كانت تائهة داخل زوبعة ضبابية، متجمدة وليس لها صدى. سألها صوت مستفهما. هل كان مغازلا أو هي فقط التي كانت تهذي؟ لم يكن لذلك أية أهمية تذكر. انقلبت الساحة داخل نهر من الظلمات. راحت حنان تذوب مثل حجر داخل بركة الدم. كانت تلفظ أنفاسها... تموت؟ وهل عاشت فعلا؟ هل قبّلت شفة تحبها؟ هل ارتعد جسدها للمسة عاشقة؟ في ارتعاشة أخيرة، استدارت نحو الماضي المنيع مثل المكيدة. الماضي الملعون: المدرسة والجامعة لم يفيدا في شيء. لم يتمكن درع الشهادات من منع الشفرة من ذبح الأخت وفقأ الحلم مثل الدمل...

عذراء أخرى انطفأت تماما مثل شمعة في غرفة للموتى، مثلما تنطفئ الأيام حين تُصلب الشمس على بوابات الليل.

.10

صدمني موت حنان. كأنها أبعدتني بعدما اجتذبتني لمدة طويلة. لكني لا أحمل حدادها، ما الجدوى ؟ لم تكن بالنسبة لي سوى أمنية لن تتحقق أبدا. لقد بدأت التعود على ذلك.

تملكني الغضب وأحسست بالحزن خاصة حينما أقيس الحد الذي تصله العبثية في استعباد الذهنيات رغم أني لا أتذكر أنني أكن أي حقد لنبيل. لم يكن جديرا بذلك في نظري. فعلته كانت عبارة عن جنون. لقد آلمني في من أحبهم لكنه لم يقترب من عقلي. بقيت واعيا. توصلت إلى تقبل المأساة بكثير من الفلسفة. فيما أبعد من الغياب التراجيدي لتلك التي كنت أود أن تصير رفيقتي في الحياة، كنت على اقتناع بأن ما حدث ليس مجرد مصادفات بائسة بل إشارة إلهية بأن السماء تضعني أمام امتحان.

لم أحضر حتى مراسيم الدفن.

بقيت في المنزل وصليت كثيرا.

بالطبع، يحدث أن أثور ضد القدر الذي يستميت في التشويش على كل طموحاتي بحقارة نادرة لكنني كمؤمن ملتزم أحاول أن أستعيد ذاتي. كنت حزينا لأجل هذه الفتاة الوضاءة، الوديعة والرزينة ولكنني منعت نفسي من البحث عن تأويلات أخرى من شأنها أن تزج بي في شبكات عنكبوتية لا طائل من ورائها. لم أكن أرى نفسي قادرا على تحمل ذلك. أصبحت هشا بسبب الخيبات التي توالت أمام سرير أحلامي. أراني أضعف من ذبابة صغيرة أمام حرباء. كان من الضروري علي استعادة أموري بأي شكل من الأشكال. تخليت أولا عن الشقة من الغرفتين بسوق الجمعة، وبعدها، وبعد تفكير مليّ قررت عدم الزواج قبل قياس الزوبعة التي تستعد لجرف البلاد بطوفان لن يكون سوى مدمّرا.

بعد توقيف نبيل، أصبحت ضرورة مخالطة المناضلين الإسلاميين والتظاهر بالاهتمام بالدروس التي يلقيها علينا الشيوخ لا تعنيني. بعد أن أنهي صلاتي، كنت أول من يغادر المسجد وبعدها أتسكع في الحي بيدين خلف ظهري وشفتين ذابلتين. أصابني الضجر.

بالقصبة، كان من المستحيل إيجاد شخص يواسيك دون أن تمنحه فرصة كي يغرس فيك بعض العقائد. كانوا يستغلون الحالة النفسية «للضالين» وضعفهم لربطهم بالحركة. في تلك المرحلة، راح كل واحد يكتشف لديه هواية أن يصبح شيخا روحيا. أئمة شبان يعجنون العقليات حسب أهوائهم

في كل مكان، بالمقاهي، بالمدارس، بالمستوصفات، بمداخل العمارات، يلاحقون الشحناء ويحاصرون الضمائر. من الصعب مقاومتهم. تمتمة واحدة تكفي للأنداد كي يحيطونك بتعاطفهم قبل أن يسلموك دون سابق إنذار إلى المسؤولين عن الإنقاذ. انتهت الحياة الخاصة وولّى زمن التجوال. قد تلجأ إلى غلق مصاريع النوافذ وتحجب نفسك في غرفتك لكنك لن تكون في مأمن أبدا. أصبحت الحياة لا تطاق.

كنت، كي أهرب من التوترات، ألجأ إلى دحمان بوسط المدينة. هناك، رغم الحضور الدائم للقميص كان ضجيج الهيجان أقل عنفا. انصرف الناس إلى أشغالهم، واجهات المحلات تلمع فوق الأرصفة والشرفات لا تخلو من الناس أبدا. تعلو الفكاهة والضحكات هنا وهناك، وقد تكون بها مغالاة بهدف التخلص من القلق واضطراب العواطف. غير مهم. كان يكفي دحمان أن يغلق بابه كي ينقطع عن الشارع. شقته واسعة وساحرة، تم تزيينها بلوحات بهية وأرائك ممتلئة وستائر من حرير. لم يكن ينقص دحمان شيء. كان يبدو طافحا بالحياة. له بنت صغيرة رائعة وزوجة ودودة تلمع بسمتها مثل ثلوج جبال تيكجدة. كانوا يستقبلونني بفرح ويصرون في كل مرة كي أتعشى معهم. مع مرور الوقت، انتبهت إلى أنني أفسد عليهم سعادتهم الصغيرة بنحيبي المتواصل. أشتكي دوما بلا توقف دون أن أعرف ممّ

بالضبط. باعدتُ زياراتي ثم انتهيت بعدم الذهاب عندهم بتاتا. الحقيقة هي أنني كنت أغار من بحبوحتهم والنعيم الذي كانوا يسبحون فيه بعيدا عن الصرخات المهووسة بالانتقام والعيون المحقونة بالدم. كنت أغار من فرصة صديق الطفولة الذي بدأ من لا شيء ووصل القمة، من جمال زوجته التي تدرّس علم النفس بالجامعة، من النضارة الدائمة لأسرته... أصبحت غيرتي منه تقترب من البغض له لأنني كلما عدت للبيت وجدت أبي ومزاجه الذي لا يطاق، وهو مغروس في زاويته مثل البخت السيئ في انتظار أدنى تفاهة كي يبدأ في النباح على كل من يمر أمامه. أكرهه وأكره طاقم أسنانه الذي راح يتعفن داخل كأسه، ورائحة مرض الوهم. أكره أيضا كوخنا أين تختنق أخواتي وفقرنا الذي في كل مرّة يطرد طالبي الزواج منهن رغم شهرتهن بمهارتهن كربات بيت ورقة ملامحهن. أكره خصاصة غرفتي التي تشبه خصاصة روحي، والوجبات الحقيرة التي ترتجلها أمي، وابتسامتها التي تعتذر لأنها لا تملك شيئا آخر تقدمه، ونظرتها البائسة التي في كل مرة تقع علي إلا وجعلتني أغور أكثر فأكثر...

لم أعد أحتمل.

في الخارج كانت الأمور أفظع. استمرت تجمعات الإسلاميين الذين احتلوا الساحات العمومية والملاجئ والمساحات الخضراء النادرة وهم يستوقفون المارة

ويستفزون الشرطة، متحمسين، بلحية منتفشة وبؤبؤ ملتهب. مُنعت الحركة في الشوارع، أما السواق المتذمرون فيلحقهم السباب أو حتى الرج. يتمتع أفراد ميليشيات التيار بهذا العمل. كل ما يمكن حدوثه من شأنه أن يستثير غضبهم. الويل لمن تسول له نفسه تقطيب الحاجبين. الفتيات من دون حجاب تتم مهاجمتهم من طرف أطفال محرَّضين. يرمونهن بالحجارة، يرشوهن بالمياه العكرة ويتفوهون عند مرورهن بكلام بذيء يخرج من أفواه الأطفال الصغار مثل الكفر. فوق الحيطان المقشرة تريد الخربشات الحائطية أن تكون إعلان حرب حقيقي. بعد كل خطبة تأتي نداءات للتجنيد، وبعد كل تهديد تأتي المناوشات. بين مسيرتي احتجاج يأتي حدث بسيط كي يؤدي إلى اتفاق الجميع بحيث تدفع الفاتورة من طرف أولى ضحايا الأصولية : عاهرة، سكير، بيت «مريب». لا تكفي الحالة كي يتم إعلان الحداد الوطني لكنها كافية للتكهنات. عمّ الخوف تدريجيا. بسبب التسيب الكبير يقول اللائكيون. لا لأية تسوية يرد المتطرفون. في حالة ترقّب، برزت الكثير من الجماعات التابعة للفيس ومنها «جماعة الهجرة والتكفير»، الجناح الأكثر تطرفا في الحركة، والتي بنت لنفسها سمعة مشئومة. يقوم أتباعها بالتغلغل داخل الشرائح الاجتماعية الفقيرة، بعمليات التجنيد في أوساط المعذبين والمكبوتين، باستهواء الآخرين بحماسهم وعزمهم. يصفونهم في كل مكان

بنفس الصفات : بحواجب منخفضة أكثر من تفكيرهم، الرأس الحليقة، النظرة الجامدة، اللحية المنتفشة، بهم غضب وعنف ولا يتراجعون أبدا للخلف. يستغلون الظلام للتجمع والتدرب على مساحات خالية أو في الغابات. هنا تتحرر الألسن ويبدأ الكلام عن السيوف والسواطير وعدة الحرب وكتائب مبهمة. فجأة سقط سيف «دا مخلص»[2] مثل الشفرة الحادة. تم اعتبار العصيان المدني عملية خارجة عن القانون وتم الزج بالشيخين عباسي المدني وعلي بلحاج في السجن. بدا أن للرجال العظماء أرجل من طين. لا أحد صدّق ذلك.

بعد برهان القوة الذي مارسته السلطة، استفاقت القصبة على ترنح، غير قادرة على تحديد موقعها. غدت المساجد صامتة والشوارع مصدومة والمناضلون الضالون يهيمون داخل الضباب مترددين، مشككين، مستعدين للانسحاب بمجرد سماع صوت صفارة إنذار.

في حين أنه بكامل طاقة اليأس التي تحيي مجددا القضايا التي تتعرض للقمع والتي لا تخسر أبدا، رغم توقيف الشخصيات المهمة فإن المجلس استدرك أموره وأعاد بناء التنظيم. برزت وجوه جديدة مستعدة للتضحيات وكذلك بعض المفتيين الذين اتضح سريعا أنهم أنجع من أساتذتهم. بدأت الخلايا الإسلامية في الأحياء تفتح أبوابها من جديد

---

2 العم النزيه، هو شكل من أشكال «الأخ الأكبر» وهو سبب كل مشاكل الجزائر. (المترجم).

وتخرج مكبرات الصوت والأرشيف. لم يتأثر الالتزام ولم تمسه التجاعيد. مرجعيتهم هي أخطاء البارحة التي عزموا على عدم تكرارها. اتفقوا على مقاربة أقل صخب وأكثر إقناع. أما المهاترات النارية والاستفزازات، بمعنى كل المواقف المفرطة التي من شأنها أن تهيج الجماهير تم منعها. لقد أخطأ النظام ومن الضروري إبقاؤه في صف الطاغية المرفوض من قبل القديسين والأمم. في المستقبل يتم لعب الانتخابات التشريعية إلى آخرها مع الاحتراس من التعثر أو التسليم أمام العقاب الجماعي لأن عمليات سبر الآراء تؤيد بشكل واسع «المتضررين».

يأتيني يوميا أشكال من المتنورين ولم أعد أظهر نفسي في زنقات القصبة. حين يأتي الصباح، أرتدي سروال الجينز وحذائي الرياضي وأذهب لأتمشى قليلا، أحيانا في سوسطارة وأخرى في شارع العربي بن مهيدي. بفضل المال الذي جمعته لدى عائلة راجا كنت أستطيع أن أمتع نفسي ببعض المشويات على الغداء والتجوال على الشاطئ حيث الحياة تستمر على عاداتها ضاربة عرض الحائط بكلام المتشائمين. رغم انتهاء موسم الاصطياف كانت الشواطئ تعج بالناس، يختفي الرمل تحت المظلات الكبيرة وتتلوى البنات اللامباليات داخل المايوه الذي يكاد لا يرى فوق جلدهن المحمر. أجلس على شرفة أمام كأس من شراب الليمون مخففا الضغط عني لساعات كاملة، مصغيا إلى

موسيقى الراي، متأملا في انعكاسات الضوء في عرض البحر.

هكذا التقيت مراد بريك. لم أتعرف عليه بسبب وجه ممتلئ وعينين ابتلعتهما كتل اللحم وسمنته الزائدة. ضحكته التي تشبه إبريق الشاي المنسي فوق الجمر هي التي دفعتني إلى استرجاع الذاكرة بسرعة. مراد بريك تقاسم معي غرفة في نزل بائس بالضواحي خلال اليومين اللذين شهدا تصوير فيلم أبناء الفجر. في تلك المرحلة، لم يكن هناك حد لحزامه. كان بائسا، جائعا، لا يتوقف أبدا عن طلب السجائر من طاقم التصوير. كنا ممثلَيْن شابين طموحين مسحورين بأضواء الشهرة وكنا نؤمن إيمانا قاطعا بأننا في يوم ما سنتمشى على الزرابي الحمراء بمدينة كان. في الفيلم، كان يمثل دور ابن عم شرّير الطبع، أحاول أنا جاهدا لأعيده إلى طريق الصوابً. في النهاية، تحت تأثير المخدرات، خائر القوى، يلقي بنفسه تحت عجلات القطار حتى يفهم أخيرا المتفرجون كبارا وصغارا مآل الفراغ ورفقة السوء. استحسن الجمهور الرسالة وكذا الصحافة المقتنعة بأن هذه أحسن طريقة لتربية النشء ولذا تفضلت بتخصيص مقالة مقتضبة في صفحة الوسط، الشيء الذي لم يكن من حقي أنا. بعدها بمدة وفي الوقت الذي كنت أبحث عن المجد في «لبنان» كان مراد بريك يقفز ليؤدي أي دور صغير بقي على حواف السيناريوهات. رأيناه في لحظات متفرقة من مسلسل تلفزيوني يبعث على

الضجر، بعدها في مسرحية تصلح لنفض الغبار عن خلفية المسرح ثم في فيلم مطول عرف نجاحا نسبيا، أثار أشجاني ومنحه جائزة خلال مهرجان سينمائي إفريقي.

بعدها ما عدت أراه.

بعد العناق المعروف، ألقى بنفسه فوق أحد الكراسي وبصفعة خفيفة من كفه سوّى شعر ناصية شعره المتجعد. بطنه يبعث قميصه الاستوائي على التثاؤب. طلبَ بعض المثلجات وبدأ يسألني عن أحوالي. مررني بدقة لا متناهية تحت المجهر قبل أن يقبل بالحديث عن نفسه :

– سأتوجه إلى باريس في شهر ديسمبر. ذهاب دون إياب، لا أخفي عليك نيتي. بعد الطلب الذي تقدم به بعض الأصدقاء للمركز الثقافي الفرنسي، قبل هذا الأخير قبول إعطائي منحة. سأقوم بتربص في مسرح محترف.

لدعم أقواله، قام بدفع كتاب جيب في اتجاهي يحمل عنوان «السيد» لكورناي.

– مساء داخل غرفتي، أعسكر أمام المرآة وأتدرب على الجُمل. شيء مدهش. لكنني أبقى مقتنعا بأن مروري بالمعهد سيكون مجرد إجراء شكلي. سأكوّن شبكة من الأصدقاء داخل هذه المهنة وفي أقل من سنة سأفتك الحصة الكبرى. دون ذلك ما الجدوى من الصراخ كل ليلة أمام مرآة إلى الحد الذي تجبر جيرانك على إنهاك قبضاتهم من

ضرب الحائط كي أغلق فمي. ستفتح لي الجائزة التي تحصلتُ عليها في واڤادوڤو الكثير من الأبواب. سيكون الوضع هائلا : سهرات للمعارف، لقاءات مع الصحافة، جلسات تصويرية، بلاتوهات تلفزيونية، الأموال والنساء. سأمضي لتدارك الوقت الضائع مني في أقل من سنتين، ثق بي. هل تعلم بأن السيدة سيمون فلوري راسلتني ؟

– وكيف لي أن أعلم ؟

– أراهن على أنك لا تعرف حتى من تكون السيدة فلوري. هي وحش في التوزيع الفني السينمائي ولها مكتب أكبر من مكتبة بلدية. هي بوابة العبور إلى المجد. إيه، تصور أنها بعثت لي برسالة، بمحض إرادتها. هذا له دلالات كبرى. من المحتمل ألا أجري هذا التربص أصلا وأن لها الآن مشاريع من أجلي. ها قد انطلقتُ يا نافع. لن أضع قدميّ مجددا في هذه الفوضى التي كل شيء فيها نتن الرائحة حتى زهورها.

كان متحمسا وكأنه في قمة الهذيان. تتحرك يداه في الهواء، والمثلجات التي جاءه بها النادل كانت قد بدأت تذوب وسالت على جوانب الكأس مشكلة بقعة صغيرة لبنية على الطاولة. مراد لا يبالي بها. راح يصرعني بقهقهاته وهتافاته ويهمزني بإصبعه الممدود في كل مرة يقل فيها تركيزي.

– هل تعتقد أنني أملك حظا كي استميل المركز الثقافي الفرنسي ؟

كاد أن يبتلع لسانه ويختنق.

لبس وجها مراوغا وأجاب قائلا :

– أعتقد أن الوقت قد فات الآن.

– لماذا ؟

– لقد انتهت مرحلة التسجيلات.

– أريد أن أجرب حظي.

عبس وجهه وأدخل عنقه بين كتفيه المترهلين.

– لا أريد أن أخيب أملك.

– أنا أريد المجازفة.

– لن يكون الأمر سهل، أنا أحذرك.

– سأكون مدينا لك بكامل حياتي، رحت أتوسله.

– الأمر لا يتعلق بي... لم تشارك سوى في فيلم واحد يا نافع. هل لديك على الأقل ملف صحفي ؟ لم تكن الأشياء سهلة بالنسبة لي رغم ملفي الصحفي وجائزتي الإفريقية. اضطررت لتجنيد بعض الأصدقاء وتقديم الرشوة.

– جندهم مرة ثانية. هل تقدّر هذا ؟ أنا وأنت في باريس سندعم بعضنا البعض.

أخيرا غطس مراد ملعقته في الكرة اللينة للتحلية المتجمدة. أخذ كل الوقت، كشط قعر الكأس وتلذذ بمسح شفتيه وهو مطرقا يفكر.

– صراحة هنا أنت تباغتني. لم أكن أعتقد أنك ستدفعني بالبوح بكل شيء. تجربتي كممثل لم تكن كافية. للاستفادة من المنحة كنت مجبرا على دفع المال.

– كم ؟

دفع القدح وقاطع ذراعيه فوق بطنه. عيناه الكريهتان أبقيتا المسافة بيننا. تفرس في وجهي صامتا ثم تمايل برأس تبعث الغم :

– دع عنك يا نافع. هذا لا يناسبك.

– ليس لدي رغبة في تضييع دقيقة واحدة أخرى للتعفن هنا.

– هل تصرّ فعلا على الذهاب بعيدا ؟

– بالتأكيد.

يبدو أن عزمي يشغله. فتش في السماء عن مخرج لكن ما وجده. ارتعد خداه.

– لنتفق أولا حول أمر دقيق، نافع. أنا أكره هذا النوع من الطرق الفاشلة وأمنعك من التفكير في أنني أنتظر مكافأة من أي نوع كانت في هذه المسألة. أنا فنان.

المساومات الغامضة ليست من أشغالي. من المهم جدا أن أذكّرك بهذا. الأمر متعلق بكرامتي وأنا متمسك بها.

– أنا أسخر من كل هذا. ما يهمني هو فيزا من أجل السعد. كم ؟

– عشرون ألف دينار نقدا وثلاث آلاف فرنك فرنسي عند الركوب، قالها بشراسة.

لم أتردد ثانية واحدة لأني جمعت من عملي لدى عائلة راجا مالاً يكفي كي أتفاوض على عمليتين أو ثلاث من هذا النوع. انتبهت بأنني لم أدفن بعد أحلامي التليدة وبأن تلك اللوحة التي رسمها لي مراد تحت ظل مظلة شهباء اللون راحت «تبعثني» حيا من جديد. أراني الآن أتمشى داخل الاستوديوهات الباريسية ونص السيناريو تحت ذراعي وعينين تكبران الشاشة وأنا بعيد عن زنقات القصبة، عن رطانة وحدتي هناك وهول البطالة والفراغ. سكنت باريس عقلي. فهمت إذن أنني إذا ما تخليت عن سخائها فالأفضل لي هو الموت. منذ ذلك اليوم لم تكن أمامي سوى فكرة واحدة : الذهاب. تسلق الطائرة والتحليق بجناحيّ أنا.

بعد أن انتهينا من المشكلة المالية طلب مني مراد أن أحضر له قبل نهاية الأسبوع ملفا إداريا مكتملا : طلب خطي موجه للسيد مدير المركز الثقافي الفرنسي تكمله سيرة ذاتية، طلب فيزا مرفق بجواز السفر والوثائق التقليدية : شهادة ميلاد، 12 صورة شمسية، شهادة الإقامة، الخ.

بعدها حدد لي موعدا في «الحمامات» وهو مطعم رفيع ما كنت لأتجرأ على المغامرة بدخوله حتى في عهد راجا.

كان مراد قد طلب أكله وقد وصل إلى الوجبة الأساسية حين دخلت. نظف زاويتي فمه بمقدمة منديله وعزمني على الجلوس قبالته. قدمت له الظرف الذي يحتوي على الوثائق المطلوبة. اكتفى بفحص النقود ثم راح ينهي غذاءه.

– أطلب بعض الأكل.

– لا شكرا.

– الخروف المشوي بالفطر متعة كاملة.

– لست جائعا، ثم لقد أضعت الشهية منذ ذاك اليوم. أنام بشكل سيء ولا أفكر سوى في المنحة.

– سنتعب كثيرا لكننا سنحصل على تلك المنحة اللعينة، طمأنني بكلامه. كنتُ تحادثت مع شخص مهم في المركز الثقافي الفرنسي.

أكلَ بشهية كبيرة، بلع التحلية وألقى نظرة على ساعة يده.

– لقد تأخرتُ، قال وهو ينهض من مكانه.

– متى سنلتقي ؟

– سأتصل بك.

– أنت لا تعرف محل سكناي.

– سأسأل.

– أفضّل أن تسجل رقم هاتفي.

تقبل عناء الجلوس من جديد وخطّ بيد قلقة رقم هاتفي فوق الظرف الذي ناولته إياه.

– هل سيأخذ وقتا طويلا ؟

– نافع صديقي، كفانا استباقا للأحداث. مهما حصل فإن التربص سيكون في شهر ديسمبر. أمامنا شهران كاملان.

– ألا يوجد مكان بإمكاني أن ألتقي بك فيه ؟

– ارتح، خو. من الآن هذه ليست مشكلتك. سأكلمك بالهاتف بمجرد أن يأتيني الجديد.

صافحني واختفى كي يتركني أدفع الفاتورة.

.11

– كفى، ثار أب وليد. هذا ليس محول للهاتف هنا. «اتصل مراد، هل اتصل مراد ؟». لم يتصل أحد. هل تريد أن تدفع بنا إلى الجنون ؟ من الصباح إلى المساء، يوميا نفس الردة المملة. لدينا انشغالات أخرى، ثم، أضاف مظهِرا أنه ينزع خيوط جهاز الهاتف، سأذهب كي أهشمها ماكينتك اللعينة.

أمسكه نافع من ذراعه وثبته إلى الحائط. مارست يده ضغطا حتى اعتقد الشيخ أنه سمع طقطقة في عظام ذراعه. بفم معوج من الألم ورجلين مهزومتين، لم يبق له غير العينين كي يعبر عن سخطه. أمسك الابن بإحكام. زادت بشاعة وجهه المنكمش بتكشيرة حيوانية وقال بصوت مدو :

– لا تلمس أبدا هذا الجهاز...

اعتبر الأب تلك اليد التي ترحي لحمه يدا زنديقة. فجأة، أدرك فظاعة الخطيئة. جمع كل قواه المشتتة، وقف وهو يدعو عليه بالشر دون توقف :

– أيها اللقيط الوسخ ! أتعتقد بأنك تستطيع أن ترعبني، يا بذرة الشر. تتجرأ أن ترفع يدك عليّ، أنت، بولي. أنا شيخ لكنني لم أنته بعد. لن أترك لك الفرصة كي تفرض إرادتك هنا تحت سقف بيتي. أنت مجرد مغرور. هل تظن أنك كبرت ؟ أنا أحتاج إلى ميكروسكوب كي أراك يا ابن الكلب. اللعنة عليك.

أدرك نافع خطورة فعلته. سرّح ذراع والده متراجعا للخلف، غير عارف كيف وصل إلى تلك اللحظة.

رفض الأب دلْك معصمه المكدوم. ها قد انهارت بالنسبة إليه طابوهات عاشت ألف سنة. هل هذا نذير الفناء ؟ لقد قيل في ذاكرة السنين أنه يوم يرفع الولد يده على منجبه سيبتدئ العد العكسي. صار أحمر مثل زهرة الفاوانيا، بصق أرضا ثم ترنح قاصدا حصيره متمنيا أن يقضي حتفه قبل الوصول إليه.

في زاوية من زوايا الغرفة تجمدت الأخوات الخمس ممسكات برؤوسهن بين أيديهن. راحت الصغيرة نورة تحدق في أخيها غاضبة. وجه أم وليد مثل حبة السفرجل الذابلة. منعت نفسها من تصديق ما رأته حينا، هنا، في دارها.

– كنت أتوقع كل شيء ما عدا هذا. تكلمتْ بصوت مرتجف...

استدار نافع على ذاته مصطدما بالحائط ثم أطلق صرخة حيوان مفترس وخرج إلى الشارع.

أمرت الأم بناتها بالعودة إلى غرفتهن، تمتمت دعاء ثم توجهت نحو الوالد المهان.

صرخ في وجهها :

– ابق في مكانك. لا تساوين شيئا أكثر منه. الأم المحترمة لا يمكن أن تنجب هذا الرهط من الأطفال. الآن عرفت أنك كنت دوما تكذبين علي.

تملك نافع الإحساس بأنه سيُجن. جاءت نهاية شهر ديسمبر ولم يبد أي أثر لمراد بريك. في كل مرة يرن الهاتف، يقفز إلى السقف قبل أن يقطع المكالمة بعنف حين لا يتعرف على صوت الممثل في الطرف الآخر من الخط الهاتفي. تملّك أخواته الفزع. إذا ما لم تكن هناك رسالة من أجله فإنه يشتمهن وأحيانا يقوم بضربهن. بعد الآن، بمجرد سماع صوت خطاه في المدخل إلا وعدوْن للتخفي داخل غرفتهن.

يقضي نافع معظم وقته في التاكسيات والحافلات، مدحرجا مثل الكرة من طرف المدينة إلى الطرف الآخر بحثا عن ممثلين سابقين قد يتمكنوا من مساعدته في إيجاد مراد بريك. تكشيرتهم بعدم معرفتهم بالأمر تكوي كما

اللسعة. عاد مرات عديدة إلى «الحمامات» وزار مرات أخرى المطار لكن مراد اختفى. رجع إلى بيته ليلا، خائبا محبطا، لم يستطع منع نفسه من التأفف حتى الصباح. نحل جسده وغدا مهملا لهندامه. تحت عينين من زجاج، نبتت له لحية متوحشة منحته مظهر المخبول. كلما زاد تباطؤ مراد في الظهور كلما كبر حلمه للرحيل. أصبحت باريس فكرة ثابتة، مغروسة في أعماق ذاته وتسكن كامل كيانه. إيقاف المسار الانتخابي فاجأه وهو في أحد مكاتب المركز الثقافي الفرنسي.

فتحت السكرتيرة ذراعيها متأسفة :

– لم نقدم أية منحة تحمل اسم مراد بريك يا سيدي.

– هذا مستحيل، سيدتي.

– لقد تأكدنا من ذلك. قوائمنا قطعية.

قمع نافع شتيمة كادت تخرج من فمه.

هام في المدينة كما تفعل الأشباح.

لم يعد يرى الناس الذين يسرعون الخطى حوله ولا دبابات الجيش التي اكتسحت الشوارع ليلا...

لن يكون هناك دور ثان للاقتراع.

تم إلغاء الانتخابات التشريعية.

ردت الشرطة على تجمعات الإسلاميين بالمداهمات والتفتيش والبحث عن المحرّضين.

مالت الجزائر روحا وجسدا في ما لا تحمد عقباه.

في لمحة بصر، تمددت صرخات الأصوليين في عجيج صفارات الإنذار. تطوف سيارات الدرك في إقليم الشيوخ الروحيين مدنسةً معاقلهم. هشمت الأبواب. العائلات التي يتم إيقاظها في أوقات صعبة للغاية انتهت بالاستسلام للذعر. تحاول أيدي النساء تخليص أخ أو أب أو صهر. من المستحيل. يضع القيد كل التوسلات داخل الحبس. يعد الشيوخ الجميع بالعودة بطريقة أو أخرى من أجل الثأر للعار. البعض منهم غادروا أسرهم بالرؤوس العالية، متألقين، على يقين من أن المستقبل سيشهد بأنهم كانوا على صواب، أن الاستبداد سيرص صفوفهم أكثر فأكثر ويقوّي قَسَمَهم. آخرون يتمسكون بأذرع آبائهم، يقسمون على جز لحاهم إلى الحد الذي لن تنمو بعده أبدا.

الهراوات ردعت الكثير هنا وهناك.

عربات المساجين تختفي تحت جنح الظلام.

اتكأ رشيد دراق على النافذة الكبيرة وهو يتفرج على رجال شرطة التدخل السريع وهُم يهجمون على مجموعات من المراهقين في جادات الحي. العجلات تحترق في وسط

الطريق وراح الدخان يلف البنايات في أوشحة سوداء. يرتد صدى الرشاشات على الحيطان ويلعلع مختلطا مع الجلبة مثل صراخ حية مسعورة. يسارع المتظاهرون إلى التقاط القنابل المسيلة للدموع قبل أن تلوث الجو ويرمونها مجددا إلى عناصر الشرطة أو يغرقونها داخل دلاء مليئة بالماء. تنهال القضبان الحديدية على العربات مفتتة زجاج نوافذها، مهشمة هياكلها. بعض المنحرفين يهاجمون واجهات المحلات، يكسرون زجاجها ثم يدخلون لسرقة محتوياتها.

زمرة من رجال الشرطة وصلت إلى الحديقة العامة ثم تراجعت مسرعة تحت وابل من الحجارة. بعد أن جرح شرطي على مستوى الرأس، انهار بجانب عمود كهربائي. قفز عليه ملتحيان، جرداه من سلاحه واختفيا في فوضى الزحام.

عربة أمنية بواجهة زجاجية مكسورة ودواليب عجلات لا هواء فيها تقدمتْ وجلة في زاوية من الشارع. ضربتها زجاجة كوكتيل مولوتوف ضربة قوية. انتشرت النار في العربة التي قفز من داخلها شخص وهو يصرخ شبيه شعلة من نار. بعض رجال الشرطة تحدّوا المقذوفات وهبوا لنجدته.

في البعد، موكب عسكري جاء للإغاثة فعادت الجماهير إلى الوراء على مرتفعات الحي.

سمع صوت الرشاشات من جديد، بدأ متقطعا ثم متسلسلا...

– إذا لم يكن هذا مخزنا، تنهد السيئمائي وهو يخرج يديه من جيبيه.

يسحق نافع وليد أصابعه وهو يتمعن في الخزانة قبالته. مكتب رشيد دراق ضيق للغاية. هو غرفة نتنة تتكدس فيها الأدراج المعدنية فوق بعضها البعض، أريكتان من جلد صناعي منتوف، طاولة مشققة ورفوف محملة بكتب غريبة وصفحات منكمشة الجوانب. رسمت النعال بوضوح آثارها على الأرضية الخشبية المغبرة. على الحائط توجد ملصقة فيلم وقائع سنين الجمر التي أكلتها الصفرة. مُسح الجينيريك في بعض الأماكن ويبدو أن أحدا قد استعمل سيالة ذهنية مضيفا قرنين شيطانيين للوجه الكبير في التصميم.

غادر رشيد دوّارا ضائعا في عرض منطقة تادمايت وجاء في سنوات السبعينيات لإشباع فضوله في ضواحي مدينة الجزائر ملاحقا حلم الطفولة. كان عرض فيلم الوصايا العشرة في الهواء الطلق قد أحيا بداخله نزعة غريبة لكنها لا تقاوم. لقد أخرج بعض الأشرطة الوثائقية للتلفزيون قبل أن يذهب إلى موسكو لدراسة السينما. الأول في الدفعة، عاد إلى الوطن ليجد نفسه يتكاسل. فالميزانيات المخصصة كانت تافهة مما دفعه إلى إنتاج فيلمين أو ثلاثة لا معنى لهما حول موضوع تذمر الشباب ومنها أبناء الفجر الذي

كشف عن موهبة نافع وليد. لقد تعلم أيضا الانتظار مثل باقي السينمائيين حتى يتكرم مقرّرو النظام بدعوته. رغم أنه لم يحصل يوما على الوسائل الموازية لمهاراته إلا أن رشيد كان دوما يمتلك العزاء في اكتشاف الكثير من المواهب الشابة في مجال التمثيل. البعض منهم تمكنوا من اجتياز الامتحانات الصعبة للمهنة وتسلق المنحدرات الوعرة التي تقود للمجد وصولا إلى فرنسا. هؤلاء لم يعودوا أبدا كي يقصّوا مغامراتهم الأخاذة. البعض الآخر أقل حظا، تحولوا إلى مدمنين أو سكيرين وهووا إلى أسفل سافلين حتى أنه أصبح من المستحيل الوصول إليهم ولو بلباس الغطس.

ترك رشيد دراق نفسه ينهار خلف مكتبه، أمسك بعلبة سجائر فارغة، رماها فوق كتفه بعيدا، غرس مرفقيه في لوح من الجلد فوق المكتب متكئا بسبابتيه على صدغيه. صلعته تبرز أكثر في وسط شعره المبعثر الطويل. لقد تقدمت به السن. تلفت حالته تماما مثل بذلته الوحيدة التي لوحدها قادرة على فضح جيل كامل من الفنانين تم إفقارهم كي يسهل استعبادهم.

– أنا لا أحب هذا، قال. لا أحبه أبدا.

كان يقصد الشارع.

كانت لنافع انشغالات أخرى :

– قد يكون عنوانه في أرشيفكم.

– أي عنوان ؟

– عنوان مراد بريك وإلا كيف تفعلون لاستدعائه ؟

تذكّر السينمائي موضوع الحوار. طلعت من فمه كلمة «آه» ثم قال :

– لم نكن بحاجة للقيام بذلك لأن مراد كان يتجول كل صباح قريبا من هنا. بمجرد ما يتقدم إلي أحدهم بسيناريو حتى يقفز أمامي دون أن يترك لي الوقت الكافي لقراءة العنوان.

– أريد أن يعيد إلي جواز سفري. همي ليس المال، أريد فقط استرجاع جواز سفري. من دونه، سيُحكم عليّ بالتعفن هنا.

نفخ رشيد دراق وجنتيه.

– ما يحز في نفسي أكثر هو أن أرى فنانا يغير وجهته بمائة وثمانين درجة. مراد بريك، محتال... ممثل موهوب ينحط للقيام بمثل هذه السلوكيات المشينة ؟ أنا خجول من أجله ومن أجل السينما. هذا عمل بشع، بشع...

– يبدو أنه تحايل على زملاء آخرين.

– أنا على علم بذلك...

– عليّ أن أجده، هذا ضروري.

– ما الذي تحاول أن تقوله لي الآن ؟ انفجر السينمائي بعد أن نفذ صبره. هل تريد أن تشعرني بالذنب أو أنك تعتقد أنني مخبر شرطة ؟ البلاد تترنح وأنت تأتي كي تزعجني بحكايتك كمغفل. لقد وقعت في فخ وفقط. لا تلومنّ إلا نفسك. أتعتقد أنك أنت الوحيد الذي ترغب في مد الأشرعة ؟ كلنا نرغب في الهروب من هنا. الكثير من الأشياء غير العادية تحدث في الخارج. الرئيس تمت إقالته. الدبابات تتلف إسفلت شوارعنا. أما الحرس فقد انتشروا في كل مكان وصولا إلى تحت أسرّتنا وصفارات الإنذار تمنع عنا غلق الأهداب ولو لدقيقة واحدة. و أنت، هل لأن رجلا حقيرا تلاعب بعقلك المعتوه، تأتي عندي بغتة معتقدا أنك مركز الكون... هذه المرة ليست إعادة لأكتوبر 88، مجرد صخب أطفال يؤسف له. الحرب هنا. مآلنا الهلاك... الآن، رجاء، اذهب. أريد أن أخلد لنفسي.

غادر نافع مكان رشيد دراق بغصة في حلقه. لم يصل بعد منتصف النهار ومع ذلك أحس بأنه يعبر الليل.

سيارتان تحترقان في إحدى الساحات، واللهب، تبعا لانتفاضاته، راح يلحس أغصان شجرة معطوبة. كانت الطريق عامرة بالأحجار المكدسة وزجاج القارورات المهشمة والقطع الحديدية وبقايا إطارات العجلات المحترقة. فوق الحيطان المخططة بفعل الدخان توجد ملصقات

انتخابية تمزقت إلى شرائط تحرك أجنحتها وتشبه في ذلك طيورا عالقة في فخ من طين.

يختبئ الناس في بيوتهم وقد سَبقتهم الأحداث بعد أن فاجأتهم.

في نهاية الشارع، مرت جماعة من الأطفال المشاغبين بسرعة جنونية وفي إثرها جماعة من رجال الشرطة.

بعيدا، تسمع طلقات نارية، غاضبة أحيانا وهاربة أحيانا أخرى. في بعض الأماكن غطت كثافة الدخان السماء وأدخلت المنازل في ظلمة خانقة. الشاحنات العسكرية تطن في كل الاتجاهات مهشمة كل الحواجز الواهية التي وضعت على عجل في الشارع. تجري عربات الإسعاف وراء بعضها البعض في جوقة تصم الآذان، معرجة وسط المتاريس ثم تختفي في ضباب المصيبة.

لحقت المظاهرة بنافع وهو بجانب إحدى الحدائق العمومية وجرّت به نحو حلبة تغلي غضبا. وضع أحدهم في يد نافع قضيبا حديديا وأشار إلى سيارة فخمة كانت كل أبوابها مشرعة.

– إنها بلا شك ملك لأحد أبناء الكلاب من البرجوازيين. لا تتحرج أبدا.

حدقتاه المحترقتان هما الدليل على كلامه. دون أن يفكر أبدا، هجم نافع على السيارة وراح يضرب بشدة وكأن

بداخلها مراد بريك... ثم بعدها، لا شيء. فقط نفق طويل من الضجيج والدخان والأعاصير والعتمة...

استفاق نافع في حالة يرثى لها ببذلة ممزقة وقميص ملطخ بالدماء وكلبشات في المعصمين. تم وضعه لمدة يومين داخل زنزانة مقززة مع خليط من الهمجيين المتهيجين الذين ما توقفوا أبدا وبصوت عال عن ترديد شعارات أصولية محاولين اقتلاع القضبان. في اليوم الأول صرخوا حتى بحت أصواتهم، وفي الليلة الأولى صلوا، ولم يبد عليهم التعب سوى في اليوم الموالي. عند العشية، طلب شرطي من نافع أن يتبعه. دفعه بعنف داخل مكتب يجلس بداخله أحد المفتشين الذي راح يحدد قوائم مستعينا بكومة بطاقات التعريف المكدسة بجانبه.

– هل أنت نافع وليد ؟

– نعم.

وضع قلمه وبدأ ينظر في وجهه جيدا.

– لقد أكد لي أحد الأصدقاء بأن لا علاقة لك بهؤلاء التيوس المعتوهين. أخذت على عاتقي تصديقه. هل تعتقد أنني على خطأ ؟

أشار إلى باب المخرج :

– أنت حر.

قبل أن يسرّحه، طرق بإصبعه على السجل :

– اسمك مدون هنا، أنا أحذرك. أنت مسجل لدى الشرطة وهذا سوف يعلق بمؤخرتكِ طول الوقت. بمعنى أنت أمام حكم موقوف التنفيذ، بمجرد خطأ سيسعدني كثيرا أن أرمي بك في السجن أنا شخصيا.

جمع نافع أغراضه الشخصية من على المنضدة وخرج إلى الشارع. كانت السماء مغشاة. شمس شهباء راحت تتسلل من خلف السحب دون أن تتمكن من مداعبة الشوارع.

نزل دحمان من إحدى السيارات. ارتجل ابتسامة للحظة ويده ما زالت تمسك بمقبض الباب.

– أنا لم أطلب منك شيئا، قال له نافع غاضبا من وجوده هناك.

– أبوك فَعل، نعم. لن يستطيع قلبه الصمود إذا ما واصلت في القيام بهذا العبث. متى تتعقل في النهاية ؟

– حين تتخلى عن ملاحقتي.

– يجب أن تثبت أولا بأنك تستطيع المشي مستقيما.

هدد نافع صديقه بمد الإصبع :

– احذر مما تشير إليه. أنا راشد بما فيه الكفاية كي أتدبر أموري لوحدي.

– لن تكون في حاجة إلى ذلك إذا ما كنت مستقيما.

– هذا ليس شأنك. نحن لسنا فوق باخرة واحدة. تذهب أنت في رحلة بحرية أما أنا فأبقى مع الشقاء.

– غلطة من هذه يا ترى ؟

– لن تستطيع أن تفهم يا دحمان. نحن لا نرى الأشياء من نفس الزاوية. أنت تعاشر أناس الطبقة العليا، تمتلك شقة راقية وحسابا بالبنك ولا أشجان لك. أنا لا آكل من هذا الطعام.

أحس دحمان بقلبه ينقبض. قال محاولا خلق توافق :

– هيا تعال نتجول قليلا.

ركب السيارة ومال على المقعد الذي بجانبه كي يفتح الباب.

استدار نافع على عقبيه وابتعد.

لم يكن دحمان في حاجة للركض خلفه. شيء ما يقول له بأن صديقه الدائم قد اختار طريقا مختلفا دون رجعة.

.12

كان مقهى «البهجة» يعج بالناس. ضوضاؤه تغطي على ضجيج الشارع. كل واحد يعلق على الأحداث بطريقته ولكن الجميع متفق على شرعيتها.

تناقش الأحياء الأخرى استياءها بنفس الغضب الهدّام. لم يطلب أحد منهم المغامرة. تواصلت المداهمات وعمليات النفي. تضاعف عدد المشادات. لم يكن أمام سكان القصبة سوى المقهى حين الانسحاب.

دخل الزاوش إلى مقهى البهجة في حالة يرثى لها. قميصه ممزق على الخاصرة، عكاز تحت الإبط، يظهر بفخر رأسه المعممة بكمادة مضحكة، موشحة ببقع من الدواء الأحمر.

يمارس الزاوش مهنة أبله القرية. ليس بسبب سذاجة عقله بل لأن المنصب كان شاغرا والزاوش لم يكن شحيحا. برجلين طويلتين نحيفتين، بنصف علوي ضيق، بظهر مقوس، صورة طائر من ذوات السيقان الطويلة، يشبه

مالك الحزين، لهذا سمي الزاوش. لا أحد يعرف سنه. قد يبلغ الأربعين أو أكثر بقليل، لا يهم. لا شيء يضعه في مأمن من استهزاء ومزاح الأطفال. لم يجد مكانا له بين القدامى فلجأ إلى صفوف الشبان حيث وجد ما يشبه الدفء الذي يحاول جاهدا المحافظة عليه بلعب دور المهرج بإضحاك المتفرجين. وضعه كمهرج منحه الحظوة إلى درجة أنه إذا تشجع وذهب ليخطب إحدى العوانس، أحست العائلات المطلوبة بالإهانة الشديدة. وجد الزاوش نفسه سجين العزوبية والسخرية ولذا يئس من الحصول على أدنى احترام ولا حتى استعادة كرامته. كان بالنسبة لأي إنسان عادي بمثابة مزحة مهولة لا غير. سيبعث الضحك حتى وإن كان يحتضر. هو يعرف جيدا أن لا أحد يصدق ما يفعل لذا اختار الزاوش السخرية كي يتمكن من التعايش مع الخزي.

مرر الزاوش عينيه الكرويتين على مجموعة الجالسين في الطاولة حوله ثم لوّح بالعكاز لجلب انتباههم.

– ماذا هناك أيضا ؟ سأله نادل المقهى. هل سقطت السماء على رأسك ؟

– لا أدري. كنت في أحياء الحراش. إنه انقلاب حقيقي هناك. هي انتفاضة حقيقية. تصفّر الحجارة من كل جانب. رجمنا شرطة التدخل السريع بالحجارة وعاملونا بالمثل أيضا. كنتُ جذلا. تمتعتُ كثيرا. عدوتُ مثل النار الماجنة وسط الدخان بحثا عن الحجارة لإلقائها على أولئك الدجاج.

فجأة، في زاوية من الشارع، لمحتُ حجرتين رائعتين، براقتين ومصقولتين تشبهان الهدية. رأيكم سديد، لم أتردد ثانية واحدة وانطلقت كي ألتقطهما... لكن تصوروا أيها الناس، لم تكونا حجرتين بل كانتا حذاء أحد رجال الشرطة. تلقيت سريعا ضربة صارمة على وجهي المحمر. قد تكون على حق أيها النادل. قد تكون سقطت على رأسي السماء لأنني رأيت سربا من النجوم يحوم حولي.

تعالت بعض الضحكات لكنها لم تلبث أن خمدت تحت صوت شخص شبيه راسبوتين متسمر أمام منضدة المقهى.

– نحن لسنا هنا داخل السيرك يا الزاوش.

– بيد أن هذا ما حدث لي فعلا.

– هذا غير مهم. انتبه، إننا في حرب. حماقاتك احتفظ بها لنفسك.

– نعم، قال النادل مزايدا وهو يمسح الكؤوس بمئزره القذر. لنمر الآن إلى الأشياء الجادة. هذه ليست غلطتنا. لقد دفعوا بنا حتى المنتهى. من الآن لا نضمن شيئا.

– مهما يكون فإن اللعبة قد تمت، بدأ يشرح شاوش الجامعي الذي يعتبر المادة الرمادية الأبرز في الحي. لقد بحثوا عن الاستعراض لإبهارنا لكنهم فشلوا. استعمالهم البليد للقوة هو دليل إصابتهم بالذعر.

– بالفعل، أضاف راسبوتين، لقد أضاعوا الوجهة ولن نساعدهم على الوقوف على أقدامهم من جديد. عما قريب سنشنقهم في الساحة حتى تسقط جلودهم إربا إربا ثم نرميهم في قنوات صرف المياه كي ننظفها من الفئران.

هذا كل ما يصل أذني نافع وليد طوال النهار. أحيانا تؤدي النقاشات إلى تجمعات في الشارع يضطر معها المتدخلون إلى الصعود فوق الطاولات كي يتمكنوا من التغلب على الضجيج.

القصبة تملكها الهذيان. عمت العاصفة زنقاتها وسكن الليل عقلها. تراجعت الشمس عن المجازفة ببعض الضوء داخل الحي وهي تعلم ألا شيء في استطاعته إعادة البهجة للمستقبل ما دامت القصبة في حداد على خلاصها.

أما نافع فإنه في حداد على مشاريعه. كانت هذه طريقته في التعاطف مع أشجان مدينته، في أن يكون متضامنا مع ذويه. لم يعد يبحث عن مراد بريك ولم يعد عرض البحر يهيج روحه. لقد وجد لنفسه علّة. ينهض في الصباح متأخرا. بعد المسجد يتحول إلى بطال ضائع، يجلس إلى طاولة في شرفة المقهى ويتفرج على الوقت وهو يمر.

وضع الزاوش العكاز تحت ذراعه وبالغ في جرّ قدمه نحو طاولة لم يجلس إليها أحد لقربها من المرحاض.

– ما دمنا في حرب، هل أستطيع الحصول على كأس قهوة مجانا ؟ أنا قادم من معركة انتهت لتوها.

– لن تحصل على شيء، رد النادل بحزم.

– أنا معطوب حرب ولي الحق في بعض النزوات.

– هذا ليس من اختصاص مقهانا.

– فليكن، تأفف الزاوش، غير مهم. لقد كدت أفقد ذاكرتي بعد تلقي الضربة على وجهي الأحمر لكن الله لا ينسى. (ثم توجه نحو أحد الزبائن بالقرب منه) : هل لديك قطعة سيجارة من أجل بطل، يا صديقي ؟

– أنا لست صديقك أيها التافه، رد عليه الجار. أنت لا تضحكني أبدا.

ظهر عمر زيري على الرصيف المقابل وأشار لنافع كي يلتحق به. وضع نافع وليد بعض القطع النقدية بجانب ما استهلكه وسارع ليلحق بذلك «الخيّر» الذي انحدر نحو أساسات الأبنية.

بعد أن وصلا بعيدا عن المتطفلين، توقفا تحت صف من الأقواس. مرر عمر زيري إصبعه تحت ياقة قميصه وعوّج رقبته للتأكد من أنهما وحيدين. تيقظه هذا الزائد عن الحد شوّش نافع.

– هل لديك مشاكل ؟

– أنا ؟ حفظني الله منها. ما الذي يجعلك تظن بوجود أشياء كهذه ؟ ثار بحساسية كبيرة.

– لا شيء، أنا في الاستماع...

– الإمام يونس يريد مقابلتك. سنلتقي بعد صلاة العشاء في مؤسستي.

قبِل نافع ولكنه لم يمنع رجفة خفيفة من أن تقفز في صدره.

– هل أستطيع معرفة لماذا ؟

– ألا تثق بنا ؟

– لا، ليس هذا أبدا. أردت فقط أن أعرف كي أحضّر نفسي.

حدّق فيه عمر للحظة بعينين معتمتين :

– التاسعة والنصف مساء بالضبط في مؤسستي.

– سأكون هناك.

– بالتأكيد. حسنا، الآن انتظِر قليلا حتى أبتعد كي تعود أدراجك.

كان الإمام يونس جالسا القرفصاء مثل ناسك فوق لحاف من ريش. به وقار عارم. حزن جسيم يربض فوق كتفيه. خلفه عمر زيري وقد خفض نظره وأدخل لحيته في رقبته وهو يفرط حبات سبحته. حتى نعتقد أنه نائما. وحده حسان –ذاك الذي ترك ذراعا في بيشاوار لما كان يحاول تعلم صناعة المتفجرات– يتفرس في الخمسة عشرة شخص من تائهي الحي الذين استدعاهم الإمام.

جلس نافع وليد في منتصف التجمع وهو منتبه لخشوع الشيخ. حوله، ينتظر الآخرون موضوع الاجتماع بأرجل متشابكة وأيادي عصبية مدت فوق الركبتين.

أخيرا رفع الإمام يونس رأسه وداعب الرعية بنظره. بنبرة رتيبة تفضح مللا عميقا بداخله، رتل سورة قرآنية ليفتتح الجلسة بقوله :

– كيف هو حال أبيك، يا علي ؟

– لا بأس، شيخ.

– بلغني أنه أدخل المستشفى خلال هذا الأسبوع.

– من أجل جلسة لغسيل الكلى، لم يعد يستطيع العيش من دونها.

– هذا مؤلم. وأنت يا نجيب، كيف حال جدتك ؟

– مثل العادة، شيخ. إنها متمسكة لكن من دون أن تؤمن بذلك حقا.

– إنها امرأة قديسة، سأدعو لها. وأنت يا فاروق، لقد قيل لي بأن زوجتك مريضة ؟

– إجهاض، يا شيخ. أنت تعلم كيف يمكن أن يعيش اثنا عشر نفرا في منزل ضيق. أنا عاطل عن العمل أما المعاش البائس الذي يحصل عليه والدي العجوز فهو يعقد الأشياء أكثر...

– أعلم ذلك وأنا متعاطف معك.

تنهد الإمام يونس. لفت مسحة من الحزن نظرته وغارت تعرجات جبهته أكثر فأكثر. قال:

– طلبنا منكم الحضور لأننا على علم بكل ما تعانونه على مدار اليوم... ما تجهلونه هو هذا الحظ الذي بين أيديكم، والذي يمكنكم من العودة إلى منازلكم كل مساء. تجلسون بالقرب من أسرّة مرضاكم وتساعدونهم على الصمود... في المقابل، هناك إخوة لنا، لم تمر عليهم أشهر قليلة كانوا يواسوننا بحضورهم وهم اليوم يقضون لياليهم في العذاب من أجل أحبتهم وينشغلون بهم حتى أثناء النوم. في مكان ما من الصحراء، إنهم مسجونون في مراكز الاعتقال، معزولون عن العالم الخارجي ومتروكون بين أيادي جلادين دنيئين. إنهم يتساءلون الآن إذا ما كنا قد نسيناهم. لقد تركوا في رقابنا أولياء فقراء وزوجات قلقات وأبناء عزّل... لم ننسهم وليس لدينا أدنى حق لننساهم... بمجرد بداية عمليات الإبعاد، أعدت الجبهة برنامجا للتكفل بهذه العائلات وأقيم صندوق لمساعدتها. مع الأسف فإن جمع الأموال وسخاء المتعاطفين لم يعودا كافيين. الفقر المدقع والتضخم المتزايد يعقّدان عملنا، لذا فإن المجلس قرر القيام بمبادرات جديدة لتجاوز الأزمة. بعض المحلات والمقاهي وحوانيت تجارية أخرى يمتلكها المنفيون، سيتم فتحها. لقد فكرنا فيكم من أجل تسييرها. لقد وقع اختيارنا

عليكم أولا بسبب استقامتكم، ثم لأنكم بحاجة إلى العمل لتلبية حاجات أسركم. الأخ عمر زيري سيشرح لكم ما ننتظره منكم والحصة التي ستكون لكم. ليس من الضروري تذكيركم كم نعوّل على حماسكم وصدقكم. عائلات غائبينا تواجه صعوبات جمة. زد على ذلك، لقد تأكدتم من هذا بأنفسكم. حان الوقت كي نتدارك الوضع الآن.

بعد ثلاثة أيام دعا عمر زيري نافع للجلوس بجانبه داخل السيارة.

– سيارة الأجرة هذه لك، نافع. لقد أخرجتها للتو من عند الميكانيكي بعد مراجعة شاملة لكل أجزائها. هي الآن في حالة جيدة. هذه هي الوثائق. كل شيء قانوني ولا تنقص وثيقة واحدة. تكاليف عمليات التصليح وثمن البنزين على عاتقنا. أجرك سوف يقتطع من المداخيل الأسبوعية. سنقفل الحساب كل يوم جمعة في منتصف النهار. إلى العمل الآن وكان الله شاهدا على ما نفعله.

اندفع نافع وليد روحا وجسدا في مهنته الجديدة. كان على علم بفائدتها. فهي تساهم في التكفل بالعائلات المتضررة من عمليات النفي الجماعي ولم يكن هذا بالأمر الهين. كان فخورا ومتأثرا في نفس الوقت، وكان مستعدا لتجاوز ما يحتمله ليكون في المستوى. بدأ بتوزيع وقته بدقة. راح يقدّر كم من الوقت قضاه في التكاسل في الوقت

الذي راح الكثير من الإخوة غير المبالين ينشطون على كل الجبهات، كان عليه استدراك نفسه. كان استيقظ في الساعة الخامسة صباحا. راح يهتم بسيارته، يلمّع هيكلها، يمسح الغبار عن المقاعد والأرضية. على الساعة السادسة يبدأ العمل. على الواحدة زوالا يستريح لمدة نصف ساعة كي يتغذى. يعود إلى البيت دوما في ساعة متأخرة من الليل.

في منتصف النهار من كل يوم جمعة، يذهب عند عمر زيري ليسلمه الحصيلة. يقيد هذا الأخير الحسابات في السجل، يوقع وصل الاستلام ثم يعطيه مستحقاته تبعا لما جمع من أموال.

– إنك تتدبر أمرك جيدا، شكره قائلا. إن الإمام يونس راض عما تجنيه. إذا ما كانت لديك مشاكل مالية فلا تتردد من إعلامي بها. لقد تلقينا بعض التعليمات في هذا المجال. من واجبنا الحفاظ على موظفينا من الغواية.

نافع لا يستسيغ أبدا هذا النوع من التلميح لكن عمر كان معروفا بالفظاظة. كان عليه أن يحتمله.

مرت الأشهر الأولى من دون عوائق. كانت الإيرادات تزيد. تمكن نافع من أن يبني لنفسه سمعة طيبة. في بعض الأحيان يحصل على مكافأة إضافية تأتي كي تزيد من دخله. إنه الآن يشتغل من أجل ضمان حياة كريمة للأسر المتضررة ولذا لا يرى مانعا في القيام بنفس الشيء بالنسبة لأسرته.

تجند أكثر فأكثر ولاحظ بكل فخر أن القدر العائلي أصبح في كل مرة يبعث روائح أشهى من ذي قبلَ.

في هذه الأثناء، تزوجت أختاه الكبرتين، الأولى مع تاجر والثانية مع معلّم. لأول مرة استفادت الدار من عملية توسيع. بدأت الرؤية تتحسن وتتوسع. بمناسبة حفل عاشوراء، أهدى نافع لوالديه سريرا من الحديد المسبوك. كان والده لا يزال مستاء منه لكن يحدث أن يجتمعا على العشاء. يصر الأب على أن يركز نظره على صحنه فقط لكن ذلك يعد بمثابة مكسب. في إحدى الأمسيات، وبتشجيع من أمه، قبل نافع فكرة تقبيل رأس والده. حافظ الأب على عبوسه لكنه لم يدفعه. حينما تحدث الابن عن مشروع إرساله إلى الحج مع أمه، تأفف الشيخ لحظة ثم أبدى قبوله بشارة من ذقنه وارتاحت كل العائلة لذلك. فهم نافع بأن أباه قد سامحه وأنه يستطيع أن يعوّل على بركاته من جديد.

أوقف نافع السيارة أمام منزل عمر زيري وضرب منبه السيارة مرتين كي يعلن وصوله. أطل عمر من النافذة. أشار بيده طالبا منه التريث.

كان الزاوش جالسا على الرصيف، بإصبع في الأنف وعين أغمضها شعاع الشمس.

– كم هو ثمن رحلة إلى الجنة دون رجوع ؟

– رصاصة في الرأس، أجابه نافع.

انفجر الزاوش ضحكا :

– المأساة هي أنني لا أملك حتى ثمنها.

وقف من مكانه وهو ينفض الغبار عن مؤخرته، اقترب من السيارة ووضع مرفقيه على بابها. أصابت رائحته النتنة السائق في العمق.

– أليس لديك بعض الدريهمات يا أخي ؟ لي ثقب تحت الضرس منذ الصباح.

قدم له نافع ورقة نقدية.

– أنت إنسان رائع، شكره الزاوش. ليس باطلا أن حباك الله بوجه سمح كهذا.

– كن ظريفا، أنا بانتظار أناس.

ثنى الزاوش بحنان الورقة النقدية وقابلها للشمس كي يتأكد من أنها غير مزورة قبل أن يعضها كما لو كانت قطعة من ذهب.

– تبدو ورقة حقيقية. في أحد الأيام أعطاني أحدهم صورة ملونة طبق الأصل لورقة مائة دينار. ضربني الطباخ وأراد تقديمي لقسم الشرطة. الآن آخذ كل حذري.

سعل عمر زيري وهو يفتح باب منزله. السعال هو طريقة لإخطار المارة بخروج النساء ولذا عليهم التنحي من الطريق. وضع الزاوش الورقة في الجيب وابتعد بحياء. زوجة عمر —شكلٌ إنساني تقريبي منقب بتشادور— ركبت فوق المقعد الخلفي وبين يديها ابنها الصغير. أغلق عمر الباب، حك رقبته وجلس في الأمام.

– أوصلنا إلى بورسعيد.

وافق نافع بإدارته للعداد.

– ما الذي تفعله ؟

– أنت ترى جيدا.

– هل تتعامل معي كزبون ؟

– متأسف. أنا أقود تاكسي وليس سيارتي الخاصة. أحاول أن ألبي حاجيات عائلات المرحلين...

– هل أنت جاد ؟

– بالتأكيد. يحدث أن أرافق أمي لكنني أشغّل العداد وأدفع ثمن الرحلة من جيبي.

أصبح لون عمر إلى القرمزي. مسح العرق بقميصه وقد اشتعل صدغاه نارا. أحس «بالإهانة» أمام زوجته، اجتر غضبه لبرهة ثم فجأة انفجر ضاحكا بغرابة وقال محاولا حفظ ماء الوجه :

– الحقيقة أنك تتميز بنزاهة عالية. من المؤكد أنني سأدفع. حاولتُ فقط أن أمتحنك.

دفع نافع عتلة تبديل السرعة وانطلق باتجاه باب الواد وهو متذمر.

راح الجمع يتسكع حول «الساعات الثلاثة». كانت الساعة الرابعة بعد الظهر. حرارة ملهبة تحرق أسافل الحي. يتقدم نافع بحذر بسبب المارة الذين عجت بهم الطريق... فجأة، دوي انفجار... ثم اثنان تردد صداهما بالشوارع الضيقة في سلسلة من البصاق المتكرر. مع الطلقة النارية الأولى، تجمد الحشد، مذهولا، موقفا بذلك كل الصخب. مع الطلقات الأخرى الموالية، تفرق الجمع من الساحة في مشهد يعجز عن الوصف. في أقل من دقيقة، لم يعد هناك شخص واحد بالقرب من «الساعات الثلاثة».

– لا تتوقف، أمره عمر، واصل التقدم.

واصل نافع تقدمه. بين سيارتين مركونتين، تمدد على الرصيف رجل وجهه نحو الأسفل ورأسه مهشمة.

– لا تنظر، صرختْ زوجة عمر في اتجاه ابنها.

– دعيه ينظر، قال الأب. يجب أن يتعلم كيف تحدث الأشياء في بلاده. هل رأيت يا موسى؟ هذا ما يحصل لأعداء الله.

نظر الطفل مطولا إلى الجثة الهامدة.

– أبي، إنه ينزف...

– حتى الكبار يجرحون أنفسهم حين يتدحرجون، قالتها الأم في محاولة يائسة. حين أقول لك احذر حين تجري في الشارع كي...

– ما الذي تقصّين عليه يا امرأة؟ هذا الحقير لم يتدحرج. أنظر جيدا يا ولدي. لقد أطلقوا عليه النار. إنه كافر، مارق، عاقبه المجاهدون. لقد قتلوه، هل تفهم؟ لقد أعدموه...

زاد نافع في السرعة كي يريح الطفل ويتجنب صياح عمر الذي قضى وقت الطريق في التهليل والهيجان.

الرجل الذي تم اغتياله دركي بزي مدني، ابن الحي. خبر الاعتداء أخرج الأحياء القصديرية المجاورة إلى الضوء. الشعب الضعيف لم يعرف كيف يتعامل معه. أسرع إلى المقاهي وراح يناقش الموضوع بحمية كبيرة.

لم يكن الشيوخ مرتاحين. شبح حرب 54 عاد كي يعكر خريف عمرهم. كانوا يحلمون بإنهاء أيامهم في أسرتهم، بين أهليهم، في السكينة والخشوع. جاء العنف مباغتا الجميع. طلقات الرصاص في الشارع، بمرأى ومسمع من الأمة؟ هل هي عودة عهد منظمة الجيش السري؟

عاد رعب البارحة مسرعا. استقر الخوف في أعماق الناس، ثقيلا على صدورهم مثل السندان.

الشبان غير آبهين بهذا لأنهم لم يتعرفوا على الثورة. يطالبون بحقهم في الكابوس.

في نفس الليلة سمعت طلقات رشاش في إحدى الطرق المسدودة. في الصباح، وفي طريقهم إلى المدرسة، ذهل الأطفال لرؤية جثة أحد الجنود مفككة. حين وصلت سيارة الإسعاف مع أواخر الصبيحة، تعرضت دورية الشرطة المرافقة لها لرشق بالرصاص من الجهتين. توقفت العربة في مكانها ثم اشتعلت. حلّقت رائحة الحريق طويلا في الشارع المسدود.

في الصفحات الأولى للجرائد، بعض الحروف البدئية المشئومة : ح. إ. م... الحركة الإسلامية المسلحة. في الحال، أسر بكاملها رمت بها رسائل التهديد في حالة من الاضطراب. خبأ الشيوخ كراسيهم الصغيرة، تخلوا عن جلسة «الجماعة»، عن الشاي على الرصيف، عن فضائل الفراغ، أما تلك النقاشات التي كانت تخصص لمطربي زمان فقد تحولت دون سابق إنذار إلى خطابات جنائزية.

بعد رسائل التهديد، دخل الهاتف المعركة بفضل براعته في تبليغ الوعيد. يرن في أوقات غير معقولة. الصوت المتكلم في الطرف الآخر يدفع الدم للتجمد : «ستموت يا عدو الله».

لم تكن كلمات واهية.

في كل صباح، يخرج رجال مقنعين من مخابئهم ويطلقون الرصاص من مسافات قصيرة جدا على الهدف المقصود. أحيانا، تأتي سكين الجزار كي تجهز على الجرحى بذبحهم. يتم شرح هذا العمل في المسجد : هي شعيرة بفضلها يتحول الميت إلى قربان والمأساة إلى طاعة.

قريبا ستمتلئ الليالي بالصليل، بعدو الخطوات، بالهذيان. سرايا الموت بدأت تحتل الدواوير، تضع النار في البارود، في المصانع، في مؤسسات الدولة وتسقط الجسور ومعها الطابوهات وتحدد الأراضي التي ليست ملكا لأحد وكذا «الأراضي المحررة». يتردد صدى الخُطب في الجبال وينحدر هادرا على القرى. تتطاير المناشير في رياح الجهاد. الهجمات المثيرة تتزاحم على الصفحات الأولى للجرائد اليومية. شوارع مدن الجزائر، البليدة، بوفاريك، الشلف، الأغواط، سيدي بلعباس، جيجل بدأت تتراجع أمام مسيرة الأفغانيين.

رفعت باب الواد جسرها المتحرك. حضر أبناؤها المنبوذون أمتعة السفر، البعض منهم لم يكن يمتلك حتى الشجاعة للعودة وأخذها. جيرانهم يحرسونهم، بإصبع على الزناد، بشفرة السكين في حالة تأهب. يتهاوى رجال الشرطة والعساكر والصحافيون والمثقفون كما الذباب،

الواحد تلو الآخر، في الصباح الباكر، وقد تم حصادهم ولم يتجاوزوا عتبات بيوتهم.

عويل الأمهات يغذي صياح صفارات الإنذار. عمليات الدفن تؤكد المأساة. يضرب الموت في كل مكان. كل يوم. كل ليلة. دون هدنة ودون شفقة. ستة من رجال الشرطة تمت محاصرتهم في منعطف أحد الشوارع. رشهم مهاجموهم بالرصاص ثم أخرجوهم بجلال من السيارة وضربوا أعناقهم على مرأى من العيون المطلة خلف زجاج النوافذ.

شيئا فشيئا دعمت القصبة دفاعاتها حتى أصبحت قلعة محرمة يتراجع إليها المجاهدون بعد مآثرهم. كانوا يعتبرون في بيتهم. نراهم، على رؤوسهم هالة غامضة وفي الحزام مسدس بارز عمدا، وهم يتبخترون في الأزقة، يجلسون على شرفات المقاهي يَعُدّون العمليات التي نفذوها، يحكون عن هلع ضحاياهم وهم يضحكون، مبتهجين لما آلت إليه الأشياء.

.13

في منتصف النهار من يوم الجمعة، وجد نافع وليد عمر زيري في خلفية دكانه. لم يكن وحيدا. كان هناك رجال وكانت النقاشات حامية. توقفتْ بمجرد أن أزاح الستارة. عمت الظلمة في الداخل رغم وجود كوة صغيرة في أعلى الحائط. تعرف نافع على حسان الأفغاني الذي انزوى متيبسا في برنسه الأسود وقد حزم رأسه بمنديل. بدا منشغلا. كان هناك أيضا الإمام يونس ويحيطه أبو مريم وإبراهيم الخليل، شخصان يثيران الرعب ينتميان إلى ميليشيات مسجد القبة. كنيتهما أصبحت أسطورة. لقد أسقطا لوحدهما ثلاثة من ضباط الجيش ومن بينهم عقيد، أربعة من رجال الشرطة، صحافيان وعالم. في وسط القاعة، جاث حمزة يوب، صباغ العمارات، على ركبتيه وهو يصب الشاي في جملة من الكؤوس المرتبة في شكل دائرة فوق صينية. حركاته مطبوعة بكثير من التذلل. كان يغرز ناظريه في الأرض في كل مرة يكون فيها في حضرة شخص مهم في الحركة. في

الجهة المقابلة، جلس ثلاثة رجال على مخدّات، لا يعرفهم نافع، راحوا يتفقدون سائق التاكسي بعمق.

– لم تخبرنا بأنك تنتظر زيارة يا أخ عمر، عبّر أحدهم عن سخطه، رجل في الخمسينيات من العمر بنظر حاد وثاقب.

– إنه من الموالين لنا، طمأنه عمر.

– أنا لا أشك في ذلك، لكن التعليمات واضحة.

– أستطيع المغادرة إذا ما أردتم ذلك، قال نافع.

– ليس ذلك ضروريا، تدخّل الإمام.

لم يكن الرجل الخمسيني مع هذه الفكرة لكنه لم يصر. هو رجل عريض الصدر، خارج الجبهة، كثيف الحاجبين. عيناه المسطرتين بالكحل تبعثان قوة وسلطة قادرتين على تشويش أي محاور من الوهلة الأولى. نحس بشيء شرس يطلع منه يذكّر بالحمم التي تتمخض داخل البركان.

الاثنان الآخران اختفى نصفهما في الظلمة، لهما لحية منتفشة تنزل فوق القميص. رأس حليقة، مدهونة، رمادية، تبدو محدبة الجوانب وكأنها نحتت في صخر الصوان، ذاك ما يمنحهم مظهرا صامتا ومقيتا.

– مهما يكون فلا خيار أمامنا، قال إبراهيم الخليل الذي كان قد قطع كلامه بدخول نافع عليهم. أنا متفق مع الشيخ نوح.

– إننا نفعل ما نستطيعه، غمغم عمر وهو ينزف عرقا. أؤكد لكم أننا نبذل ما في وسعنا.

– الأمير جعفر يرى بأن هذا غير كاف، قال الرجل الخمسيني. لا نستطيع أن نعوّل على كمشة من المتطوعين لبلوغ النصر.

أسرع عمر زيري ليحضر دفترا.

– يمكنكم التأكد بأنفسكم : لقد جندنا حتى اليوم مائة وثلاثة وستين عنصرا سيتوجهون إلى الجبل.

– مائة وثلاثة وستين شخص فقط في مدينة مثل الجزائر، هذا خزي كبير، صاح الخمسيني. كل ليلة في بوفاريك يتم إرسال ما يقارب العشرين من المجندين الجدد إلى مراكز التدريب. (التفت نحو الإمام يونس)، الحقيقة أيها الشيخ هي أن القائمين بوظيفة التجنيد ليسوا في المستوى، حتى أنهم ربما قليلي التحفيز. هذا خطير. إذا كانوا ينتظرون الناس كي يأتوا إليهم كما يذهبون إلى المكاتب فإنهم على خطأ. يجب التوجه نحو الشعب، لتوعيته وتنويره ولم لا رجّه. الكثير من الشبان نفذ صبرهم ولا يطلبون سوى الالتحاق بنا. يكفي تجنيدهم. في البليدة، شارع واحد يقدم لنا من العناصر أكثر مما يقدمه حي بلكور بأكمله. لماذا ؟... لأننا في البليدة نذهب مباشرة نحو الهدف ولا ندور حول الموضوع. هذا هو سبب نجاحنا هناك. نحن لا نكتفي بتزيين

بيانات الجرد، وتحضير القوائم والإعتقاد أننا أكملنا المهمة. الصلاة ليست هي كل الإيمان يا إخوتي. يصبح القميص مجرد لباس كرنفال إذا ما لم يكن صاحبه أهلا له. «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» صدق الله العظيم.

– أعتقد أن هذا مجرد سوء تفاهم، حاول الإمام يونس تهدئة الأعصاب. المعطيات ليست هي نفسها في الجبال كما هي في المدن. لكل ناحية خصوصياتها. أعتقد أن هذا يدفع على الارتياح. فقد حققنا جملة من الأشياء في ظرف سنة. المدن خجولة مقارنة مع القرى الصغيرة. التكتم هنا أسهل وهذا أحسن، لكن هذا لا يعني أن ما نقوم به هو أمر هيّن. إننا نعمل للمحافظة على شبكاتنا ومقاتلينا وأسرهم. الأمر يختلف عن الجبال حيث مناطق التراجع موجودة بلا حساب والغابات في متناول اليد. في المدينة، نحن مجبرون على القيام بالعمليات في شارع ما والاختفاء في شارع مجاور. ثم أننا محاطون بأناس ليسوا كلهم مسرورين لوجودنا بالقرب منهم. زد على ذلك، تنقصنا الأسلحة. السلاح الحربي الذي نسترجعه خلال عملياتنا يتم إرساله بشكل منظم إلى الجبل. جماعة أبي مريم لا تملك بحوزتها سوى قطعة سلاح متطورة واحدة من أجل ثلاثة مقاتلين...

– هذه ليست القضية، ألحّ الخمسيني. لدينا المال الضروري لتجاوز مشكلة معدات الحرب. لدينا قواعد

خلفية في أوروبا وعلى حدودنا الشرقية والغربية. ما يشغل بالنا اليوم هو التجنيد. الأمير جعفر صريح في هذا الأمر. علينا أن نقحم كل مناضلي الجبهة من دون استثناء. على الكل حمل السلاح. إذا ما وجد من يتردد في ذلك يجب إعدامه بكل بساطة. من يرفض إتباعنا يعد خائنا ويستحق نفس عقاب الطاغوت.

– أنا أوافقك تماما يا شيخ نوح، صدّق إبراهيم الخليل الكلام بحزم. لقد أقسمنا. لن نسمح بأي حنث. إننا نناضل من أجل الفيس ونموت من أجل الفيس. على كل مناضلينا الالتحاق بالجبل، من دون استثناء.

– طيّب. قال الخمسيني حين وقف ويبدو عليه الاستياء من حضور نافع، سنذهب الآن. شكرا على حسن الضيافة يا شيخ يونس. أمامنا طريق طويل ووقت قصير. أتمنى أن أراك عن قريب. أما بخصوص طلبك فسأبلغه للأمير متى استطعت ذلك.

جمع الرجلان الآخران ذيلي قميصيهما وقاما بدورهما. مرر الأصغر تحت حزامه خلسة بندقية مقطوعة الماسورة، حيا الإمام وخرج كي يلعب دور الكشاف.

أغلق عمر زيري الباب خلف ضيوفه وعاد إلى خلفية الحانوت وهو يلوح بيده على مستوى ذقنه.

– إنه صعب الإقناع هذا الشيخ نوح. هذه مجرد زيارة مجاملة لكنها كانت أبشع من محاكمة.

– نستحق أن نُعدَم رمياً بالرصاص، صرح إبراهيم الخليل.

– تكلم عن نفسك. نحن لم نخطئ ولم نغش.

– أنا أرى أننا لم نحترم التزاماتنا بسبب التهاون.

تجاهله عمر زيري وراح يرتب بعض الأغراض داخل الخزانة. رتب سجلاته داخل أحد الأدراج، كدّس الكتب كي يخفيها ثم وضع القفل. تفرج عليه إبراهيم الخليل يقوم بتلك الأشياء وبه رغبة عارمة للانقضاض عليه.

– لا بأس، لنهدأ. قال أبو مريم.

– أنا هادئ، قال عمر بهدف إثارة شاب الميليشيات.

حكّ إبراهيم فكيه بعضهما ببعض ونبض منخراه. صرخَ :

– كنت في الجبل. رأيت كيف تسير الأشياء هناك. بالهراوة. يحرقون رأسك بسبب سيجارة. النتيجة : تشتعل النار. قبل الصيف، سيتم تحرير الريف كاملا. هناك، لا ينتظر أحدهم التعليمات. يقوم الأمراء ببعض المبادرات، وما ينقصنا هنا بالضبط هي المبادرات. يجب أن نمنح الأولوية للتجنيد. هذا ضروري. ما الذي يفعله كل هؤلاء العاطلين الذين يتعفنون في أسفل الحيطان طول النهار ؟ نحتاج إليهم لإنشاء خلايا في الأحياء، لإعادة بناء جماعاتنا المنحلة، لتشكيل فرق جديدة ونفجر هذا المجتمع الفاسد...

فجأة توجه نحو نافع متفرسا إياه :

– ما رأيك أنت ؟

– أنا أحضر الحصيلة الأسبوعية من المال.

– أنا ما حدثتك عن هذا. أنا أطلب منك رأيك في...

– أنا لست عاطلا، قاطعه نافع مقررا ألا ينبهر بأحد.

– ما الذي تقصده ؟

– أظن أن كل شيء واضح.

نظر الرجلان كل منهما إلى الآخر مثل كلبين من خزف، قربهما من بعضهما البعض جعل نفسيهما يختلطان. كان وجه نافع رائقا أما وجه شاب الميليشيات فقد ارتعد غيظا.

– إبراهيم، دع عنك هذا، توسله أبو مريم. أنت مرهق في هذه الآونة الأخيرة. يجب أن تحافظ على صحتك.

– أنا لم أفهم تلميحاته ولن أدعه يغادر حتى يشرحها لنا.

إبراهيم الخليل كان أصلا مهابا في القبة بسبب مزاجه الصعب. وُضع مرات عديدة في مراكز إعادة تربية الجانحين. بدون تعليم وبدون عمل، ترك نفسه بين أيدي الإخوان المسلمين وكان من بين أوائل المتطوعين، مع أبي مريم، الذين التحقوا بمجموعة الدعوة المتوجهين إلى أفغانستان. حين عاد، فكر في وضع تجربته القتالية في خدمة التيار الأصولي. لم تمكنه الهجمات التي قام بها ولا حماسه من بلوغ منصب

أمير. كان يطمح في قيادة مجموعة للطواف في الجبال لكنهم عينوه في وظيفة مساعد مجنِّد مثل عاطل فظ. منذ ذلك الحين تعكر مزاجه وبات مزعجا.

– هل تعتقد بأن دخلك يكفي ؟ قالها وقد فقد صوابه. لماذا لا تلتحق بالجبل ؟ أنت نشيط، جاهز وبصحة جيدة. ممّ أنت خائف ؟ هل أضعت الإيمان ؟

– العنف ليس هو كل شيء.

– عجبا، عجبا، هذا رافض للخدمة. مع ذلك أنت الذي كنت تقول منذ مدة قصيرة بأنك على استعداد للموت من أجل القضية.

– الموت نعم ولكن ليس القتل.

– ماذا ؟ أعدْها عليّ فأنا لم أستوعبها. من أين طلعت أنت ؟ الموت نعم، القتل لا. ما هذه الصيغة ؟ بهذه الطريقة تلقي بنفسك من أعلى جرف أو تحت عجلات شاحنة صارخا : «يحيا الفيس» وتعتقد أنك تضحي بنفسك من أجل الحركة. نحن لسنا بحاجة إلى جثتك، نافع وليد، بل بحاجة إلى ما تسدده من ضربات. الاستعداد للموت في قاموس الجهاد يعني الذهاب إلى أقصى الذات، القتال إلى آخر خرطوشة، لأطول زمن ممكن لتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة. هذه هي الطريقة الوحيدة التي لنا الحق أن نموت عليها. العنف مرحلة ضرورية. أنت لا تستطيع تعقيل

الطواغيت باستعمال الفقاعات الهوائية. أذكّرك بأننا نفقد يوميا إخوانا لنا، وهناك آخرون، في هذه اللحظة التي أكلمك فيها، يصيحون تحت التعذيب، وآخرون يحتضرون في مراكز الاعتقال، وآخرون أيضا لا يطلبون سوى سكينة صغيرة كي يقاتلوا بالسيف أولئك المارقين.

– كفى، قال الإمام يونس بهدوء. نافع معه حق : العنف ليس هو كل شيء. بقدر ما نحن بحاجة إلى مجاهدين نحن بحاجة إلى مساعدين لهم. تتطلب الحرب وضع عشرة أشخاص على الأقل وراء كل مقاتل لإسناده.

دون أن ينحي نظره عن نافع، تراجع إبراهيم الخليل خطوة، بسحنة رمادية وقد أزبد اللعاب في طرفي فمه بكثافة، وبطنين في تنفسه. دار حول نفسه وتوجه حانقا نحو الباب. رفع الستارة ثم استدار نحو سائق التاكسي :

– في يوم من الأيام حل بي ألم كبير بالضرس وأعتقد ألا وجود لأبشع من ألم الضرس. في الوقت الذي كنت فيه أتلوى من الألم، كدت للحظة أن ألقي بنفسي من النافذة وجاءتني الفكرة التالية : لماذا يوقع الله بنا ألما بشعا كهذا جراء ضرس مسوّس ؟ ما هو الرمز الذي علينا أن نستشفه من هذا وما هي النبوءة ؟ سوس حقير مقابل الإنسان، هذا الصنيع الرائع، الشبه كامل، ينهار باحتشام أقل من الحيوان. أليس هذا بشيء مدهش ؟... إذن، لماذا يا نافع وليد ؟ إذا

كان باستطاعتك الإجابة على هذا السؤال سأتخلى بفرح وسرور عن العنف.

ترك الستارة تسقط من خلفه.

حلّ صمت مقلق. لجأ عمر زيري إلى تأمل بطنه. أبو مريم حرك رأسه مغلوبا. استرجع الإمام يونس سبحته وغرس نفسه في ركن الحائط جارا إليه جزءا من العتمة.

حسان الأفغاني الذي لم يتفوه ببنت شفة منذ البداية والذي ليس من عادته الكلام، حط نظره الغامض على نافع. ينسحب بعناد ولا يتدخل أبدا في النقاشات. أما وجهه الشمعي مثل قناع الأموات لا يدع شيئا يخرج من أفكاره. حين تشتد النبرات شيئا فشيئا مع ظهور الاختلافات، يكتفي هو بالإصغاء إلى هؤلاء وأولئك وكأن لا شيء يعنيه. جموده وصمته يضيفان إلى عجزه لمسة مخيبة تجعل حضوره مزعجا كحضور المتطفلين. لقد دوخ سائق التاكسي حين طلب منه بصوت طالع من القبور :

– هل نستطيع أن نعوّل عليك خارج الحصيلة ؟

رد نافع دون مماطلة :

– بالتأكيد.

لم تمر فترة طويلة حتى تم طلب نافع للخدمة.

في البداية، حملوه مهام «عادية». كان ينقل العابرين من حي إلى آخر، ينتظر «الضيوف» في محطة القطار أو

في المطار، أو ينقل من حين لآخر وثائق مختلفة : بيانات تحرض الشباب على رفض الانصياع لأوامر أداء الخدمة الوطنية والتجار على رفض دفع الإتاوات الضريبية، مناشير تحرّم ممارسة البدع، مذكرات تروي العمليات العسكرية للمجاهدين، الخ. في هذه الخرجات يرسلون معه الزاوش كنائب، هو الذي برعونته وأدائه الهزلي يؤدي إلى إلهاء مراكز مراقبة الطرقات. شيئا فشيئا تمكن نافع بفضل الرفقة المضحكة «لقائد المركبة» أن يتجاوز الانزعاج الذي تسببه رؤية الحواجز. تعلم كيف يحافظ على برودة أعصابه ويرسم في ذهنه خارطة للمعدات الأمنية الموزعة على محاور المدينة لاستغلال نقاط الضعف فيها.

ثم بين اثنتين من رحلات «العبور» يتم إرساله للقيام بعملية جمع التبرعات. يكون أحيانا مجبرا على التنقل إلى ضيعات معزولة في ساعات حظر التجوال. وضب لحام أصولي في صندوق سيارته الخلفي فتحة يخفي تحتها الطرود والمنشفات والعلب وأكياسا كتانية محكمة الرباط تحتوي أجساما معدنية —من المحتمل أن تكون أسلحة حربية مفككة. هذا لا يضايقه تماما. فالثقة التي يضعونها فيه والاحترام الذي يتلقاه يمنعانه من ذلك. من جهة أخرى فقد بدأ يجد متعة في القشعريرات «اللذيذة» للمقاومة السرية، في المخاطر، في الخوف الذي ينهشه في الوقت الذي يداعب هو الخطر، في الإحساس بالراحة القريبة من النشوة، والذي كما نفَسٍ من العفيون، يغمره بأحاسيس قوية بعد كل مهمة.

لأول مرة في حياته بدأ يكتشف ذاته ويتعرف على قدراته وأهميته و دوره كإنسان، كذات بشرية.

أخيرا، إنه موجود.

يُعتد به.

كان فخورا، مقتنعا بأنه يساهم في بناء مشروع هائل، عادل، ضروري. هذا الاعتقاد غدا يقينا في اليوم الذي أوصل زبائن عاديين إلى المطار وفي طريق العودة تعرض للتعنيف من قبل رجال الدرك. بعد أن جرح في جسده وكرامته قرر أن يطلب سلاحا. بعد تفكير عميق، رأى بأنه من التعقل ألا ينخرط في طريق لا عودة منه بمجرد غضب عابر. ليس لأنه يشمئز من ذلك بل لأنه أحس نفسه غير مستعد بعد. تصلب الجثة لم يعد يؤثر فيه كما في السابق. شاهد الكثير على الطرقات، بعضها مشوه والبعض الآخر -جثث المجاهدين- مثقوب بالرصاص ومعروض أمام أنظار المارة، مع ذلك لم يكف عن الخشية من نتائج فعل هو غير متمسك به فعلا ولكنه لا يستبعد في حالة الضرورة القصوى.

إن ذعر زمان الذي ولد في غابة باينام في ليلة عاصفة وهذيان ما عاد يعذبه أبدا. شهد عمليتيْ إعدام في جادة الطريق دون أن يستسلم للهلع. في كل يوم تستفيق القبة متعثرة في دم أحد المارقين. أحيانا، تصطف الرؤوس الآدمية

في صف واحد على حافة درابزين أو في حديقة عمومية وتجتذب الأطفال الذين صعقوا في البداية لكنهم بدأوا يدنون كي يرونها عن قرب. تدريجيا تغلّب فضولهم على هلعهم.

لم يكن نافع طفلا.

كان «مسبّلا»، عضوا فعالا في مجهود الحرب، بالتأكيد في الخفاء وهو في مرحلة الدور الثانوي لكنه حازم على تقديم ما يستطيعه لتخليص البلاد من دكتاتورية البعض وجشع البعض الآخر حتى لا يتعرض شخص للاستهزاء من طرف الدرك وحتى تعاد الكرامة إلى الرجال نهائيا.

في أحد الأيام أعلمه أبو مريم بمشروع «حساس». تخطط جماعته لمهاجمة مؤسسة عمومية توجد في ضاحية أهملتها قوات الأمن.

– سيتم توزيع أجر العمال يوم الأربعاء، شرح له أبو مريم. أمين الصندوق من جهتنا وقد قدّم لنا كل المعلومات الضرورية. خطتنا مهيأة عن آخرها حتى أدق التفاصيل. لن يتم إطلاق رصاصة واحدة. نحن بحاجة فقط إلى سائق ماهر. أنت بارع في القيادة إضافة إلى أنك تعرف كل الطرق الصغيرة.

وافق نافع بشرط ألا يعرقل نفسه بحمل أي سلاح. دار الهجوم كما خُطط له، دون مواجهات. تم رمي المحصلة

المالية في علبة سيارة مسروقة قادها نافع مغادرا الضاحية قبل أن يعطى الإنذار. كان يوما عظيما بالنسبة له، ومن شدة الإثارة طلبَ إراديا المشاركة في اقتحامين مشابهين قبل أن يتعرض للملاحقة من طرف دورية شرطة كانت تحوم بالناحية.

– توجّه نحو قطعة الأرض الخالية، أمره أبو مريم وهو ينزع قناعه. يجب التخلص منهم قبل أن تأتي الإمدادات.

عبر نافع الحي كالإعصار، أخذ طريقا كثير الحصى وسط البساتين يفضي إلى المفرغة العمومية.

– هنا، توقف، توقف!

أطاع نافع الأمر ببراعة حتى أن سيارة الشرطة كادت أن تصطدم به. وجد السائق الوقت الكافي لتعديل مقوده. كان أبو مريم على الطريق. أطلق وابلا من الرصاص من رشاشه على الدورية التي كانت قريبة جدا. انتفض رجال الشرطة الثلاث تحت وقع الرصاص كما الدمى. اختلطت دماؤهم مع حطام الزجاج. واصلت السيارة انحرافها، بمنبه يرعد، وسقطت على مقدمتها في الخندق. سارع أبو مريم وحمزة يوب، صباغ العمارات، إلى الإجهاز على الجرحى وتجريدهم من أسلحتهم وأجهزة الراديو وعادا مسرعين.

– انطلق، انطلق...

رجع نافع إلى الخلف على أعقابه حتى وصل إلى البساتين ثم استدار في ممر محفوف بأشجار الزيتون وبسرعة جنونية التحق بالطريق الرئيسي وضاع في زحام المرور.

حينما تمدد على فراشه تلك الليلة، خاف نافع أن يفضحه كابوس ما برغم أنه كان يرتاح كما يفعل نجار بعد يوم من العناء. نوم العادلين.

تفقد عمر زيري ساعته. كان يتفقدها كل دقيقة. لم يكن مرتاحا في معطف القطيفة وهو ينظر دون توقف يمنة ويسرة. كان البستان خاليا، ينيره ضوء فاتر يصدر من هلال رفيع. خط من السحب الشاحبة تذوي ما بين النجوم. فاتت الساعة التاسعة مساء وبدأ الجليد يسقط. في البعد، على الطريق، راحت أضواء السيارات ترسم نقاطا وضاءة على ستار الليل الأسود. انمحى الريف تدريجيا في الظلمة التي يعبرها نباح الكلاب كما الأرواح.

جلس نافع في السيارة المتخفية تحت شجرة البرتقال وهو يطقطق فوق المقود. بجانبه يوجد الزاوش محدقا في الجسد الدامس لمزرعة في طرف الممر. لا وجود لضوء واحد في النوافذ. يهتز الصمت بفعل أصوات الصرير مشددا من تهيجها. في المقعد الخلفي يوجد عمر زيري وهو يتصبب عرقا. ليس من عادته مغادرة جحره، مفضلا تكليف

الآخرين بمختلف المهمات التي تسند إليه. في هذه المرة كان الأمير جعفر جازما. العملية متعلقة بمبالغ مالية كبيرة ويجب إبعاد مسألة تعيين أيا كان لاستعادتها.

من عمق البساتين بدت شاحنة صغيرة، بأضواء مطفأة، وهي تهتز فوق الحفر، تسلقت المنحدر والتحقت بالطريق الترابي الموصول بالمزرعة. أشعل نافع مرتين مصباح سقف السيارة. في الخلف، تحرك عمر بتثاقل كي يخرج مسدسا عالقا بحزام سرواله.

وجهت الشاحنة مقدمتها بفضل الإشارتين الضوئيتين وتقدمت ببطء. نزل منها رجل وفوق ذراعه كيس كبير وركب بجانب عمر.

- انفجرت عجلة شاحنتي، قال معتذرا عن التأخر.

فتح الكيس وأخرج علبة ضخمة.

- هذا مبلغ مائتي مليون، إنه مساهمتي المتواضعة. إنه شرف لي كي أخدم القضية.

الرجل من أرباب الصناعة الناجحين في المنطقة، يقدرونه بسبب سخائه ودعمه غير المشروط المقدم للحركة الإسلامية المسلحة. لقد التقى به نافع من قبل في واحدة من عمليات جمع الأموال، لكن هذه المرة الأولى التي يسمع فيها برقم مهول كهذا. تفقده في المرآة العاكسة، ولم ير غير وجه مجعد بنظر مبهم.

رجح عمر الطرد بيده قبل أن يضعه فوق أرضية السيارة.

– لقد حسبتهم، طمأنه رجل الصناعة.

– لقد حدثني الأمير عن المشكل الذي تواجهه مع بعض المنافسين وكلفني بحله.

– نعم بحق، تحمس رجل الصناعة وهو يخرج طردا آخر من كيسه. بالداخل مبلغ مائتا مليون أخرى، هي لتخليصي من أحد المنافسين. هو لا يزعجني تجاريا فحسب بل إنه معادٍ للقضية التي ندافع عنها.

– هل تريد أن ننفذ فيه الإعدام ؟

– ليس بالضرورة. أريد فوق كل شيء أن يتم إضرام النار في مصنعيه. هكذا أستطيع مضاعفة إنتاجي وأضمن دعما أهم للجهاد. هذا مخطط وعنوانا الموقعين. الحراسة ضعيفة جدا وأقرب مركز للجيش يوجد على بعد كيلومترات من هنا. أقترح عليكم حرقهما مع بعض في نفس الليلة. كل ما كان ذلك عاجلا كان أفضل.

– من أجل مائتي مليون سأحرق كل مدينة الجزائر وأرسلها في الفضاء، صاح الزاوش.

– أغلق فمك، صاح فيه عمر.

ضرب الزاوش بعنف فوق لوحة القيادة وأدخل رقبته معبرا عن المقاطعة. لم ترق ردة فعلته للرجل الصناعي الذي

راح يتفقد محدثيه واحدا واحدا، وطلب الإذن بالانسحاب ثم التحق بشاحنته.

– ما الذي دهاك حتى تضرب السيارة بهذه الطريقة ؟ صاح عمر.

التفت الزاوش مرة واحدة بعينين جاحظتين ومنخرين منفتحين.

– نعم، أضربها وبعد ؟

– أنا أمنعك من التحدث معي بهذه النبرة.

– ذاك سيزعجني.

لم يصدق عمر ما يحدث. أن يتعرض للسخرية من طرف شخص ساذج هو الذي كان يثير الرعب ويفرض الاحترام لدى أشهر أشرار القصبة. قفز فوق المقعد الموجود أمامه، أمسك الزاوش من يافطة بدلته ورجه. دفعه الزاوش بيد قوية وعنيدة.

– لا تلمسني.

– هل هذه مزحة ؟

– هل أبدو ممازحا ؟

لم يتدخل نافع. منذ أن بدأ عمر يعتبر نفسه مبعثا للرعب، لم يحزن لرؤيته يطاح به من طرف آخر الأواخر.

– أوقف هذا التهريج، الزاوش ! هدّد عمر.

– لن أتوقف حتى تتعلم كيف تناديني باسمي الحقيقي. قضيت حياتي كاملة في تحمل بلاهاتكم. بمجرد أن أرفع صوتي للمرة الأولى تحسون بالتشنج. يا للهول، دجاجة تتكلم. أنا لست بطائر.

– هذا غير ممكن، أنا أهذي...

– أما أنا فلا. أنا أقول الآن : «كفى !»... «يكفي !». انتهى العرض.

علت وجه الزاوش تكشيرات مقلقة. يداه تقطعان غطاء المقاعد، تضربان فوقها، تلوّحان بالهيجان. كان كل جسده يرتفع مع صدره. أغرق داخل السيارة بتنفسه النتن، كأنه كان ينتظر منذ الأزل اللحظة التي يتقيأ فيها آلاف الآلام التي غذّت حياته.

نزل من السيارة وأغلق الباب بقوة. خطا بعض الخطوات ثم عاد ليرش بإصبع متهِّم عمر زيري المذهول بحق :

– الشعب أيضا استهزؤوا به مثل البهيمة. منذ 62 وهم يسخرون من عقله. اليوم قال : «كفى !»، مثلي تماما. لقد أقسم أن يرد الضربة للضربة، مثلي تماما. إني أعرض نفسي للخطر مثلكم تماما ولذا أطالب بعدم نسيان هذا. أنا لست القط الذي يتعرض للدهس بجانب الرصيف. ليس لي سوى حياة واحدة. هل تفهمني يا عمر زيري ؟... أنا مهرج لست

.بمجنون. أعلم كل ما يدور حولي. تؤلمني الأذية حتى وإن تظاهرت بتجاهلها. انتبه، المزحة الأحسن هي دائما الأقصر. .بمرور الوقت تصبح الأشياء مزعّجة. من اليوم فصاعدا انتهى المزاح. أخفي أنف المهرج وأفكك خيمة السيرك. أشطب كنيتي وأطلب كنية حربية.

ابتعد باتجاه المزرعة ثم عاد أدراجه كي يصرخ في وجه عمر.

– سأثبت لك قدراتي عن قريب، يا أخ زيري.

واختفى في وسط الأشجار.

– هذا جيد ! بلع عمر ريقه وهو يمسح فمه في ساعده.

تم القضاء على الزاوش عشية أحد الأعياد الوطنية في الوقت الذي كان يحاول .بمبادرة منه التسلل داخل ثكنة عسكرية. بالقصبة جاءت النقمة كي تحل محل الوجوم. «لم يكن ليؤذي ذبابة، قال الإمام يونس وقد خرب الارتجاف حلقه. إنسان ساذج، روح بريئة أزهقت بدون سبب من طرف طاغوت متحمس، بليد وغير واع...». هكذا فإن الزاوش، الذي كان في حياته يمثل الانحطاط الإنساني تم إعلاؤه إلى مصاف الشهداء واستحق جنازة باهرة. رافقه المئات إلى مثواه الأخير، وعلى رأس المسيرة أعيان باب الواد والقصبة برقاب منحنية لإخفاء دمعة حرون. مرت أيام كثيرة ولم يكن الحديث سوى عن «تلك الجريمة التي لا مبرر لها،

الجبانة، الشنيعة» التي ألحقت الخزي بأمة ترى أن المجنون أقرب إلى الله من أي شجاع من البشر.

ذاك اليوم وجد إبراهيم الخليل نفسه محاطا بما لا يقل عن ثلاثين من المجندين الجدد، هو الذي كان يأمل في الحصول على عشرة فقط لاستعادة احترام شركائه.

من جهته استغل أبو مريم الحزن العام للتخلص من سيد علي الشاعر الذي لم يكف الأئمة عن تقديمه في صورة شيطان والذي يطالب الأمير شخصيا بإحضار رأسه. تمت مهاجمته باكرا وهو في بيته. كان الشاعر بانتظار قاتليه لأنه أخطر بمخططهم. لقد رفض الهروب. بعث بصاحبته إلى مكان ما كي يواجه قدره وحيدا.

قبل أن يموت، طلب سيد علي أن يحرق بالنار.

– لماذا ؟ أراد أبو مريم الاستفسار.

– كي أضيئ قليلا ليلكم البهيم.

.14

يتأوه الشيخ في غرفة الاستقبال. لا ذهاب الطبيب وإيابه ولا الأدوية سكنت آلامه. سكن المرض أعماقه من دون شفقة وراح يقضمه ليفة وراء أخرى بطريقة منظمة وماكرة وكأنه يود أخذه إربا إربا. حتى هو ما عاد يقاوم. نحيفا، مرتجفا، لم يعد يجمع ما بقي له من قوة إلا ليتوسل الله أن يخفف عليه سكرات الموت. رأسه مغطاة بمنشفة أسفنجية وتقلصت مثل سفرجلة ذابلة. بين أنة وأخرى تحمرّ عيناه ممتلئتين بالرمص في حين أن جسمه المترهل الزنخ راح يرتخي تحت الأغطية.

تميل الأم من شدة النعاس بجانب سريره وهي تغطس في الآنية مرات متوالية عديدة الخرقة التي تستعملها لتبريده.

ما عاد نافع يحتمل التفرج على بؤسهم وكله عجز. مهما حاول غلق باب غرفته كان ضجيج قاعة الاستقبال يدنس نومه كل ليلة.

أراد مقاومة الهزائم، فجلس في وسط أخواته حول طاولة صغيرة، أزاح جانبا بيده قطع شطائر الخبز المطلية بالزبدة

التي تشكل فطور الصباح وطلب من أميرة أن تملأ له كأس قهوة. ثم أراد تلطيف الجو قليلا فلاعب بإصبعه الصغيرة نورة التي كانت تمرر لسانها على حافة قدح الحليب.

– أنت تدغدغني.

– أنا ؟

– نعم أنت، لقد رأيتك تدخل يدك خلف ظهري.

– إنها بالتأكيد روح شريرة.

حركت نورة كتفيها وراحت تلحس القدح وهي تحرس أخاها بطرف عينها.

اهتم نافع بأميرة. هذا ليس من العدل، قال لنفسه. رغم جمالها واستقامتها لم تجد من يخطبها. ففي مرحلة الثانوية، كان خيالها يلم جميع شبان الحومة. عيناها الكبيرتان بظلال الجواهر بهما سحر عجيب. تغار رفيقاتها بالمدرسة من رشاقتها وأناقتها ويتجنبن الظهور معها. كانت أميرة جميلة جدا بخدين يحاكيان خدود الحوريات، تعلوهما حفيرتان وشعرها الممتد على طول ظهرها.

يتألم نافع من أجلها. إذا ما قاطعها الخطاب فبسببه هو. لقد طردهم جميعا. كان قد وعد دحمان أن يزوجه إياها لكن هذا الأخير نسي تعهداته حين التحق بمعهد الفندقة بمدينة تيزي وزو. الفتيات هناك متحررات. كان دحمان

دوما يحلم بالزواج من فتاة تنتمي لعائلة تحترم المو...، تعرف أصول الاستقبال و«الخروج» والتحدث إلى أنا... الطبقات العليا.

أميرة الآن تستهلك ربيعها الرابع والعشرين ولا سنونو... في السماء لتراها.

وضعت نورة قدحها وجرت نحو الغرفة كي تحضر محفظتها.

– سعاد، رافقيها إلى المدرسة، قالت الأم. قولي للمعلمة أنني لا أستطيع مقابلتها اليوم أيضا.

وافقت سعاد. غادرت بدورها الطاولة وأنزلت حجابها المعلق في الرواق. سعاد لها من العمر سبع عشرة سنة. وعلى العكس من أخواتها فإن الطبيعة لم تسعفها. إنها قصيرة وبدينة، أنفها متهدل يحتل نصف وجهها، لم تعد تحتمل بشاعة ملامحها. كي تنسى، بالتأكيد، لجأت للتخفي وراء ورع حاد، صارم، دون نباهة. لا يذكر نافع أن رآها تقهقه منذ عشرية كاملة.

بعد مغادرة الأختين، دعا نافع أمه كي يعرف إذا ما كانت هناك مهمة له. عبس وجهها ولم تجد شيئا خاصا تقوله له. إنها قلقة بشأن الشيخ لكنها تعلم أن ذلك ليس شأن ابنها.

– لقد توسلتُ خالتك كي تأتي لمساعدتي، فقد هدني النعاس. أنا وأخواتك ما عدنا نقوى على تحمل كل هذا. نحتاج إلى شخص ينيبنا.

قبِل نافع المبادرة.

قبْل أن ينصرف، نظر إلى أميرة وفكر إذا ما لم تحن الفرصة لإيجاد زوج لها. لقد سمع خبرا مفاده أن الإمام يونس بصدد البحث عن زوجة وأنه يكن لعائلة وليد كل الاحترام.

– سيكون بفرح وسرور، سمع نافع نفسه وهو يهمس بعد أن وصل إلى الباب.

حمزة يوب ينتظره في أسفل السلم وقد غطى رأسه حتى الأذنين بقبعة وسخة، يرتدي سروال عمل ملطخ ببقع الدهان وحذاء من قماش نتن. استخلص نافع من كل هذا أنه هنا ليس من أجل «مهمة» ولكن وجوده يبعث على الحيرة.

– تمهل، حاول تهدئته ثانية صباغ العمارات.

رافق نافع إلى حيث يركن التاكسي دون أن ينطق بكلمة. تفقد نافع مستوى الزيت والماء في مبرّد المحرك، ركل العجلات ثم شغل المحرك.

– ماذا هناك ؟

– سأشرح لك.

– أنا لم أعمل لمدة يومين، أعلمه نافع.

ابتعد عن الطريق فاسحا المجال أمام نافع كي يخرج السيارة ثم قفز بجانبه. بنقرة من الأصبع الأوسط فتح علبة «الشمّة» وأخذ «قبضة» منها ووضعها تحت شفته ثم مسح أصابعه فوق ركبته.

– كل ما في الأمر، أعلمه قائلا، البارحة تم توقيف رشيد عباس داخل مقهى أثناء عملية روتينية لفحص وثائق الهوية. أكرر : عليك أن تتمهل. عباس لم يشارك أبدا في أية عملية وهو قريب الإمام يونس مما يعفيه من الكثير من المتاعب. المسألة هي أنك مع هذا النوع من البشر يجب أن تحترس. عباس ليس عنيدا. يمكن أن يصاب بالهلع. لقد قرر الإمام أخذ الإجراءات اللازمة : يجب أن نختفي لمدة يومين أو ثلاث حتى نرى ما سيحدث.

– والدي مريض جدا.

– أنت لست بطبيب. من جهة أخرى، لقد مُنع علينا تعريض أنفسنا للخطر من أجل لا شيء.

– عباس لا يعرف كثيرا من الأشياء عني.

– ربما سيخبرهم بوجود شخص يمتلك من المعلومات أكثر مما يمتلك هو وبالتالي عليك أن تتراجع عن المواجهة لبضعة أيام. هذا ليس بالأمر الصعب.

يتكلم حمزة بهدوء، بصوت واهن وهو يتأمل مليا في عمارات الحي المهترئة. لم يقتنع نافع بذلك الصمت. كلمات راكبه كانت واضحة جلية. كانت لها مسحة من صرامة الإنذارات.

– لا أدري إلى أين أذهب.

– نافع أخي، متى ستضع في ذهنك بأننا لسنا وحيدين وبأن لنا منظمة محنكة بمنتهى الإتقان تحرس كل واحد منا وكامل أفراد عائلاتنا ؟... حينما توصلني، تعود إلى القصبة وتترك سيارتك لدى داود الميكانيكي. ستثير الشكوك إن تركتها في موقف السيارات العادي. ستقول لعائلتك بأن سيارتك معطلة وأنك مرغم على الذهاب إلى مدينة سطيف كي تشتري لها قطع الغيار.

– أذكّرك بأن والدي مريض.

– سنتكفل به. سيلتقي بك أبو مريم في الساعة الحادية عشرة عند عمر ليصطحبك إلى مكان آمن.

بعد صمت طويل، استرخى في مقعده وضرب فخذ نافع بضربة جافة :

– استرخي يا خو. لا وجود لأي خطر، أؤكد لك.

انتظر نافع عند عمر حتى الساعة الواحدة ظهرا. لم يظهر أبو مريم. في أواخر المساء، أتتهم مكالمة هاتفية لتخبرهم أن

حالة الاستنفار قد انتهت. لقد أطلق سراح عباس رشيد.
ارتاح نافع ورجع إلى الميكانيكي ليأخذ سيارته.

مرّ شهر كامل ولم يطلب أحد خدماته، لا لنقل أحد «العابرين» ولا لجمع الأموال. عاد إلى عمله العادي يجول شوارع المدينة، وقد لاحظ أثناء المرور أنه تم تعزيز الأمن حول المراكز الحساسة من طرف الشرطة التي أعادت توزيع أنظمتها حسب الأخطار وتجهيز الحواجز بأبواب الحراب والعربات المدرعة. إذا لم تتجرأ بعد على التغلغل في القصبة وباب الواد فإنها استعادت تدريجيا الأحياء السكنية والجادات الكبرى. تقول الإشاعة أنه تم اختراق صفوف الأصوليين من طرف رجال الأمن وهذا ما جعل الحذر يتحول إلى وسواس الجاسوسية. أصبحت الوشاية تلاحق أدق الأشياء غير الطبيعية. تم تجنيد الأطفال لمراقبة كلا من الطاغوت والمناضلين الإسلاميين. وردا على حظر التجوال المقرر من طرف السلطة، قرر الأمير حظر تجوال آخر. حدثت عمليات تطهير دموية في أوساط الأصوليين وخاصة في دوائر شبكات الدعم. من بين الجثث المقطعة التي تجمعها الحماية المدنية في الأراضي الخالية هناك ما هي لأشخاص متعاطفين مع الفيس تم اغتيالهم من طرف أصحابهم. إضافة إلى هذا فقد أصبحت الحملات أكثر جرأة والعقاب منظما ضد الهجمات. «نينجا الجزائر» – نخبة الشرطة– بدأوا تدريجيا يحتلون المجال بمنهجية

وفعالية. يخرجون ليلا، يعزلون العمارة المشكوك فيها، يأخذون الطريدة ويعودون ثانية بسرعة البرق. بعض المعارك المنظمة تندلع هنا وهناك. خلال الاشتباكات، تهيمن الشتائم والاستفزازات على صوت الرصاص. أولى الخسائر الخطيرة ستؤدي إلى إضعاف الجماعات المسلحة بوسط المدينة. في إحدى الليالي تم الإمساك بتسعة أصوليين داخل كوخ. مع الفجر، رميت جثثهم المشوهة داخل شاحنة جالت بهم الشوارع. يطلق رجال الشرطة الرصاص في الهواء إشارة إلى النصر. ينظر المارة إليهم وهم «يقدمون مشهدا» وعيونهم عامرة بالحقد. في دقائق معدودات تم القضاء نهائيا على إحدى دوريات نينجا الجزائر في وسط أحد الأسواق. هنا أيضا، شهد المارة المجزرة وهم يكشّرون تقززا مما يشاهدون.

لم يقلق نافع ولو للحظة. كانوا يوقفونه مصادفة في عمليات مراقبة الهوية، ينزلون زبائنه ويفتشون أمتعتهم جيدا. أحيانا، يحدث أن يغضب شرطي ما، لكن نافع لا يسقط في الفخ. كان يصبر ويجتر حقده دون أن يرخي فكيه. يدَعونه ينتظر بجانب الطريق ثم يطلقون سراحه.

في المنزل، تماثل الشيخ للشفاء. لم يكن يستطيع الوقوف على قدميه، مع ذلك، وتبعا لتغيرات مزاجه الصعبة، كان يصرخ في وجه الجميع وذاك شأن يعجبه جدا.

يفكر نافع بطريقة جدية في تزويج أميرة. الإمام يونس يخفي نياته بصعوبة. فهو لا يتحدث إلا للمقربين عن طريق الوساطة. لكن كل القصبة تعرف أن له عين على ابنة عائلة وليد. في بعض الأماكن، يقف الناس عند مرور نافع ويجتهدون لقطع الطريق من أجل مصافحته. لا أحد يخفي نفسه حين يقوم بالتملق له. أما أصحاب المقاهي، فيرفضون رفضا قاطعا إعطاءه قائمة الحساب. حتى عمر زيري فإنه ينمحي أمامه.

في إحدى الليالي تجمد دمه عند رؤية سيارات الشرطة أمام مدخل العمارة التي يسكن بها. كان مدخل الشارع مغلقا من طرف جمع صاخب. عائلات بأكملها تتزاحم على الشرفات.

– لقد جاءوا ليأخذوك، نبهه أحد الأطفال.

رجع نافع على أعقابه. وبقدر ما راح يبتعد، راحت أسوار طفولته تتماوج حوله هاربة مثل السراب. تتجوف رأسه، تصفر أذناه، يشتعل صدره مثل كومة من القشِّ. لم يعد يسمع سوى صوت تنفسه الجامح، صوت الطَّرق في صدغيه، ولم يعد يرى سوى الشوارع الضيقة وهي تتخلى عنه، تعزله، تعرضه. تملّك الخوف أحشاءه. أدرك فجأة هشاشته. وهو مصروع تقريبا، حائرا كلية، راح يجري، يجري، يجري...

– هنا يمكنك أن تنعم بالنوم العميق.

كان نافع مذهولا. لم يتصور أبدا وجود هذا النوع من البؤس. راح أبو مريم يجول به في عالم عجيب. مئات الأكواخ الفظيعة تتكدس فوق الأرض الخالية : الأسقف المثقوبة، الأبواب المصنوعة بغير دقة من الصفائح المعدنية المقوسة وبعض قطع السيارات، النوافذ المقطوعة من العلب الخشبية المغطاة بالزجاج البلاستيكي المغبر وعلب الكرتون النتنة، برك ماء الغسيل مليئة بالحشرات، العربات المنزوعة الهياكل متكئة أمام الباحات، أكوام الفضلات المنزلية، وفي وسط هذا العالم المروع تهيم خيالات تعيش على النفايات، بنظر موجه نحو داخل أدمغتهم، بوجوه منكمشة كما التشنج العضلي. كنا في حي قصديري بالحراش على بعد مئات الأمتار من مدينة الجزائر. لم يشك نافع أبدا في وجود هذا النوع من الانحطاط البشري على أبواب البهجة، هو الذي ولد وكبر في الخرابات الوسخة بحي القصبة.

– كنت تعتقد بأنك بلغت القاع في سوق الجمعة، قال له أبو مريم. أنت لم تر شيئا بعد.

كان نافع يتساءل خاصة كيف تستطيع كائنات بشرية العيش في هذا النوع من القبح، مكدسة بشكل فوضوي وسط أكوام القطع المعدنية القبيحة وتلك النتانة، يتساءل

كيف يستطيع الأطفال أن يجنبوا عيونهم العور في الممرات الشائكة بالقضبان الحديدية وشبكات التسييج والأسلاك الشائكة، يتساءل، ما هو الضريح الذي دنس هؤلاء الناس وما هي اللعنة التي تسببوا فيها كي يستحقوا قضاء عقوبتهم في مكان قذر بهذه المهانة ؟

– لهذا نقاتل، أخ نافع.

– نعم، قالها متنهدا.

– هنا، لا وجود لشيء تخشاه. مضيفونا على استعداد لاستقبال الشيطان إذا ما قبل تخليصهم من أولئك الأنذال الذين أخذوا منهم كل شيء.

قبل أن يدخل نافع داخل أحد الأكواخ، فكّر في التراجع والهروب إلى أي مكان، بعيدا، بعيدا عن متحف الرعب هذا. كان مقتنعا باستحالة قدرته على قضاء الليلة فيه. غشي ذاته إحساس باليأس. فجأة، دارت في رأسه صور في شكل دوّامة، وجد نفسه يكره كل واحدة منها، الجميلة منها والسيئة، يكره الأقارب والأصدقاء، القدامى منهم والجدد، يكره يديه وعينيه، يكره العالم كله. كيف وصل إلى هذا الحد، ما الذي كان يفعله فوق هذا الجناح المنسي من الإنسانية والذي تبرأت منه الشياطين والملائكة، ما الذي جاء يبحث عنه هنا ؟

تردد طويلا قبل أن يجتاز مدخل الكوخ.

تماما مثل تلك الليلة في غابة باينام، قوة خوانة راحت تدفع به نحو قدره بهدوء الجلاد وهو يدفع المحكوم عليه نحو منصة الإعدام. أدرك بأنه لا يحاول مقاومتها وأنه لا يرى لذلك إرادة أو ضرورة.

قرفص شيخ هرم في زاوية وهو يدير مغرفة داخل القدر. سرواله الممزق يسمح برؤية جزء من مؤخرته، والتَريكو ارتفع على ظهره حتى بان ظهره العاري النحيف. حين سمع صوت الخطوات، ألقى نظرة خاطفة على قطعة مرآة معلقة على الحائط دون أن يبذل مجهودا في الالتفات.

— رائحة طيبة، قال له أبو مريم.

اشتمّ الشيخ البخار المتصاعد من القِدر ثم وضع غطاء معوجا فوقه ووقف. دفع بمقدمة حذائه البالي جانبا سريرا حقيرا كي يفسح الطريق، تخطى مائدة وتقدم لاحتضان الضيفين. عانق أبا مريم طويلا ولمس نافع لمسة خفيفة ثم تراجع كي يتفرس ملامحه :

— هل يحب صديقك هذا العدس ؟

— إنه يفضل فراشا جيدا كي يقضي الليلة.

— آه ! عابر فقط.

— إن الشرطة تبحث عنه.

نظر الشيخ إلى أبعد من كتف نافع.

– لا أرى أي شرطي في الخارج. سأسعد كثيرا لو تمكنتُ من نتف ريش بعض من هؤلاء الدجاج كي أغيّر على الأقل لائحة طعامي.

ضحك أبو مريم في صمت.

قال لنافع :

– لقد سمعتَ بالتأكيد بصالح لاندوشين.

– لا.

– إذن هذا هو بعينه. لقد شارك في حرب الهند الصينية، في ثورة 54 وفي حرب الحدود ضد المغرب عام 63. إنه لا يهدأ. ما زال يتسلق الجبال أسرع من ابن آوى. إنه دليلنا. يعرف الجبال أفضل من معرفته بجيوبه.

– شيء طبيعي، قال الشيخ وهو يقلب أسفل جيبيه، لا يوجد شيء مهمّ هنا.

أحس نافع بانقباض في بطنه.

– هل سيقودني إلى الجبل ؟

– ليس الآن.

طلب الشيخ من ضيفيه أن يرتاحا وخرج إلى الفناء. لم تكن لدى نافع القوة الكافية التي تمكنه من الجلوس. نظر

حوله نظرة الحيوان الذي علق في الشِباك. بلع ريقه بتشنج كي يسرّح صوته.

– أنا لست على استعداد للصعود إلى الجبل، غمغم قائلا.

– علينا ألا نستبق الأحداث. أنت ستختبئ هنا مرحليا.

– كم من الوقت ؟

– الأمر متعلق بالشيخ يونس.

عاد الشيخ بطبق مملوء بالبيض المسلوق والزيتون والكسرة وعلب عصير البرتقال. وضع كل شيء على المائدة، جلس القرفصاء على الأرض وانتظر كي يفعل الشابان مثله.

كان أبو مريم أول من يبدأ بالأكل.

رفض نافع الطعام. أغرقَ الاضطرابُ ملامحه، شوّهه.

– هل لصديقك مشكلة ما ؟

– حتما، هذه أولاها.

ازدرد الشيخ بيضة كاملة وصحبها بجرعتين من العصير وتمطق بشفتيه.

– أيها الصغير، يا أنتَ، سيكون كل شيء على ما يرام. في البداية نضيع وهذا طبيعي ولكن بعد مدة قصيرة، ستنطلق الأمور لوحدها.

وافق نافع دون قناعة.

– هل تؤمن بالقَدر أيها الصغير ؟

– اسمي نافع.

– إذن يا نافع، هل تؤمن بالقدر ؟

– لا أدري.

– إذا كنتَ تنطلق من المبدأ ألاّ يصيبك إلا ما كتب الله لك، فقد نجوتَ. هذا هو القدر. المهم ألا يفشل الإنسان في مسألة الإيمان. أليس كذلك يا أبا مريم ؟

– صحيح.

– لم أبلغ من العمر العشرين بالهند الصينية. أذكر أنني بمجرد أن وصلت، انفجرت قنبلة تحت شاحنة. لم يكن أمامنا الوقت الكافي كي نلم أشلاء أصدقائنا بالملعقة الصغيرة حتى انفجرت قنبلة وسط الموكب. كنتُ في الاتجاه المعاكس، هل تفهم ؟ كنتُ أبكي بكاء طفل تائه في الأدغال. تشتعل الليالي بالصواريخ المضيئة والانفجارات. كان ذاك جهنم، يا رجل. كنت لأجَن. الوحل، الرياح الموسمية، الفخاخ في الغابات، كنا نتقدم. كانت سواطيرنا لا تبقى مشحوذة طويلا من كثرة استعمالها فوق النباتات. بلفة وراء شجرة، يتلقى الكشاف طلقات رشاش في الوجه. في طرف حقل الأرز، تتذوق الفصيلة كلها طعم فاكهة الكمائن.

أما ناقلي الجرحى فما عادوا يعرفون وجهتهم. هناك من تصيبه نوبة فيهجم نحو رشاشات العدو كي ينتهي من كل شيء... ثم في يوم من الأيام قلت لنفسي: «صالح، أنت هنا داخل هذه الفوضى منذ شهور الآن ولم تتعرض لخدش صغير. هل تستطيع أن تشرح لي هذا؟ سأشرحه لك، لن يصيبك إلا ما كتب الله لك. هذه هي الحقيقة أما الباقي فلا تهتم به...» عملت كل الأشغال الشاقة لمدة عامين هناك. لم نكن في بلاد بل في مقبرة للعظام. نقضي من الوقت في دفن موتانا أكثر مما نقضيه في الرد على هجمات ذوي العيون الصغيرة. ما زال يتردد في أذنيّ صدى جوقة المدفعية ودوي القاذفات... حين تم تسريحي من الخدمة قلتُ: جميل! لقد مرت العاصفة. رميتُ الخوذة على الأرض واستعدت عمامتي. حين عدت إلى البلد، كانت الثورة في انتظاري على رصيف الميناء. لا وقت كي أقبّل أمّي... الثورة، لم تكن جميلة هي أيضا. ما الذي أقصّه عليك. ليس أقل من ثمان وعشرين كمين. لا قنابل النابالم الحارقة ولا عمليات التمشيط تمكنت مني. لأن الله لم يشأ.

– كيف يحدث ألا تُجرح في كامل هذه الحروب؟ ضايقه أبو مريم.

وقف الشيخ. بحركة مسرحية رفع كم التريكو ليوريّ سرّته:

– وما هذا؟ دخلت رصاصة من هنا وخرجت من هناك، أضاف قائلا وهو يُدخل أصبعه في مؤخرته. ربما كانت قذيفة غير مألوفة لأنني حتى اليوم أجد بأن ثقب إستي لم يندمل بعد.

تشقلب أبو مريم على مرفقه وهو يقهقه.

أما نافع فلم يبتسم حتى.

في نهاية السهرة وصل يوب ووجدهم جالسين للعشاء. جلس فوق صندوق وهو كمن تعرّض لطامّة، في انتظار انتهائهم من الأكل. لم يستطع نافع تحمل نظرته المكدرة. توقف عن الأكل والتحق به.

– إذن؟

حدّق حمزة في أبي مريم. فهم هذا الأخير الرسالة. بحركة من الرأس، سمح له بالكلام. وضع حمزة يديه ببطء على كتفي سائق التاكسي وتحسس الرعشات التي استولت عليهما. سرّح حلقه وقال:

– لدي أخبارا سيئة أعلمك بها يا أخي نافع. إنها بخصوص أبيك...

– لا تقل لي بأنهم تجرؤوا على توقيفه. إنه شيخ مشرف على الهلاك...

– لا، القضية أخطر من هذا يا أخي نافع.

– لا، لا، هذا مستحيل...

– قتله الطواغيت في بيته، أمام أفراد الأسرة. أنا آسف.

– لا، ليس هو، ليس والِدي. إنه لم يفعل شيئا. هذا جنون...

وضع نافع رأسه بين يديه واختفى تدريجيا في مكان ما...

III

الهاوية

إذا ما رغبتَ
في بلوغِ السلام الأبدي
ابتسم للقَدر الذي يضربك
و لا تضرب أحدا.

عمر الخيام

لقد قتلتُ أول رجل يوم الأربعاء 12 جانفي 1994 على الساعة 7 و 35 دقيقة صباحا. كانامحاميا. خرج من بيته متوجها نحو سيارته تسبقه إليها ابنته صاحبة الست سنوات، بضفيرتين تحملان أزهارا زرقاء صنعت من شريط أزرق ومحفظة على الظهر. مرّت بجانبي دون أن تراني. يبتسم المحامي لكن في نظرته مسحة مأساوية تماما مثل حيوان مطارد. قفز حين رآني مختبئا في باب المدخل. لا أدري لماذا أكمل سيره كأن شيئا لم يكن. ربما اعتقد أنه بإظهار لامبالاته بالخطر سيمنح نفسه فرصة لدفعه. أخرجت مسدسي وأسرعت للحاق به. توقف ووقف أمامي وجها لوجه. في لمحة بصر فرّ الدم من وجهه وامّحتْ ملامحه. خفت في لحظة أن أخطئ الشخص. سألته: «خوجة؟ أجابني بصوت لا نبرة فيه: – نعم». دفعت سذاجته –أو يقينه من نفسه– بجسدي نحو الأسفل. تكبدت كل مشقات العالم كي أتمكن من رفع يدي. أحسست بثقل في أصبعي الذي يمسك

بالزناد. صرخ سفيان : «ماذا تنتظر ؟ أقتل ابن السافلة هذا.» بدا أن الطفلة لم تكن تفهم ما يحدث. أو أنها ترفض أن تقبل بؤسها. «هذا غير صحيح» يعاتبني سفيان مكررا الجملة. «لن تتراجع الآن. ليس سوى مجرد شخص قذر». كانت الأرض تهدد بالهروب من تحت قدمي. يغمرني الدوّار ويعقد أمعائي ويشلني. اعتقد المحامي أنه وجد فرصة حياته في لحظة ترددي. لو بقي ساكنا، أعتقد أنني ما كنت لأملك القوة الكافية للذهاب أبعد. كان جسمي يهتز من الرأس حتى القدمين مع صوت كل طلقة رصاص. ما عرفت كيف أتوقف عن الرمي لأنني ما عدت أدرك دوي الانفجارات أو صرخات الصبيّة. كنتُ أشبه بالنيزك، اجتزت جدار الصوت، حطمت نقطة اللارجوع. لقد سقطت للتو جسدا وروحا في عالم مواز لن أعود منه أبدا.

قدّم لي سفيان كأس ماء :

– كيف تحس نفسك الآن ؟

لم أكن أحس بشيء.

لم أكن أرغب في أي شيء : لا الشراب ولا الأكل ولا الكلام.

انهار جسدي فوق الأريكة، كنت متوجها نحو النافذة وأتنفس بشراهة هواء الشتاء البارد. في الخارج، مطر خفيف

يسقي الحديقة. حين حركتها الرياح، راحت إحدى الأشجار تلعب لعبة الغميضة. يمكن في البعد سماع أزيز السيارات على أرضية الطريق المشبعة بالماء.

كان صعبا علي فهم ما جرى.

كان لدي الإحساس بأنني قد قفزتُ الخطوة، أن لاشيء سيكون كما من قبل.

من حين لآخر تعبر فلاشات ضوء تلك العتمة التي تملأ دماغي. في لمحة بصر، أرى وجها، شفة، ضفائر مزينة بالزهور، المسدس الجامح في قبضتي، السماء والأرض تدوران حولي كأنها الطاحونة تنهشني. ثم توقف كل شيء، صمتَ، انطفأ. لم يبق غيري، وجها لوجه مع ضميري. رحت أتشبث بمسندي المقعد كي أردع ردة فعل ما... لا ردة فعل. لم أكن أحس بشيء. لم تكن يداي ترتعشان حتى.

أراني في مكان الهجوم. على رؤوس أصابعي. حركة تليها أخرى. أرى ثانية الجسد وهو ينهار تحت طلقاتي، يقف، ينهار، يقف، ينهار وكأن الفيلم أعجبته الحكاية. لم أعد أدرك لا صوت الطلقات ولا صرخات الطفلة. أعتقد أنني أصبت بالصمم مؤقتا حينما كنت أطلق الرصاص. كان على سفيان أن يطوقني كي يجرني نحو السيارة. من دون تدخله كنت سأبقى مسمرا مثل فزاعة الحقول أمام ضحيتي. لم أقل كلمة واحدة منذ تراجعنا. غضب هائج

يضنيني. ألوم المسدس الذي لم يرد أن يصمت، ألوم قبضة يدي التي قبلت الفعل... ألوم خاصة المحامي الذي رضي بقدره، هكذا بكل بساطة لأن شخصا مجهولا قد قرر أن يقتله، في الشارع، مثل أي حيوان. ألومه لأنه أوداني معه حين سقوطه، لأنه أشركني في المأساة... ألوم أيضا الرجال الذين ما كانوا إلا ظلالا مضللة، بعوض تافه، تماثيل أرجلها من طين يمكن أن تمحيها في لحظة رصاصة تصغر حجرة النرد مرتين...

كنتُ غاضبا من السهولة الغريبة التي بها ينهي الرجل أيامه، يغادر العالم من الباب الضيق، هو الذي يجسد صورة الله العظيم.

لقد اكتشفت بوحشية مفرطة أنه لا وجود لشيء أكثر ضعفا ومسكنة وأقل تماسكا من الإنسان...

كان الأمر لا يصدق. لا يحتمل. مقززا.

– ابتداء من الثالث، سيكون كل شيء على ما يرام، تنبأ لي سفيان.

.15

حثوا نافع وليد بعدم حضور جنازة والده وعدم زيارة أهله. كان مطلوبا في القصبة وفي باب الواد أين تعقدت الأشياء مع الاعتقالات المهمة التي قامت بها الشرطة.

بعد ثمان وأربعين ساعة لدى صالح لاندوشين، أحس نافع نفسه يتحول إلى مجنون. الخسارة المأساوية لوالده تؤنبه. انكمش في زاوية وراح يؤلم صدغيه بشدة، يجتر الغم والحقد في صمت متوسلا إلى أصدقائه كي يتركوه وحيدا. رفض تناول الطعام والاستماع إلى الكلام المعقّل وكان يرد بعنف على تعابير التعاطف. خارت قواه تماما، طلب الالتحاق بالجبل. لم تكن برأسه إلا فكرة واحدة : الثأر.

– لا تعمى أمام مسألة العقاب الجماعي، علّمه أبو مريم. ستؤول معركتك إلى الفشل. بقدر ما تحاول تصفية حساباتك ستعرّض نفسك لخطر العزلة في حين أنه من واجبنا أن نبقى متجمعين. حول نفس المثل الأعلى : الثورة الإسلامية.

مات أبوك ضحية اغتيال جبان. إنه ليس الأول ولن يكون الأخير. أنذرك بأن تستفيق. نحن بحاجة إلى فطنتنا. الحقد شريك سوء عليك أن تحذر منه في حين أن حربنا مقدسة. هي ليست مسألة شخصية، أخ نافع. إنها تطلب منا الحزم ولكن أيضا العدل والتنوّر. مستقبل الأمة يتوقف عليها. سنلتقي بقتلة أبيك، لا مناص من ذلك. سنكشفهم في يوم أو آخر وسنعاقبهم على فعلتهم. في انتظار ذلك، التحقْ بالصفوف. لقد تأسفنا لحدوث كثير من سوء التفاهم من هذا النوع. عكاشة الحلاق فقد ابنه خلال إحدى عمليات الاعتقال. دون أن يستشير أحدا، أخذ شفرة وذبح بها أول شرطي لقيه في طريقه. كانت مبادرة بائسة وبليدة. كان الشرطي من أصدقائنا. كان يخبرنا عن العمليات التي يخطط لها زملاؤه. إذن...

ألحّ نافع للالتحاق بالجبل. الشيخ يونس عارض الفكرة ثم أدمجه في جماعة سفيان.

سفيان شاب وسيم في سن الثالثة والعشرين، فارع ورياضي. شعره الطويل الأشقر يمنحه هيئة حصان. بوجهه البريء وابتسامته المخدرة، يتمكن من سحر أصدقائه كما ضحاياه. يقود مجموعة من ثمانية عناصر تم اختيارهم بدقة، هم شبان لا تتعدى أعمارهم الاثنين وعشرين سنة، كلهم من عائلات الأعيان والصناعيين. مركز قيادتهم يوجد في قلب الجامعة والتي فيها يحبكون فخاخهم المعروفة بدقتها العلمية.

كانت المجموعة متخصصة في اصطياد موظفي السلطة القضائية والشيوعيين ورجال الأعمال وكانت غاية في الالتحام والحذر والدقة ولا تترك شيئا للصدفة. لباسهم مضبوط وذقونهم محلقة وحيويتهم مثالية وكانوا كلهم طلبة. بعضهم يجمع شعره في جديلة وبعضهم يبرز حلقته الذهبية في الأذن. في الجامعة، الجميع يعتبرهم أبناء للبرجوازية دون أدنى شك. هناك فتوى تبيح لهم التردد على الملاهي والأماكن الراقية من أجل جني الأخبار حول الأهداف المحتملة. بفضل مظهرهم المسترخي، يتمكنون من التجوال في الجادات الكبيرة في كل طمأنينة، المحفظة على الظهر والمسدس داخل المجلة.

أعجب نافع بوجوده داخل المجموعة. لقد وجد من جديد ذاك الجو الناعم الذي صادفه لدى عائلة راجا، الأضواء المبهرة بالصالونات ورائحة الثروة التي بالمقارنة مع كوخ صالح لاندوشين كانت أقل مضايقة.

خلال الأسابيع الأولى تم إيواؤه عند فاروق، ساعي الجماعة، في غرفة بالجامعة. كان نافع مجبرا على تجاهل نفسه فتفرغ لتكوينه الإيديولوجي. بدأ يقرأ كتبا دينية ويصلي كثيرا ولا يمضي وقت دون أن يستمع إلى خطب الشيوخ المصريين والسودانيين والمشرقيين. يمتلك فاروق العشرات من هذا النوع من الأشرطة. هو شخصيا يكتب البيانات ويقوم بتجنيد أعضاء جدد في أوساط الطلبة.

بعدها دعاه سفيان ليقيم في بيته، في فيلا جاثمة وسط حقل في أعالي بن عكنون، يتقاسمها مع زوجته هند التي تكبره بأربع سنوات، ورعها كاذب، باردة، حادة الطبع، شحوبها رخامي، تنفر من الذهب ومن الألفة، تمارس سلطة خارقة على الجماعة. لا أحد يجرؤ على النظر في عينيها. تُعيد كل واحد إلى مكانه في الحين دون مداراة. تعرّف نافع على ذلك بعد أن دفع الثمن. حينما مد يده لها وهو على عتبة الباب، رفضت تلك «البدعة» ونصحته بالعودة إلى المدرسة القرآنية لتجديد معلوماته. معتقدا أن تلك لم تكن سوى مزحة، ابتسم، لكن ابتسامته انمحت لما لمح في بؤبؤي مضيفته وميضا يبعث البرودة في الظهر.

هي التي كانت تقود السيارة أثناء العمليات. في تلك الأيام، كانت ترتدي الزي الغربي، تضع الماكياج وتسدل شعرها الطويل على كتفيها. تستطيع أن تجتاز حواجز الشرطة أفضل من سيارة الإسعاف.

بعد أن تعود إلى المنزل، تسرع كي تتخلص من الماكياج وتنزع بدلتها النسائية كما أنه قميص نيسوس.

تنكب بسرعة على قراءاتها الدينية.

تعرّف نافع على كثير من المتعصبين لكن تطرفهم لا يساوي شيئا مقارنة مع تطرف هند.

يقيم نافع في الطابق الأرضي. وضع مضيفوه تحت تصرفه صالونا مجهزا بجهاز تلفزيوني من الحجم الكبير، مكتبة وخزانة ملابس واسعة.

– افعل ما يروق لك كأنك في بيتك، قال له سفيان.

– أنت تكرمني.

– هناك شيء آخر : أتمنى أن تترك شعرك ينمو في شكل ضفيرة. لك وجه جميل وعليه يجب الاستفادة منه. القاعدة الجوهرية عندنا بسيطة : إلحاق المفيد بالمستحب، أي الاعتناء بالمظهر، إصابة الهدف ثم الاضمحلال في الطبيعة كأن شيئا لم يكن.

في اليوم الموالي، في الطابق تحت الأرضي بدأوا يعلّمونه استعمال الأسلحة النارية.

في إحدى الأمسيات جاء فاروق لحظة غشي الضباب المدينة. ألصق على الحائط صورة رجل في الأربعين من عمره. هو المحامي الذي تتهمه الحركة بسوء الدفاع عن الإخوة الذين أوقفتهم قوات الأمن ظلما. قدّم فاروق صورة كاملة لشخصية موظف القضاء : عاداته، أماكن ارتياده، خط مسيره اليومي... أصغى نافع باهتمام دون أن يشك في لحظة واحدة أنه هدفه الأول. اعتقد أن قلبه توقف عن النبض حين وعده سفيان بأن العملية ستكون سهلة جدا وأنهم سيكونون إلى جانبه لتجنب أي طارئ.

بعد أن تم قتل المحامي، لم ينتظر نافع طويلا حتى اعترض سبيل أحد القضاة وهو يغادر قاعة حفلات في الساعة الواحدة صباحا. شخص سقيم يجرّ ساقه، ساخطا ضد نفسه لأنه لا يستطيع فتح باب سيارته. مرة أخرى، ارتجفت يده حين ألصق المسدس برقبة الشيخ الأشعث الشعر. يبدو أن هذا الأخير لم ينتبه إلى الماسورة التي راحت تحك له فقرة العنق. حين أطلقت الرصاصة، قفز طاقم الأسنان من فمه وارتد فوق مقدمة السيارة ثم تفتت على الإسفلت.

حتى ينهي نافع شهره مع الجماعة بتألق، واستثناء للقاعدة، قدم له سفيان على طبق شرطيا سمينا إلى درجة أنه أفرغ كل محتوى خزان المسدس كي يتمكن من طرحه أرضا.

كان سفيان على حق : مع «الثالث» غدَا كل شيء على ما يرام.

لقد تخلص نافع نهائيا من شكوكه وتأنيب الضمير وبدأ يتحين من سيأتي من ضحاياه بصبر القدر المحتوم.

– ما الذي تحمله لنا من الأشياء الطيبة ؟ سأل سفيان وهو واقف في المدخل وقبضتيه على وركيه.

مسح فاروق حذاءه القماشي فوق الحصير. بحركة فنانة رمى بقبعته الأمريكية فوق الخزانة ولوّح بمحفظته :

– عميل للشيطان.

خلفه يوجد «الروجي» الذي انكمش من شدة البرد داخل بدلة الكاوي. أرسل طرفة عين تجاه نافع الجالس داخل أريكة وحيّا هند خفية وصافح الأمير وهو يتبختر :

– المطر كأنه الحبال تنزل من السماء.

– نعم، الطقس سيء للغاية.

– لقد رأيت بعض رجال الشرطة بالجوار من هنا.

– فليكن إذا كان ذلك يسليهم.

حك الروجي يديه بعضهما ببعض وهو يرسل أنفاسه عليهما. وجهه النحيل كشفرة الموسى كان مبرقعا بالنمش. هو ابن وزير سابق في الحزب الواحد، عاش فوق سحابة يقضي عطله في أواخر الدنيا. في سن السابعة عشر كانت تحت تصرفه سيارة مكشوفة السقف يقلها للذهاب إلى الثانوية. في تلك المرحلة كان يحب البنات والسهرات الراقصة وتقديم الهدايا.

في الجامعة، كان الأساتذة والطلبة يجمعون على التنبؤ له بمسيرة استثنائية. كان موهوبا، نابغة بحق. دون أن يظهر بأنه يبذل كل الجهود، كان يتفوق على كل زملائه في الدفعة. كان ممتازا في المواد العلمية وكذا الثقافة العامة ويجلب عنوة احترام المدير إليه. مع ذلك لم يكن الروجي يتميز بالعناد.

يزاول دراسته باللامبالاة التي تميزه. لا شيء يدل على أنه سيتحول مستقبلا إلى قاتل بقسوة شرسة.

انقلبت حياته في اليوم الذي اقترح عليه فاروق أن ينوب عنه داخل اللجنة. كان فاروق نجيبا أيضا، من عائلة ثرية ومحترمة. يتكلم اللغة الفرنسية لكن يفكر بطريقة الفيس. أحس الروجي بسحر خاص في خطاب زميله بالغرفة، بوضوح تصوراته وبهاء إيمانه. سقط سريعا تحت سحر فتنته. من اجتماع إلى خطبة ومن مسجد إلى مكتبة متخصصة، بدأ الروجي يكتشف عقم التبجح، مهانة الطيش، تفاهة عالم زائل لم تتمكن واجهاته المزركشة من تغطية تفسخه الداخلي. تخلى إذن عن كل ما هو ظاهري للتفرغ للأشياء الجوهرية. قرّر وضع كامل عبقريته في خدمة القضية النبيلة، فنزل من سحابته واستعرض لحية صهباء كالطوق والتي ضحى بها حين شرح له فاروق الحاجة الثورية للعمل في السرية المطلقة وكذا عدم تغيير عاداتهم الطلابية ورفقائهم. تلقى الروجي الرسالة خمسة على خمسة. واصل إظهار تصرفاته التشيتشي التي يختفي وراءها عضو جديد مقتنع، شخص أصيل اصطفته السماء من أجل مهمة حيكت على مقاسه وهو بانتظار تقلّدها بعد زيارة سرمدية.

أول ضحاياه كان أستاذه الدكتور في الرياضيات، أرمل من دون أطفال، يسكن دارا قديمة بشرق مدينة الجزائر. كان هذا الأخير فخورا برعاية الطالب. كان غالبا ما

يدعوه إلى بيته ليقتسم معه عشاءه المتواضع. يقضيان كامل السهرة في شرح محاسن هذا العالم أو ذاك، موهبة الكتّاب الروس وعظمة الفكر الماركسي. يتأسف الروجي لتفكك الإمبراطورية السوفياتية ولا يخفي انشغالاته بخصوص مآل الشيوعيين الجزائريين الذين يفكر في الالتحاق بهم. ابتهج الأرمل وهنأه على حالته العقلية وطمأنه على الحالة الصحية الجيدة للشيوعية في البلاد، وعده بأن يفتح أمامه واسعا كل أبواب حزبه. هكذا تمكن الروجي من تحضير قائمة بأسماء الأساتذة «الملحدين» وعلى رأسهم كفيله الذي قتله عشية بلوغه سن الخمسين. لقد قدم له بمثابة هدية عيد الميلاد رصاصتين من العيار الثقيل.

قام نافع بعمليتين معه. بدا الروجي بصرامة واقتدار القاتل المحترف. يصيب الهدف بسرعة مستعملا مسدسا مجهزا بكاتم الصوت. بعد الإجهاز على الضحية يقوم بإعادة إحكام كمي قميصه بطريقة ميكانيكية، يعيد سلاحه إلى المحفظة ويبتعد بخطى هادئة مثل شاب متجول يتفرج على الواجهات في الجادات الكبيرة. لم ترتعش يده أبدا لتضرع ضحيته ولم يلحق طيف الضحية به أبدا. بمجرد أن تلفظ الروح حتى يبدأ بالتفكير في الضحية المقبلة.

فتح فاروق محفظته على طاولة الصالون وأخرج الصور باسطا إياها جنبا إلى جنب.

– شيوعي ساقط، أعلن قائلا.

قطب نافع حاجبيه حين تعرف على صورة السينمائي رشيد دراق.

– هل أنت متأكد من أنه شيوعي ؟

– بشرط أن تثبت لنا أنت العكس، ضحك الروجي ساخرا. هل تعرفه ؟

أدرك نافع غلطته وحاول تداركها. أخذ صورة أخرى متظاهرا بتفقدها «مغيّرا» رأيه :

– عجيب، إنه يشبه ساعي بريد أعرفه.

– هذا الرجل ليس ساعي بريد، إنه صانع أفلام هدّامة، يتناول حقن المخدرات كل خميس في «لبنان».

رمى فاروق ورقة مزدوجة من الورق المقوى على الطاولة :

– لدي ملف واف عنه : رشيد دراق، 47 سنة، متزوج، أربعة أطفال، يسكن حي عمران، العمارة ج، الباب رقم 1. دراسات سينمائية بموسكو، سكير معروف...

– شخص قذر وملحد نجس، أضاف الروجي. يبدو أنه بصدد التحضير لفيلم وثائقي عن الأصولية لتقديمه في مهرجان بأوربا.

– أكره الفنانين وخاصة منهم الضالين الذين يلتحقون بالشيوعية.

أبدى نافع عبوسه كي يشير إلى أنه أخطأ الشخص. حين رفع رأسه، فاجأ هند وهي تعاينه بحدة.

– كم مرّ عليك من الزمن وأنت هنا بيننا ؟ سألتْه.

– قرابة العشرة أسابيع، لماذا ؟

– هل حرمناك من أي شيء ؟

– لا.

– هل أحسست في لحظة ما بأننا نعزلك ؟

– ليس حقا.

خبطت هند بقبضتها على الطاولة وزأرت :

– إذن لماذا لا تثق بنا ؟

تراجع نافع :

– أنا أثق بكم بكل تأكيد.

انكمشت شفتا هند في تكشيرة حيوانية وانثنت عيناها بطريقة تمكنها من تركيز طاقتهما على نافع المرتبك.

– فعلا ؟ أنت تثق فينا. لذا تتظاهر بعدم التعرف على القذارة في الصور.

– لقد اعتقدت أنه...

– لا تكذب !

ارتعد إصبعها مهددا.

أدار فاروق والروجي رأسيهما حرجا.

أخرج سفيان يديه من جيبيه وحاول التدخل. طلبت منه هند أن يبقى في مكانه وانحنت على نافع وكأنها تريد أن تذيبه في ظلها. بنفس متقطع ووجه بشع، قرّبت شفتيها من أذن سائق التاكسي السابق وهمست في الأول بنبرة غير مسموعة ثم تحولت إلى صوت عدواني :

– لم نلحقك بجماعتنا من أجل فرح شيخك يونس. هنا، كل شيء يحدث بمهارة. لقد تفقدنا جيدا ملفك وقبلناك على أساس محتواه. نعرف من أين أتيت، البعد الذي يمكن أن تبلغه، لدى من عملت وبأي مقدار يمكن أن تكون مفيدا... نحن نعلم بأنك عانيت كثيرا في أماكن متعددة وخاصة في السينما. الدور الذي أديتَه في فيلم ضعيف دون قيمة أخرجه، بالضبط، هذا الساقط الحقير، هنا، على الصورة.

– هذا ليس مهمّا يا هند، قال سفيان متحرجا. لم يبلغ نافع سوى عمليته الخامسة.

– السادسة !

– السادسة، العاشرة. كل ما أردت قوله هو أنه لم يصل بعد إلى سرعته المتوسطة. نحن مقاتلون ولسنا آلات للقتل. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. إذا كان نافع غير مستعد اليوم لمواجهة صديق قديم فهذا لا يعد تقصيرا في التزاماته وأقل من نكث للعهد.

– هو نكث، صرختْ وهي تعتدل واقفة. في الجهاد لا وجود لكيل بمكيالين. كل شخص يتم الحكم عليه من طرف الحركة يجب التخلص منه. دون أي طعن. فليكن أحد الوالدين أو الأقارب أو المعارف هذا لا يغير شيئا. لن نتوصل إلى القضاء على خوّاني الأمانة الذين يحكموننا إلا بالتمسك بهذا المبدأ المحتوم.

عادت إلى نافع من جديد :

– هل تعرفتَ الآن على هذا الوسخ في الصور ؟

قلّب نافع شعره، تفقد مقدمة حذائه، تفاحة آدم العالقة.

– هل تعرفت عليه ؟

– نعم !

– هل لديك ما يكفي من الإيمان كي ترسل به إلى السماء ؟

– كفى، صرخ سفيان. ليس لديك الحق أن تتعاملي مع أحد رجالي بهذه الطريقة. أمنعك رسميا. أنا الذي أحكم هنا. أنا الأمير.

احتملتْ هند للحظات معدودات نظرة زوجها الغاضبة قبل أن تتنقل بعينيها إلى الأسفل نحو قفا نافع. انحنى فاروق والروجي بعناد على الصور، جمعتْ كفيها وصعدت إلى غرفتها.

سيتم ذبح رشيد دراق أمام أبنائه.

سيكون نافع هناك.

حاول جاهدا غلق عينيه كي لا يرى المجزرة لكنه لم يتمكن من إيقاف صرخات السينمائي التي أشعلت النقمة ولا من إيقاف عملية ترصده طيلة أيام وليالي: «هذا هراء. ليس أنت يا نافع. مكانك ليس في جهتهم. هذا غير ممكن. يا الله، أنت فنان! فنان...»

.16

وقف نافع أمام النافذة يتفرج على الضباب يغزو المدينة مثل جحفل أشباح نزلت من البحر. آلاف الأكفان مبللة بقطرات المطر تهجم على العمارات، تحنط الأحياء وتصعد حتميا نحو الأحياء القصديرية فوق الجبل. انكمشت مدينة الجزائر على ذاتها وهي تنصت للرعب ينهش أمعاءها والشقاء المهيمن في عقلها. الظلال التي تلاصق حظائر القصب تزيد من أرقها. هدير أمواج مينائها تمنح إيقاعا لاحتضارها. تعيش مدينة الجزائر حسب رغبات الهلاك فيها. حبيسة حزنها، لا ترتجي شيئا من الناس ولا شيئا من الأمم الصديقة لأنها كفت عن الإيمان بالاتساع وبالسماء.

حاول نافع أن يتذكر الزمن الذي كان يحب فيه التسكع في الشوارع، صخب المطاعم المتواضعة، الموسيقى التي بنبرات الحوزي، حشود الأطفال وهم ينطون في الحدائق العمومية. حاول إعادة تخيل تلك المرحلة التي تفتقر إلى المهابة لكنها ما افتقرت يوما للعفوية، السهرات الجريئة

حول فنجان قهوة، الفكاهة التي تنطلق مثل الصواريخ الجوالة... ما أبعدها علامات ذاك الماضي، لقد ماتت ووُوريت التراب.

– هل أستطيع تنظيف الطاولة ؟ طلبتْ هند.

– بالتأكيد، أجابها سفيان من قعر أريكته. أحضري لنا الشاي من فضلك.

في الصور المنعسكة على زجاج النافذة، استطاع نافع أن يلمح هند وهي تجمع الصحون من على الطاولة. في نظرتها المظلمة، أدرك أنها لن تغفر له كذبته رغم أنه حاول استدراك الأشياء بمشاركته في هجمات مثيرة بعد اغتيال رشيد دراق. لا شيء شفع له لديها. واصلت مقاطعته ولا تلتفت إليه إلا بنظرة باردة مستخفة تقدَّم عادة شفقة لأولئك الذين خيبوا الآمال نهائيا.

عاود نافع تأمل الليل. عبرت الشارع سيارة للشرطة رصعت أضواؤها الملونة الحيطان بأصباغ مكثفة دموية اللون.

رن الهاتف.

وقف سفيان ليرفع السماعة.

– هل تلفزتك مشتعلة ؟ قال صوت متقطع على الخط.

– نعم.

– ماذا تشاهد ؟

– قناة فرنسية.

– افتح القناة الوطنية... وابق على الخط.

عاد سفيان إلى مكانه، أخذَ جهاز التحكم عن بعد ثم عاد بجنب الهاتف.

اختفت تدريجيا من الشاشة الصورة الخضراء وجاءت مكانها صورة أخرى مؤلمة جدا لمنزل يحترق وسط الركام. مجموعة من رجال شرطة يحرسون الناحية. تسللت الكاميرا داخل البناية المحاصرة وتجولت في المدخل المغطى بالأنقاض، الحيطان السوداء والمثقوبة بالرصاص، الأثاث المقلوب، ثم توجهتْ نحو فناء حيث تمددت سبع جثث بجانب بنادق حربية، قنابل يدوية تقليدية، وحفيف رزم الأوراق النقدية والوثائق المختلفة.

– ألو، هل أنت هنا على الخط ؟

– نعم، قال سفيان. أنا لم أفهم شيئا.

– لقد تم التغلغل داخل القيادة العامة. لابد أن هناك جواسيس في مستوى عالي. كان هذا اجتماع مصيري، سرّي للغاية. أنا شخصيا لم أكن على علم به.

– لقد أحصيت سبع جثث.

– كانوا ثمانية. يجب أخذ الحيطة. الشخص الناجي قد يكون بين أيدي الطاغوت.

– لم أتعرف على أحد منهم، قال سفيان وقد نفذ صبره.

– أقول لك إنهم أعضاء قيادة الأركان بكاملها. هذه ضربة مؤلمة ستكون لها انعكاسات وخيمة على الحركة.

– هل يوجد الأمير جعفر من بين الشهداء ؟

– نعم، هو والمنسق الوطني الشيخ نوح والمنسقيْن الوطنيين للغرب والوسط وأمير المنطقة الأولى وممثل عن المنظمة في أوربا و... هل هند بجانبك الآن ؟

– إنها تغسل الأواني.

– تدبّر أمرك معها.

فجأة تهزهز سفيان.

ابتلع لعابه بتشنج وسأل :

– أبو الهول ؟

عمّ الصمت في الجهة الأخرى من المكالمة ثم :

– نعم، لقد قتل هو أيضا.

كأن حدس عجيب نبهها، ظهرت هند في فتحة النافذة وخالفت ذراعيها على صدرها. حدقت جيدا في زوجها الذي أشاح بوجهه عنها وهو يتصبب عرقا.

– ألو، عاود الصوت في الطرف الآخر.

– لازلت هنا.

– قل لها أنني حزين جدا.

– سأفعل.

– احذروا أيها الإخوة. إنها ضربة فظيعة لكننا سنتجاوزها.

– أنا لا أشك لحظة واحدة. سأتصل بك، إلى اللقاء.

وضع سفيان سماعة الهاتف، مرّر معصمه على شفتيه الملتصقتين. نافع الذي شاهد الصور على الشاشة عرف بأن كارثة قد ضربت الحركة في الصميم. لم يتعرف على أي شخص على الشاشة باستثناء ربما الجثة التي في الوسط، التي ذكّرته بشخص التقى به في يوم جمعة لدى عمر زيري.

حدّق في شفتي الأمير وهو يحبس أنفاسه.

رفع سفيان نظره نحو زوجته ولم يكن يعرف كيف يخبرها.

غامر قائلا :

– لقد حدث شيء مريع يا هند.

رأى نافع بأن وجوده في تلك اللحظة غير ضروري. سعل في قبضة يده كي ينسحب.

– ابق هنا، قالت له هند.

اتكأت بكتفها على حافة النافذة، حدقت في ثريا الصالون وعادت لملاحقة نظر زوجها :

– من كان يتحدث عبر الهاتف ؟

– إسحاق.

– آه...

– لقد عرضوا على الشاشة ما حصل. تم القضاء على أعضاء قيادة الأركان. كان هناك جعفر، الشيخ نوح، أبو هريرة، أبو عبد الرحمان زكريا، سليمان أبو داود وأخ أتى من أوربا...

– وأبو الهول، أضافت بنبرة هادئة.

قطب سفيان حاجبيه :

– كيف عرفتِ ؟

– أخي لا يفارق أبدا جعفر. إذا ما كان هذا الأخير قد مات فإن أخي حتميا قد مات أيضا.

– أنا آسف.

اعتدلت هند ببطء وبانحناءة ناعمة حكت يديها دون أن تنحي عينيها عن زوجها. لم يتحرك ليف واحد في وجهها وبدت هادئة أو شبه رائقة.

حركت رأسها ثم قالت :

– سأحضر لكما الشاي.

مرت أسابيع كاملة ونحن ننتظر. شهد البلد هدنة. لا هجمات ولا أخبار من الجبل. الضربة التي تم إلحاقها بالحركة كانت بالفعل من العنف النادر. بقدر ما يمضي

الوقت بقدر ما نتأكد من خطورتها. أمر سفيان رجاله بتوقيف العمليات والعودة إلى الجامعة في انتظار التعليمات الجديدة المحتملة. بعد تصفية جعفر بدأ السباق لاحتلال منصبه بدون شفقة. فكل أمير ينتهي، يأخذ معه في سقوطه العالم الصغير الذي كان يدور من حوله. تتفكك الحاشية وحراس القيادة تلقائيا، يتم إبعاد المساعدين المقربين، يتم الإبقاء على بعضهم في انتظار تقويم الأمور فيختفون في ليلة ما من دون أن يتركوا آثارا خلفهم.

كان سفيان قلقا. فلم يعد صهره أبو الهول موجودا ليضمن له الاستقلالية النسبية التي تتمتع بها جماعته وأصبح يخشى قدوم أمير غريب فيؤدي ذلك إلى خلخلة الشبكة التي قضى سنوات في تحسينها. كان يخاف أيضا من التعرض للإقالة من منصبه وتحويله إلى منطقة لا يكون مقتنعا بالنشاط فيها.

الكثير من الخلافات، وصلت إلى انشقاقات، تنخر حبال الحركة. بعد الحركة الإسلامية المسلحة (الميا) بدأت فروع مسلحة أخرى تحتل الميدان وأثبتت جشعها للتوسع أكثر فأكثر. رأى الجيش الإسلامي للإنقاذ أنه ملاحق من طرف الجماعات الإسلامية المسلحة (الجيا) التي طلعت من مكان لا يعرفه أحد، مرعبة ومدمرة وهي أفضل تسلحا وأحسن تأطيرا. إنها مشحونة ومروعة. في ظرف زمني قياسي، احتلت هذه الجماعات جبال وسط وغرب وجنوب شرق

البلاد. تميزت بنصب كمائن عظيمة وهجمات خيالية ضد الثكنات العسكرية. حتى أنها تشبه جيوش الحدود التي تعيش الترقب طويلا ثم تهاجم بلدا مجروحا كي تقضي عليه. اكتشف الأعضاء المؤسسون للفيس أنهم كانوا مجرد ألعوبة. فسلطتهم لم تعد لها سطوة والكاريزما التي كانت لهم بدأت تتهاوى مع الهجمات التي تزيد من شهرة بعض المجهولين. الوقت ليس للكلام الرنان. حلت الموسى محل الكلمة وبدأ الشيوخ يتراجعون أمام الأمراء، والسياسيون أمام المحاربين. بعض الأئمة رفعوا الراية البيضاء واستسلموا للسلطة. بدون أي تردد راحوا يظهرون كجزء من مشهد في عروض بلاتوهات التلفزيون، كشفوا خبايا المجلس وزرعوا الفتنة. تضاربت مواقف المسئولين في المنفى وهم يجرّحون في بعضهم بعض. يرد السخط على الإدعاءات. في الداخل كانت الحالة أدهى وأمر. تندلع النزاعات هنا وهناك وتفضي إلى تشقق درع الجهاد وبعث التيارات في ارتطامات صاخبة. تتربص الجماعات بأدنى فرصة كي تجدد السباق نحو الزعامة : الإيرانيون، الأفغان، الهجرة والتكفير، السلفيون، الجزأرة، رفاق السعيد مخلوفي، التابعون لشبوطي الذي أعلن نفسه «جنرالا»، تيارات أخرى خفيّة تعمل بتستر وماكيافيلية وتحرّك المياه العكرة كي تسقي الشقاق والغموض.

يوما بعد يوم وسفيان يدور حول نفسه بجانب سماعة الهاتف، بأصابع معقودة خلف ظهره وبذقن ملتصق برقبته. كل اسم يتم إعلانه، كل مرشح قادر على الوصول إلى الإمارة يدفع به في نوع من الهستيريا تكون أحيانا متفائلة وأخرى جد متشائمة. يقترح هو بدوره أسماء ويعترض على أخرى مهدّدا بتشكيل جماعة لوحده. نصحه محدثه إسحاق بالمحافظة على برودة الأعصاب وضمن له دعمه غير المشروط.

باستماعه إلى هذه المكالمات الهاتفية الحادة جدا، اشترك نافع مع أميره في أحاسيس اللحظة. يتهاوى وسط بؤس شديد حين يسمعه يتأوه ويسترجع قبسا من الأمل حين يراه مسترخيا.

أما هند فقد أغلقت باب غرفتها منعزلة. منذ وفاة أخيها لجأت إلى قراءاتها الدينية وصلواتها ولا تظهر سوى أثناء تحضيرها للأكل الذي لا تنال منه إلا القليل.

في إحدى الأمسيات وعلى الساعة الثامنة ليلا رن الهاتف.

بينما كان سفيان ونافع يتفرجان على التلفزيون، وعلى نحو غير مألوف تملّكهما انزعاج غريب.

– نعم؟ قال الأمير بصوت مضطرب.

استمع واستمع، حرّك رأسه موافقا ثم وضع السماعة.

عاد بخطى منهارة، ألقى بنفسه على الأريكة وهو عليل بالمرارة.

– لدينا العديد من الأمخاخ المعروفين داخل الحركة وها هم يعينون على رأسها قرويا بليدا، أميا ينقصه الدهاء... هذا غريب، غريب بحق...

نام نافع تحت شجرة الأجاص وفوق ركبتيه كتاب مقلوب. لقد أمطرت الليلة السابقة والحديقة التي داعبتها زقزقة العصافير بدأت تطلق بخارها تحت أشعة الشمس. السماء النقية تمد فوق المدينة وشاحها الأزرق. يتجول الربيع مرتديا قميصه السلطاني البهي، بزهرات مكان الأزرار وسنونوة فوق العمامة. بابتسامة مغتبطة على محياه المكدوم بفعل محن الجهاد، استسلم نافع للملامسات الدفء المريحة وهو يفكر في رحلات الاصطياف التي كانت تنشيه حين كان سائقا لدى الديوان الوطني للسياحة.

ظل حجب شعاع شمسه. انتظرَ حتى ينسحب الظل لكنه لم ينسحب. فتح إذن عينيه ووجد سفيان واقفا أمامه، يداه في جيبيه وقد حفر تجعد جبهته.

– سأشتاق إليك يا «رجل»، أخبره وهو يلعب بعشبة بمقدمة حذائه.

– هل أنت ذاهب ؟

– أنت الذي ستذهب يا نافع. لقد تلقيتُ الأمر لأضعك تحت تصرف شخص يدعى صالح لاندوشين. حاولت التفاوض للإبقاء عليك ضمن مجموعتي لكنهم رفضوا الإصغاء.

وقف نافع من كرسي القصب، سقط الكتاب على الأرض، لكنه لم يلحظ ذلك.

– تحت تصرف صالح لاندوشين ؟

– هذا ما قيل لي. هل تعرفه ؟

– إنه عضو من عناصر الدعم فقط.

– قد تكون معينا في مصلحة وسيطة.

– هل تعتقد أنني لم أكن كفئا تحت إمرتك ؟

– لقد كنتَ رائعا. أؤكد لك بأن لا دخل لي في هذا.

رفع نافع رأسه نحو نافذة الطابق الأول.

أوقفه سفيان للتو :

– هند ليس لها علم بعد بمغادرتك. إنها قاسية لكنها لا تحب تبادل الضربات.

انقبض فكّا نافع وهو يحاول التفكير وشرح سوء التفاهم هذا لكن خانه التركيز.

حرك رأسه متذمرا :

– متى سأغادر ؟

– اليوم.

– إذن...

أمسكه سفيان من كتفه مبديا تضامنه معه :

– لقد استحسنتُ كثيرا انضباطك يا أخ نافع. كنت باسلا، كتوما وطيب المعاشرة. أكن لك محبة وسأشتاق إليك بحق. وددتُ لو أبقيتك معي لكن مع كل هذه التغيرات المهولة التي أفحمتنا ما عاد الواحد منا يضمن مستقبله الشخصي.

– لقد فهمتُ...

– إذا ما احتجت إلي فأنت تعرف المكان الذي تجدني به.

شكره نافع.

تبسم مكشرا مبديا أنه سيتمكن من تحمل الصدمة ومشى مترنحا حتى بلغ الفيلا.

انتظر نافع مجيء الليل للالتحاق بصالح لاندوشين. أوصله سفيان بالسيارة إلى مخرج الحراش وتمنى له الحظ السعيد.

– نافع، سيكون قدومك دوما مرحبا به عندي.

– نعم...

– اعتن بنفسك.

– سأحاول.

عادت السيارة أدراجها، صدمت بخفة أحد صناديق القمامة ثم زادت السرعة. رآها نافع تبتعد وهو يقف في وسط الشارع الخاوي على عروشه ما عدا من دكان واحد ما زال مفتوحا. عاليا في السماء، يتثاءب القمر المكتمل. تحلق أبخرة الوادي النتنة في الهواء راسمة حدود المحمية التي يسكنها المنسيون.

أسرع نافع بجانب سياج وتسلق منحدرا صغيرا حتى بلغ بيوت المعسكرات. تنبح الكلاب بشكل مسعور بحيث يخرج بعضها فجأة من الظل، بأفواه تغلي فاغرة، قبل أن تنسحب مسرعة وأذيالها بين قدميها تلاحقها أسراب الحجر.

بعد عودة الصمت، يمكن سماع بعض الرضع وهم يصرخون من وراء صفيح الأكواخ.

– بدأتُ أتساءل إذا ما لم يتم القبض عليك، قال صالح لاندوشين وهو يستقبله في مدخل كوخه.

خمسة شبان يبدو عليهم الضجر في نفس الغرفة. لا يبدو عليهم الانبساط لوجودهم بهذا المكان. تعرف نافع على أبي تراب، الملازم الأول لأبي مريم، وقد انزوى في الركن واضعا ذراعيه حول ركبتيه ووجه متجهم. بجانبه عمار

تاجر السقط وهو شارد يمدد شاشه. أما الثلاثة الآخرون فقد تكدسوا فوق ركام من الأثواب الوسخة وهم يتحادثون بصوت خفيض.

بدأ صالح بعملية التعريف :

– هذا نافع، أخ من القصبة... (وقفوا كي يحتضنوا بعضهم البعض). جيد، أنت تعرف أبا تراب وعمار... هذا عبد البصير، ابن إمام القبة، صانع قنابل متفرد. قنبلة الشهر الفائت تحمل توقيعه. هذا مقاتل، من حي بلكور... الأخير اسمه سهيل وهو جندي هارب. لقد شارك في عملية مركز القيادة البحرية.

جلس نافع قبالة أبي تراب.

– قهوة ؟ اقترح عليه مضيفه.

– أنا أطحن ما يكفي من السواد الآن.

جلس صالح على ركبتيه وربت على ركبة نافع.

– يبدو أنك غاضب، ما الذي يجري ؟

– لك أن تقوله أنت لي. كنت مرتاحا حيث كنتُ أنشط، لماذا وضعوني تحت تصرفك ؟ هل تمت ترقيتك إلى رتبة أعلى أنت أيضا ؟

– ألا تعلم ؟ قال أبو تراب متعجبا.

– أعلم ماذا ؟

– تعلم بالتعديل. تم عزل الشيخ يونس وأرسل إلى الجبل. الآن إبراهيم الخليل هو الذي يتولى الإشراف على مجموعات غرب مدينة الجزائر. لقد عَيّن أبا مريم نائبا له واستدعى أجراءه بالقبة. لقد استولى على المعقل الذي بنيناه بأيدينا.

– احترس من كلامك، نصحه صالح.

– إنها الحقيقة.

– هذا لا يمنع. إنك تزرع النميمة بخصوص الأمير.

– ما هذه الحكاية ؟ تساءل نافع وهو يصرخ. أين ذهب الآخرون ؟

– داخل القِدر، رمرم أبو تراب. حافظ إبراهيم في هذه الفترة على العناصر الذين يخدمونه وأبعد كل «المعاندين». كان يجب أن تشاهد الوقاحة التي استعملها لطرد الشيخ يونس. إنه يدفع للتقيؤ. ثم هاجم شبكة الدعم وأعدم مسئوليها الأساسيين من أجل تفاهات.

– إنها ليست تفاهات، قال صالح محتجا. كانوا كلّهم كلابا دون أي احتراس.

– ما الذي تعرفه أنت ؟

– أعرف بأن الأمير دوما على حق. هذه هي القاعدة. عمي باشي كان وغدًا يستحل لنفسه زوجات شهدائنا على مرأى ومسمع كل حي باب الواد... أما الآخر، الأحدب، لم تكن لعبته واضحة. يتواجد في معظم الأوقات في المكان

الخاطئ. أما عمر زيري فكان يأخذ من خزينة الحرب لبناء فيلا بحي الشراقة.

قفز نافع واقف :

– هل مات عمر زيري ؟

– بالطبع، قال صالح مبتهجا. كنت هناك حاضرا متعت ناظري. ذهبنا للقائه في خلفية حانوته فوجدناه منشورا أمام طاولة يأكل بشراهة مثل الخنزير. كانت وليمة ملكية له وحده بها ديك رومي محشو بالفطر، سلال الفواكه الغالية الثمن، موز كولومبيا، تفاح فرنسا، تحلية مستوردة. بالمختصر كانت الحفلة في الدُوار. يكرم نفسه بالولائم وهو يرتاح ساخرا. كان منشغلا بامتصاص أصابعه ولحس شفتيه المتدليتين حتى أنه لم يسمع صوت قدومنا. فجأة أحس بوجودنا فتجمّد في مكانه. حين رفع عينيه، كاد يختنق. قال له إبراهيم : «واصل الأكل أيها الخنزير وخاصة امضغ جيدا. لا أريد أن أجد عظمة في حلقك. سيقلقني إذا ما أفسدتُ سكينتي فوقه». ما الذي أحكيه لكم يا إخوة. كرة وضيعت هواءها في لحظة. عمر زيري «القومان»، منحرف المنحرفين، تبرز في سرواله. أقسم بأنها الحقيقة. في ثانية واحدة عفن خراؤه الجو. في الأول حاول نفي ما نسب إليه وحين رأى أن ذلك لم يثر شفقة أحد، جثا على ركبتيه وتوسل الأمير كي يصفح عنه. كان مشهدا رائعا. وكأن برميلا ممتلئا بالدم الدافئ

ينفجر على الأرض. أنا لا أخفيكم : تمالكت نفسي كي لا ألحسه. كنت في أوج انتشائي. لقد مرّ عليه زمن وهو يعتبر نفسه الرب.

نظر الرجال الخمس إلى الشيخ بذهول وسخط في نفس الوقت.

مسح نافع عرقه بمنديل.

همهم بحلق ناشف :

– هل باستطاعة أحدكم أن يشرح لي ماذا أفعل هنا ؟

– قل له أنت، رمرم أبو تراب متوجها نحو صالح.

– لماذا أنا ؟ هل نسيتَ لسانك على أديم النعال التي كنتَ تبوسها ؟

قمع أبو تراب غضبه وبدأ يشرح :

– لقد باشر إبراهيم في عملية تصفية الجماعة السابقة التابعة للشيخ يونس وخاصة أولئك الذين لا يستحملهم.

تذكّر نافع الاختلاف الذي أدى به للتعارض مع إبراهيم الخليل في يوم جمعة داخل حانوت عمر زيري. أنهكه تعب كبير.

– إنه شخص حقود، قال عمار. لا يوجد شبيهه أبدا. تلاسنتُ أنا وهو منذ سنوات في بيشاور بسبب قصة تافهة حول غطاء سرير كان بحاجة إليه لم أعد أدري لماذا. قلت له

ما عليه سوى أن يستعمل غطاءه. شتمني فشتمته. غادر ولم يغفر لي ذلك أبدا.

أكمل أبو تراب حديثه :

– أما أنا فيلومني لأنني أطلقت النار على الشاعر سيد علي بالرغم من أن أبا مريم كان هو القائد آنذاك.

– هنا يجب أن أوقفك، قاطعه صالح. لقد أمر الأمير بذبح ذلك السافل لكنك أردت أن تلعب دور الفاهم.

– تبا، لقد كان منشد القصبة. تلقى الشعب الضربة بصعوبة حين سمع بأن من يعشقونه قد قتل بالرصاص. إن ذبحه يعني...

– مجرد كلام. لم يكن سوى ساحر أغبياء. كان ينوّم الناس على برازهم. طالب الأمير برأسه. كان من الواجب تقديمها إليه هدية والسلام.

– نعم، نعم، قال نافع حانقا وهو يرفع يديه في الفضاء. أريد فقط أن أعرف لماذا وضعت تحت تصرفك.

– أنا الدليل.

– وماذا أيضا ؟

– سأقودكم الليلة إلى الجبل.

انتبه نافع إلى عيون الآخرين وهي ترمقه فعرف أن الرعب قد فضحه. ضغط على فكيه كي يتمالك النفس.

– ما دامت الأشياء هكذا، تنهد بعزم شديد. متى تكون المغادرة ؟

– ساعة قبل حظر التجول.

– يجب أن أزور أمي التي لم أرها منذ وفاة أبي.

– هذه مشكلتك. أما أنا فسأقلع على الساعة العاشرة ليلا. لن أنتظر المتباطئين.

نظر نافع في ساعته ثم وقف :

– سأعود في الوقت.

– سأرافقك، قال أبو تراب.

شاخت كثيرا الأم وليد. أشهر قليلة كانت كافية كي تهدّ ما لم تستطع أن تهده السنوات الطوال من التقلبات والأشغال المنزلية. من محياها النير سالفا رغم الخيبات، من وجهها كأم، المريح سابقا، لم يبق سوى قناع مشقق، غامق وحزين، وعينان باهتتان ترقبان مثل شمعتين داخل غرفة للموتى.

حزن نافع كثيرا. لم تعد المرأة العجوز قادرة على الوقوف. يدها المتشبثة بمقبض الباب تفضح الدوخة التي في رأسها.

من المؤكد أن عمر زيري قد نسي أن يسجلها في قائمة العائلات المعوزة.

وقفت نورة في رواق البيت واجمة دون حراك. عودة أخيها لا تفرحها أبدا. غرزت نظرها في الأرض وهي تدوّر ضفائرها. أما سعاد وأميرة فاختبأتا في المطبخ منكمشتين في الزاوية. لم تلتفتا إلى أن ظلهما يبدو خلف الستارة.

– ماذا تريد ؟ قالت له الأم.

– ألا تريدينني أن أدخل ؟

– كان يجب ألا تغادرنا.

– كنت أثأر لأبي.

– إنه لم يطلب منك شيئا.

– ما كان عليه أن يفعل. لقد قتله الطاغوت. أما الباقي فيخصني أنا.

– أنت الذي قتلته. كان رجال الشرطة في إثرك. جاؤوا لتفتيش المنزل فاحتج أبوك. أروه ما كنتَ تخفي داخل خزانتك. وضع يده على صدره وخرّ ميتا. لم يثبت قلبه. لم يحتمل أن يرى ولده، ابنه الوحيد الذي وضع فيه كل آماله، يصبح إرهابيا.

طأطأ نافع رأسه.

في أسفل السلالم وقف أبو تراب يراقب الشارع. في الظلمة شيء ما تحلل.

– جئتُ لأخبرك أنني متوجه إلى الجبل.

– ما كان ضروريا أن تتعب نفسك.

– أردت فقط أن أودعك.

– لقد حصل.

عض نافع شفته.

أحس بثقل الحزن على قفاه.

– لن أحصل على بركاتك على ما يبدو.

– تكفيك بركات شيوخك.

حرّك رأسه يمنة ويسرة، دار على عاقبيه ثم توقف عند الدرجة الأولى.

دون أن يلتفت، قال بعد صمت متأمل :

– أنا لست إرهابيا.

سمع الباب يغلق خلفه.

نزل السلالم.

مثل ملعون يهبط إلى جهنم.

.17

أقلهما أحد المتعاطفين إلى خارج المدينة في عربة مرتعشة قبل أن يسلمهما لسائق آخر كان بانتظارهما في مزرعة معزولة. بعد فترة من الراحة وكأس قهوة، صعدا على جرّار وتغلغلا داخل البساتين حتى بلغا سفح جبل مليء بالأشجار. توقفا لإكمال بقية الرحلة مشيا. من ربوة إلى حفرة، بلغا سهلا لامعا يضيئه القمر وكأنه في منتصف النهار.

– ابتداء من الغد يمكنك أن تغني بصوت مرتفع، قال صالح لاندوشين. الليل هنا ملك لنا. لا يتجرأ ابن فاجرة من الطواغيت أن يغامر بالوصول إلى هذه النواحي.

من الرجال السبع، صالح فقط كان مسلحا ببندقية صيد مقطوعة الماسورة. مشوا ثم مشوا وقطعوا المداشر الصامتة القابعة في ظلمة الأموات، بالنوافذ العمياء والأبواب المحصنة. يمكن تخيل الفلاحين وقد أمسكوا بأطراف أغطيتهم، لا ينامون سوى بعين واحدة وقلب على الجمر.

كل طقطقة، كل صرير بريء يهاجم أحشاءهم مثل قطرة من البارود.

صالح يعلم ذلك.

ذاك هو السبب الذي جعله، لا ندري بأي حكة مَرَضية، يسمح لنفسه بإطلاق النار في الفضاء عند مخرج إحدى المزارع.

– أريد أن أرعب الحريم، قال مازحا رغم استهجان الجميع لفعلته. من المريح أن تذكّر الشعب المسكين بأن أباهم يحرسهم بدقة.

مع أولى بارقة في الصباح توقفوا وسط غابة، حول أحد الينابيع. طلب صالح منهم أن ينتظروه. عاد بعد حوالي عشرين دقيقة وهو يحمل كيسا مملوءا بالمئونة.

– سنأكل حتى التخمة، وَعَدهم.

نشر على صخرة أطعمة معلبة، قارورات الماء المعدني وبعض علب البسكويت.

– لا تحملقوا فيّ بهذا الشكل. أنا ساحر. أستطيع أن أخرج لكم نساء من قبعتي إن شئتم.

استعاد رصانته وشرح لهم بأن المكان كان في السابق مركزا للعبور. كان الإخوة يخزنون فيه المئونة المخصصة للجماعات المسلحة في تنقلاتها.

أكلوا وناموا في الغابة الصغيرة.

في اليوم الموالي بعد الظهر قادهم صالح عبر متاهة لانهائية من النباتات. كانت الأرض وعرة وعدوانية. تعب الرجال تعبا شديدا واشتعلت أرجلهم نارا وتشنجت عضلاتها. رفض الشيخ السماح لهم بأخذ قسط من الراحة. يبدو أنه يتمتع باختيار أصعب الطرقات كي يغيظهم.

– هذا يخرجكم قليلا من المخابئ الناعمة أليس كذلك ؟ ضحك هازئا.

حينما حل الليل لحق بهم داخل واد سحيق وهم يتمسكون بجذور الشجيرات. في قمة المنحدر ظهر بيت حقير متهدم وهو تحت الحراسة المشددة من طرف شجرة الأوكالبتوس.

عبأ صالح بندقيته :

– هناك ضوء. سأذهب كي أرى ما يحدث. إذا سمعتم إطلاقا للرصاص، أهربوا بسرعة.

كان من الواضح أنه كان يبالغ لكن رفاقه هدهم التعب ولم يتمكنوا من التعليق. أغلق صالح عينيه، ذكر اسم الله وصلّى بطريقة كوميدية ماهرة. كان سيبدو مضحكا في أماكن أخرى لكن هناك شيء ما فيه يقول أنه مارق. إنه على وعي بالإفلات من «القصاص» لذا كان يفسح المجال أمام

ريائه وهو يعلم أن ذلك يزعج الآخرين جدا. قد يكون ذاك هو هدفه بالذات : أن يجعل نفسه مكروها.

زحف داخل الدغل ودار خلف السياج كي يواجه البيت من الجهة الخلفية. نبح كلب ثم...

بعد مرور عشر دقائق بدأ صبر نافع ينفذ :

– ما الذي يفعله ؟

– أتمنى أن يكون قد قتل، رمرم أبو تراب. لقد مللت تصرفاته.

بدتْ عجوز فوق الهضبة وأشارت عليهم بإتباعها.

– هذا فخ، قال عبد البصير قلقا.

– إنه دوما نفس الأبله الذي يقوم بنفس الأشياء.

بالفعل. تمدد صالح لاندوشين على سرير حقير وقد علق سترته على مسمار وحذاء القماش على حافة النافذة. كان قد غسل وجهه وها هو يحتسي كأس الشاي بمسحة المتأثر وبابتسامة ساخرة.

– هذا جد مسلّ، رمرم أبو تراب.

في وسط الغرفة جلس شيخ مقرفصا. جمجمته البيضاوية تلمع تحت ضوء مصباح زيتي. له من العمر ثمانين سنة على الأقل، بوجه جاف ويدين كبيرتين بانت عظامهما. لبس أسمالا بالية وانبعثت منه رائحة التبن المندى.

– تمنيتُ أن أقدم لكم خروفا، قال بصوت مرتجف. لم يبق لدي سوى بعض الكسكسي وقطع اللحم المجفف. أنا وزوجتي لا نملك شيئا. سافر أبناؤنا إلى المدينة للبحث عن لقمة العيش وها المطر يعادي حقولي.

– حاج، هذا غير مهم، طمأنه صالح بتكبر. لا شيء ألذ من صحن كسكسي ليسترجع الإنسان قدراته... قل لي : أين هم الطواغيت ؟

– مَن ؟

– الجنود أو رجال الدرك.

ابتسم الشيخ. فمه الخالي من الأسنان يقسم وجهه مثل جرح قبيح.

– لم أر واحدا منهم منذ الاستقلال. حتى في زمن ديغول لم أكن أرى الكثير منهم. هذا المكان هو بوابة الآخرة. لا أحد يأتي أو يروح. أنا وزوجتي ليس لنا جيران. نعيش تقريبا من أجل أنفسنا.

أحضرت العجوز إناء من الفخار يطفح بالكسكسي المغطى بالبخار.

تناولوا العشاء، أطفئوا الظمأ، ارتاحوا...

قال صالح مقررا :

– هيا، إنه وقت المغادرة.

طلب من مضيفهم أن يدلهم على الطريق المؤدي إلى مزار سيد البشير. كرتل هندي تسلقوا طريقا ترابية وعرة لا يقدر عليها سوى الماعز. فجأة ضرب صالح جبهته.

– لقد نسيت حقيبة يدي في تلك الدار.

أمر الشيخ بإيصال المجموعة إلى المزار وقفز يجري نحو الكوخ.

لم يبق من مزار سيد البشير سوى كومة من الأحجار بعد أن دمرته قنبلة تقليدية. تم فتح قبر الوليّ وحرقه. توجد فوق النعش حروف كتبت بالأحمر تشير إلى أن جماعات «الجيا» قد مرت من هنا. أخذ الشيخ حجرا وقربه من فمه، قبّله برهبة دينية ثم وضعه فوق كتلة من الحشائش.

وصل صالح لاندوشين وهو يلهث. طلب من رفاقه مواصلة الطريق باتجاه الأمام من دونه هذه المرة بدعوى أن لديه تعليمات هامة يبلغها للمضيف. حين اختفى الآخرون في جوف الغابة، التفت صالح نحو الشيخ الثمانيني قائلا له:

– حاج، شكرا على الكسكسي.

– لا، هذا واجب.

أخرج صالح سكينته وضربه ضربة صاعقة في الخصر ثم ضربة أخرى في البطن. فتح الشيخ عينيه واسعتين مندهشا وسقط على ركبتيه.

– لماذا يا ابني ؟

– يا أنتَ، هذا ما تبحث عنه، حاج. الطريق إلى الله صعب.

أرفق الكلمة بالحركة. أمسك الشيخ من جلدة رأسه ودفع بها إلى الخلف وذبحه في العمق حتى أن السكينة كسرت فقرات العنق. تلقى صالح صفعة من رشاتِ الدم المندفعة وتلذذ بها عن آخره وهو متأثر كما لو أنه تلقى صعقة من نشوة الجماع.

في الصباح، لاحظ أبو تراب الدم المتجمد العالق بصدر ويافطة الدليل.

– هل قتلتَه ؟

فتح صالح ذراعيه :

– التعليمات واضحة : يجب على كل واحد عدم ترك أي أثر خلفه.

– لماذا في هذه الحالة أبقيتَ على العجوز ؟

دوّر صالح عينيه بخبث :

– لكن لم تكن لدي أي حقيبة.

ثم انفجر ضاحكا.

أحس نافع بأن صالح لاندوشين يدور بهم في نفس المكان. منذ ساعات و هم يتقدمون داخل الغابة الكثيفة عبر أشجار باسقة وأحراش متشابكة. يموت ضوء النهار فوق أوراق الأشجار مما يقلل من الرؤية. الناحية متوحشة. لا أثر للجوالين أو الصيادين هنا. لا شيء غير جذوع الأشجار المحاصرة بالحشائش البرية ذات المجسات الطويلة، غير الشبكات الشوكية المعلقة في الفراغ، غير الشجيرات المتهدلة التي تخفي الأفق. يندفع صالح لاندوشين داخل النباتات برشاقة ابن عرس والبندقية مترصدة. واصل تضخيم المخاطر وعمل بالتشويش على الآثار وتضليل رفقائه الذين يلهثون ويترنحون في الخلف وقد حفرت الخدوش أجسادهم.

في اليوم الموالي وصلوا إلى مركز للأصوليين أقيم في طيات أحد المنحدرات الشديدة. هو مركز طبي يتشكل من ملاجئ تحت الأرض مموهة بأغصان كثيفة. سيد هذا المكان طبيب نحيف، أصلع وحاسر النظر، تساعده أربع ممرضات بثياب العمل. قرابة عشرين محاربا بالزي الأفغاني يضمنون حماية المكان.

مجيء صالح لاندوشين أعاد الحياة للمكان الذي كان لحد الآن غائصا في سبات عميق. انطلق المزاح من كل جهة متبوعا بالمعانقات والاحتضان والتربيت على الظهر. صالح يعرف الجميع بما فيهم البنات اللواتي كن سعيدات جدا لرؤيته.

رأى نافع الجرحى ممددين على أسرة المخيمات داخل الملاجئ الأرضية. بعضهم يستغلون فترة نقاهتهم فتوزعوا هنا وهناك، بعضهم على دعامات بدائية وبعضهم يحلمون تحت الأشجار. هناك رجل قوي مقطوع الرجلين جلس على باب الملجأ يقرأ صفحات من القرآن. حيّاه نافع لكن المعوق لم يرد. رفع كتابه عاليا بعض الشيء كي يختفي خلفه. فتش نافع عن شخص يعرفه من بين الرجال الذين تجمعوا في قعر الغابة دون جدوى. منحوه جفنة أرز ثم رموه للنسيان. أكل في صمت و انعزل في زاوية من الغابة منزوعة الأشجار ثم نزع حذاءه كي ينعش رجليه. كانت جواربه تقطر دما. شمّر سرواله إلى ما فوق الركبة وطرح رجليه أمام الشمس. دون أن يحس، غفا قليلا.

حين أفاق وجد رجلا يجلس إلى جانبه وبين فخذيه بندقية خفيفة. الشخص يرتدي سترة المظليين وسروال كتان باهت اللون. لحيته المتشعثة ضاعت في شعره الأبيض المتهدل على ظهره.

– ما كنت أتوقع أن ألقاك في هذا المكان، قال له.

استوى نافع قليلا مستعينا بمرفقيه وتفرس وجه الرجل :

– هل تعرفني ؟

– بالتأكيد. إن لك مصفاة في مكان رأسك.

فتش نافع كومة الذكريات دون جدوى. للرجل نظرة مألوفة غير منسجمة مع ابتسامته لكن من المستحيل تحديد مكانه.

– الحرب تغيّر الرجل أليس كذلك ؟

استوقفه الصوت لكنه لم يكشف عن سره.

اصطاد الرجل رصاصة من داخل علبة الخراطيش، وزنها بيده، أغلق قبضته عليها، أرسل نفسا ثم فتح يده. لقد اختفت الرصاصة.

– يحي سائق عائلة بن سلطان ! صرخ متعجبا وقد ارتاح لوجود أحد معارفه القدامى. الموسيقي الذي كان يخرج الحوريات من آلة المندولين.

– بلحمه وعظمه.

تعانقا وهما يضحكان.

– لقد اخترتَ في النهاية أيها الممثل ؟

– لست الوحيد على ما يبدو. هل تنشط بهذه الناحية ؟

– لا أنا عابر فقط. لقد أحضرتُ شخصا مجروحا، وأنت ؟

– لا أدري. كنت أنشط بوسط مدينة الجزائر لكن الأمير الجديد قرّر التخلي عن خدماتي. كيف هي الحال في هذه الناحية ؟

أبدى يحي وجها كئيبا :

– أشتاق إلى المندولين آلتي.

– هل التحقت بالجيا منذ مدة طويلة ؟

– حوالي سنتين. اشتغلت بسيدي موسى لكن جماعتي تحطمت فلجأت إلى منطقة الشريعة.

حفر حفرة في الأرض مستعملا ماسورة بندقيته :

– كانت الأشياء بشعة، بشعة للغاية.

– هذا ما كنتَ تريده.

– كلنا نعتقد في البداية أننا نريد شيئا ما. في الحقيقة، نحن نأخذ ما يتبدّى لنا ونقتنع به.

فجأة غاص يحي في المرارة. كي يسترجع ذاته، مدّ يده إلى يافطة نافع وأخرج الرصاصة ودحرجها داخل كفه بأسى كبير.

– بالرصاصة تكون اللعبة أثقل نوعا ما. في لعب الخفة لا يوجد أحسن من قطعة نقدية... ثم إن المزعج مع وجود بندقية هو أن موسيقاها تنقصها الأصالة. سأعطي كل ما أملك مقابل آلتي، المندولين. أعرف أنني في السابق كنت ساخطا. كل مكبوتاتي كانت تفسد علي تقييمي للوضع. لو كنت أعرف أن الأشياء ستقودني بعيدا إلى هذا الحد لكنت اقتنعت ببقائي الشخص التافه الذي كنته...

صمت برهة، تأمل رصاصته ثم عاود الكلام :

– أنا لم ألتحق بالجبل عن قناعة. حين بدأوا بقنص الناس الذين ليس لهم علاقة بالنِّظام أشعلت الغمازة وتوقفت على جانب الطريق. لم يكن هذا ما كنت أنتظره من الثورة الإسلامية. لكنهم لم يتركوا لي الخيار. ابني الأكبر كان يناضل في الفيس. تم نفيه إلى رقان. قلت لنفسي أن هذا مقدّر وكان يجب أن يحصل وقبلت الوضع. الواقع أن رجال الدرك لم يتركوني وشأني. كانوا يأتون كل أسبوع إلى المنزل ويقلبونه رأسا على عقب ويقتادون ولدا أو اثنين ثم يعيدونهما وقد أشبعوهما ضربا. ذهبتُ كي ألتقي الضابط لكنه نعتني بالأصولي القذر ورماني داخل زنزانة. لقد عذبوني. حين أفرجوا عني، لم أجد الوقت الكافي لأضمد جراحي حتى حلّت الشرطة محل الدرك. أصيبت زوجتي بمرض السكري وتحولت حياتي إلى جحيم. بعد أشهر من الاضطهاد ما عدت أحتمل. أخذت ولديّ وصحتُ : «الموت للأشرار». لكل شيء حدود، خو. الموت أهون من تحمل بعض التجاوزات... ابني الأصغر قتلوه في سيدي موسى. لفظ أنفاسه بين يديّ. أنت ليس لديك أطفال.

– لا.

– لن تستطيع أن تعرف ما يعنيه ذلك. لو جاءني ملاك ليعزيني لكنتُ سآكله نيئا. لقد جننت من الحزن. كنتُ أصاب بالسعار كلما رأيت بزة نظامية. أحرقت حوالي

عشرة منها في سيدي موسى. كلما ذبحت منهم كلما جاءتني الرغبة في المزيد. لا شيء يسكن ألمي. لم أكن أنتظر الليل كي أباشر العقاب. كنت أهاجم في وضح النهار، في منتصف الشارع، تحت أضواء الشهرة، خو. كنت مصرا على وضوح الأشياء. يا هُمْ يا أنا. ابني الثاني جُرح فنقلته إلى الجبل. وضعوني على رأس سريّة من حوالي خمس عشرة من الرجال المحنكين. أحرقتُ قدرا من المدارس يساوي قدر المزارع، هدمتُ الجسور ودمرتُ المصانع، أقمت الحواجز المزيفة ودفعت بدواوير بأكملها إلى النزوح... ثم لا أعرف لماذا اتهمت إحدى المقاوِمات ابني بالتحرش الجنسي. أكيد أنه مجرد بهتان. كان ابني تقيًا في العمق ولم يكن يلمس حتى السبايا اللواتي نغنمهن في الغزوات. كان لديه الإيمان. يقاوم عن قناعة. رفض الأمير الإصغاء لكل كلام. تم إعدام ابني في نفس الصبيحة التي تم فيها إطلاق سراح أخيه الأكبر الذي التحق بنا بعد تحريره من مركز الاعتقال. هناك مصادفات لها من الشراسة المطلقة ما لا أستطيع فهم حكمتها حتى اليوم. لم أعد أعرف أين أنا فتم تجريدي من السلاح كإجراء وقائي. لولا ابني الأكبر الذي كان يعرف عضوا مهما في المجلس لتمت تصفيتي أنا أيضا. أنا اليوم أتكفل بمرافقة الجرحى. هذا ما وصلت إليه.

صمت نافع.

لم يكن يدري ما يقول.

عاود يحي اللعب بالرصاصة :

– عجيب، إنها المرة الأولى التي أحكي فيها هذه القصة لشخص. هنا، بوح واحد يقود إلى المقصلة.

فهم نافع بأن السائق السابق لعائلة بن سلطان أصبح فجأة مرتابا منه. ربّت له على فخذه :

– لا تخف مني أبدا.

– معذرة...

– لا تعتذر أيضا.

زال الضغط عن يحي.

– إن الأشياء أقوى مني. كان علي أن أخرِج كل هذا...

– واصل يا صديقي فأنا بئر بدون قاع.

حط أمامهما عصفور مرقش ثم قفز وسط الحشائش. تأمله يحي بتمعن. لم يتمالك نفسه، فأطلق تنهيدة وقال :

– في إحدى المرات داخل حقل، أمسك سيد علي الشاعر سرعوفة. كان يوما ربيعيا جميلا. انتشرت الأزهار في كل مكان. أراني سيد علي الحشرة وطلب مني إذا ما كنت على علم بأن السرعوفة في الأصل كانت ورقة. قلت بأنني أجهل ذلك. قص علي سيد علي حكاية ورقة متمردة ومتعجرفة لم تتقبل حادثة أن يتم التخلص منها من طرف غصنها فقط لأن الربيع أتى. رأت نفسها أهم من أن تترك نفسها للتعفن

بين الأوراق الميتة التي تهينها الرياح وهي تجرجرها في الوحل. ثارت ثورتها وأقسمت ألا تعتمد سوى على نفسها مثل الكبار. أرادت أن تعيش كل الفصول. وقعت الطبيعة أسيرة حماسها وإرادتها القتالية فحوّلتها إلى حشرة كي ترى فقط النهاية التي تود الوصول إليها. هكذا ولدت السرعوفة الشرسة الصامتة، الطموحة أكثر من أي وقت مضى. أحست بالمعجزة تستحوذ على دماغها فبدأت تهاجم الغصن وتدوسه بأقدامها. أصبحت قاسية، صيّادة وسيّدة. أعماها إفلاتها من العقاب إلى درجة أنها، لإثبات شيء ما، راحت تلتهم كل شيء في طريقها بما في ذلك أولئك الذين يحبونها.

طار العصفور.

– حكاية حيوان جميلة، اعترف نافع.

– نعم... كان علينا أن نستمع إلى الشاعر.

– يا أنتَ، أيها الشاب الوسيم، نادى صالح لاندوشين بصوت مرتفع من فوق إحدى الصخور. تعال سنغادر.

لبس نافع حذاءه وأسدل طيات سرواله ووقف.

– علي الذهاب الآن، يحي. سعدت كثيرا بلقائك.

– إلى اللقاء أيها الممثل. إذا ما مررت من هنا مستقبلا فابحث عن عصام أبي شهيد. هذه كنيتي الحربية. أنا بكتيبة الفرقان. سأسعد برؤيتك.

– لا أستطيع أن أعطيك معلوماتي لأنني لا أعلم وجهتي.

– هذا ليس بمشكل. سأعرف.

تصافحا متفادين النظرَ إلى عيني بعضهما البعض بسبب قوة الانفعال ثم تعانقا في صمت لمدة دقيقة.

– انتبه لنفسك يا نافع.

– وداعا.

تخطى نافع كومة أحراش وأسرع الخطى ليلحق بمجموعته. حين التفت من الصخرة ألفى يحي واقفا في المكان المنزوع الأشجار ويده مترددة على مستوى الكتف.

لن يلتقيا بعد ذلك أبدا.

يُقتل يحي في أواخر الصيف. حين انزعج الأمير من ألعابه وخفة يده قرّر إعدامه بدعوى الشعوذة.

.18

لم تستطع ضيعة سيدي عياش الصمود طويلا أمام الابتزاز الأصولي. قربها من السماء لم يعزز صلواتها. سمحتْ بالسرقات والمضايقات والتجاوزات وقبِلتْ الفقر كي تطعم معذِّبيها، لكن في اليوم الموالي للمجزرة التي لحقت بعائلتي حارس القرية وأحد متقاعدي الجيش، كدّس القرويون أطفالهم ورزم الثياب فوق عربات مرتجلة واختفوا في الطبيعة.

استولت الكتيبة على أكواخهم وأقامت مركزا للقيادة وصادرت الممتلكات المهجورة.

تحيط الغابات والأخاديد بالضيعة التي بنت عشها في قمة جبل شديد الانحدار يطل على كامل المنطقة ويسيطر على الطريق الوحيد الذي يدور بالجبل. كانت مخاطر حدوث عملية عسكرية في المكان قليلة جدا. أقل حركة معادية يمكن كشفها عن بعد. قنبلة واحدة تحت جسر توقف كل تقدم.

تضم الكتيبة حوالي مائة فرد يقودها شخص اسمه شرحبيل، أمير ابن المنطقة، توجد قريته على بعد مئات الأمتار في الأسفل. كان شخصا قوي البنية بشعر يشبه صوف الغنم، مزوّد بقوة هرقلية جعلته قادرا على صرع حمار بلكمة واحدة. هو أحد قدامى المحاربين في أفغانستان ولديه جماعة تتألف في معظمها من أقاربه وجيرانه، يحكم دون منازع في مقاطعته، يجمع في يده وظائف كلاّ من رئيس البلدية والقاضي والموثق والإمام. يكن له السكان كل الاحترام. بفضله استطاع كل فرد أن يأكل حتى الشبع. حين ينهب شرحبيل مراكز التموين العمومية يقوم بتوزيع ثلث أرباع الغنيمة على الفقراء والأقارب. في الشتاء حين يحوّل حمولات كاملة من قارورات الغاز فإنه يأخذ بعض العينات فقط للاستعمال الشخصي أو لصناعة القنابل ويهدي البقية للقبائل الموالية له. كان يعتبر من «الأسياد». كان يهتم بالحالة الصحية للشيوخ والأطفال، لا يحرق أبدا مدرسة إلا وفتح بالتوازي مع ذلك مدرسة قرآنية، يخلّص الدواوير من فلول النظام ويفتن الشبان بفضل خطبه الجذابة. كان الناس يتقدمون إليه بخصوماتهم، بانشغالاتهم، بنزاعاتهم التي كان ينكب على دراستها باهتمام كبير. قراراته لا تقبل الطعن. يبارك الزيجات والختان، يحكم في قضايا الطلاق، يحل خلافات قديمة طبقا للشريعة وبالتالي يقرّب السكان من التسيير الإداري للدولة الإسلامية الوشيكة.

كان شرحبيل عادلا. الكاريزما التي يتمتع بها لا يعادلها سوى تشدّده. يمارس نفس الترهيب على أعدائه ورجاله سواء. عيّن أخاه نائبا له، أحد أقاربه مفسرا للنصوص، أحد أصهاره سكرتيرا للوحدة وابن أخته أمينا للمال. حرسه المقرب يتشكل من الأقارب وأبناء البلدة. يستفيد هؤلاء من امتيازات غير محدودة. كان من حقهم جلب الزوجة والعيش مع أسرهم في الضيعة. يسكنون أحسن الديار ولهم الحرية في التحرك والاستهلاك كما يشاءون. باقي الكتيبة يجمع خليطا من الجنود الفارين، من الهاربين من السجون، من المنحرفين الرافضين للخدمة العسكرية، من المعلمين والمهندسين المطرودين من المدن، من الفلاحين الشبان الذين تم جلبهم قسرا خلال الغزوات وتجنيدهم بالقوة. هذه الفئة من المقاتلين كانت خاضعة إلى قواعد صارمة، تدفع إلى الحذر، تدفع حياتها ثمنا لأتفه الحماقات وكان عليها تدبّر شؤون مأكلها.

لم يتم استقبال نافع ورفقائه من قبل الأمير لأنه يكره سكان المدن ويعتبر نقلهم إلى كتيبته نوعا من الإجراء التأديبي. أرسل عمّارا ومقاتلاً نحو كتيبة أخرى وحافظ بجانبه على عبد البصير الذي شكر صالح قدراته على صناعة القنابل وقدم أبا تراب وسهيلا ونافع وليد لنوع من العريف المتشدد المهتم بالتفاهات والذي منع عنهم السلاح وأرسلهم للقيام بأعمال السخرة في المركز. أعلمهم بأنهم لا يملكون حق الانضمام

إلى الحرس المقرب أو الاختلاط مع المحاربين وبأن مهمتهم تتلخص في تزويد الوحدة بماء الشرب الذي عليهم جلبه من منبع على بعد كيلومترات من المصب، في بناء ملاجئ أرضية إضافية لحالات التراجع المحتملة، التكفل بالبغال وأحصنة الكتيبة وعرَضيا دفن الجثث. بالموازاة، عليهم القيام بالتدريبات على القتال بالأيدي على غرار المجندين الجدد ومزاولة دروس التوجيه التي يقدمها المفتي كل صباح ومساء.

كان سهيل ينتظر استقبالا أقل عجلة من هذا لأنه كان ضابط صف في البحرية الوطنية وله سمعة داخل مركز قيادة البحرية. لقد خان وحدته وقتل في طريقه أحد رفاق المرقد وجنديين وفرّ بسلاحه وأمتعته متيقنا من أنه سيحصل بسهولة على وسام أمير. ألم تكن بحوزته ثلاث رشاشات، قطعتين من السلاح المتطور، صندوق قنابل والقائمة الاسمية الكاملة لكل الضباط ؟ ألم يعده الإخوة بإرساله إلى القاعدة الخلفية في أوربا إذا ما سمحت الفرصة بذلك، وفي انتظار ذلك لن ينشط سوى في المناطق الحضرية ؟ لم يحضّره تكوينه في البحرية لصرامة المخيمات وامتحانات الأراضي الوعرة. كان يعمل مستقبلا للمكالمات الهاتفية، يجلس في دفء حجرته، يافطة سترته البحرية على أكمل وجه ويداه رقيقتان مثل يدي لاعب البيانو. وصوله إلى سيدي عياش بقي شوكة في حلقه. يرى بأنه تعرض للاستغفال.

بالإضافة إلى الإحساس بالاغتراب الكلي الذي يحيره، فقد نما لديه الخوف من رجال الكتيبة. كانوا وسخين ومقززين بحواجب متهدلة ونظرة مسمومة. يأكلون كالوحوش، ينامون كالوحوش، لا يضحكون أبدا، يُصلون في كل الأوقات بأحذيتهم وبدون وضوء ولا يتحدثون سوى عن أنصال سكاكينهم.

سهيل أخبر نافع عن نيته في العودة إلى مدينة الجزائر. نصحه نافع بالهدوء والانتظار. صبر سهيل أسبوعا. في صبيحة أحد الأيام تم الإبلاغ عن غيابه في التجمع. كان الركض نحو الغنيمة. كانت الحفلة في القرية. وكانت رحلة صيد.

في اليوم الموالي، في ساحة الضيعة، حين نهض الجميع لصلاة الفجر ألفوا سهيلا عاريا ومعلقا من رجليه على وتد، جسده مبضع وقد ذبح من الأذن إلى الأخرى.

أقسمَ نافع ألا تكون نهايته مثل تلك النهاية.

– هذا واضح وضوح الشمس، سهل مثل صباح الخير، قال مفتي الكتيبة للمجندين الجدد المتجمعين حوله في المنطقة الخالية من الأشجار. لا وجود لمائة طريق، هناك طريقان فقط : طريق الله وطريق الشيطان. إنهما متعارضان تماما. ننطلق من نقطة معينة. بقدر ما نتقدم فإننا نتقدم من

أحد الطرفين ونبتعد عن الآخر. لا نستطيع أن نبقي على رجل في المشرق والآخر في المغرب. هذا غير ممكن. حين نختار وجهتنا يجب علينا إتباعها. هناك من المسارات ما كان بالشكل الذي هو عليه، من الضيق بمكان حتى لا يبقى أمامنا سوى حيزا صغيرا لوضع قدم أمام الأخرى. لا نستطيع الدوران على أنفسنا من دون تغيير نظام الأشياء، من دون إسقاط معلم وبالتالي الضياع.

وافق المجندون الجدد في صمت.

أسدل المفتي لحيته الحمراء المخضبة بالحناء بيد شبه شفافة، نقر بإصبعه على كتاب ضخم للأحاديث وأضاف بصوت غنائي حاد:

- يجب ألا تعتقدوا بأننا محظوظون. الله ينير كل المخلوقات من دون استثناء. هناك من البشر من يدرك سخاء الله وهناك من يرفضونه مفضلين في ذلك الغياهب والعمى. لنا السعادة لأننا من الجماعة الأولى، لأننا تخلينا عن الوهم البراق، لأننا اخترنا طريق العري حيث كل شيء جلي من دون مساحيق أو تمويه. في الآخرة، يعيد الخدّاع قناعه ويتعرى كل متبجح. لن يُعرض أمام نظر العلي القدير سوى حقيقة أعمالنا خاما كما هي. في ذلك اليوم، لن نخجل من عرينا. إنه اليوم دليل صدقنا، إنه يشهد بأننا لا نخفي شيئا... هنا نحن جنود الله. أولئك الذين لم يلتحقوا بنا سيصابون بالتعفن في ظلال الشياطين. هؤلاء ليسوا من اهتماماتنا تماما

مثل الأعشاب الضارة التي يجب إبادتها. سيكون مشوارنا يسيرا ولن تستطيع أي جذور خبيثة اعتراض سبيلنا. الجيا هي عائلتنا الوحيدة. الأمير هو أبو الجميع، هو دليلنا وروحنا. إنه يحمل في ذاته النبوءة. فلنتبعه بعيون مغمضة. سيقودنا نحو جنان المنصفين، وبعدها، لنا بهاء الأبدية...

«إذا لم يكن منجبك الطبيعي إلى جانبك لم يعد أبا لك. إذا لم تكن أمك إلى جانبك فهي لم تعد أمك. إذا لم يكن أخوتك وأخواتك وأخوالك وأعمامك إلى جانبك فأنت لم تعد واحدا منهم. أوكلوهم للنسيان، تآمروا ضدهم فإنهم أغصان عليلة عليكم تشذيبها كي تحافظوا على شجرتكم العائلية.

«بين الله وبين آبائكم لا مجال للاختيار البتة. نحن لا نقارن بين السماء وفقاعة الهواء. نحن لا نختار ما بين الكون وذرة غبار حقيرة.

رفع أحد المراهقين يده معكرا صفو اللحظة. بعض الجالسين بجانبه ضربوه بالمرفق كي ينزل يده. رفض الانصياع وحرك إصبعه حتى قبل المفتي الاستماع إليه.

– نعم يا ابني ؟

ارتبك المراهق.

– هل لديك سؤال تريد طرحه يا ابني ؟

– نعم، شيخ، تلعثم الوافد الجديد. كيف يجب أن يكون موقفنا مع الأقارب الذين يناضلون... في... في الجيش الإسلامي للإنقاذ؟

انتشر في الغابة همس عامر بالنقمة لكن سرعان ما هدأ بحركة من يد المفتي الوقورة.

– الجيش الإسلامي للإنقاذ هو عش للعقارب يا ابني. إنهم بغاة، أي راضين. إنهم يلعبون كل أشكال التواطؤ ويغازلون حتى إبليس إذا ما سمح لهم بأن يلمسوا ركنا من عرشه. هؤلاء الناس متقلبين وديماغوجيين ومهرة في الحسابات. إنهم انتهازيون مقنعون في ثوب الخيّرين، ذئاب في جلد أغنام، قارئين للسعد ولا يملكون من هدف سوى تنويم الضعفاء فوق الأشواك وإيهامهم أن المعجزات تفقس أثناء النوم. إنهم أبشع من الطاغوت الذين هم حلفاء لهم. إنهم يوظفون الدين من أجل غايات تجارية ويفاوضون من أجل الحصول على حصتهم من الكعكة مع اللصوص الرسميين ولا يهمهم الباقي...

«الجيا لا تفاوض أبدا ولا تجلس إلى طاولة مع أعداء الرسالة الإلهية. لن يغريها أي تنازل، أي اقتسام، أي امتياز... نحن لا نعرف كيف نكون دبلوماسيين في الوقت الذي يتعرض الله للقدح. سنقاتل أمما كاملة من أجله إذا ما اقتضى الأمر ذلك. وهذا البلد المريض الذي هو لنا، الذي يتعرض للجفاف بسبب معاصينا، إنه يعاني، نعم، ويستحلفنا

كي نخلصه من نير المارقين ومخالب قساة القلوب. قسَم الجيا هو : الحرب ولاشيء غير الحرب حتى القضاء النهائي على الطاغوت والبغاة والعلمانيين والماسونيين والمستضعفين... خاصة المستضعفين لأنه لا وجود لطريقة أخرى للنهوض بالعالم ما عدا تخليصه من كل من يقبل بالخنوع.

– إذن علينا أن نعامل أقاربنا الذين يناضلون في الجيش الإسلامي للإنقاذ كأعداء، استخلص المراهق الفكرة بكل راحة.

– بالتأكيد.

– هل رأيتَ ؟ قال لأحد الجالسين بجانبه وقد أسرع لإدخال مرفقه بين كتفيه. ماذا كنت أقول؟ (ثم قال للمفتي :) هل نستطيع محاولة إقناعهم بإتباعنا ؟

– إنهم لا يستحقون كل هذا الاهتمام. كم عدد عناصر الجيش الإسلامي للإنقاذ ؟ بعض المئات من قطاع الطرق، بعض الجماعات من الفزاعات التي لا تصلح سوى لإخافة أطفال يصابون بالأرق. لسنا بحاجة إليهم. إنهم بالنسبة لنا مجرد أموات يتقزز حفّارو القبور من دفنهم. مصير الأمة بين أيدينا نحن. أعدادنا آلاف في الجبال وملايين في المدن، نحن شعب الغد. الدليل موجود حولكم : كل هذه الجبال التي لا يغامر الطاغوت بالمجيء إليها، كل هذه الحشود التي يصيبها الرعب حين تسمع صوت خطانا، كل الجادات التي ترتجف

تحت انفجارات قنابلنا، كل المقابر التي تستقبل يوميا جيف خونة الوظيفة... هل لديك شك ؟

– لا، شيخ.

– لم أسمع.

– لا... شيخ.

– كل من يشك في كلامنا يشك في كلام الله وهذا سيرى حمم جهنم الملتهبة تحوّل صرخاته إلى مشاعل لا تخمد نيرانها أبدا. احذروا الشيطان يا إخوتي. إنهِ يتربص بأدنى استكان بداخلكم كي يرسو في أعماقكم. على المجاهد أن يكون متيقظا. لا تشكوا أبدا، أبدا، أبدا في أميركم. الله هو الذي يتحدث بلسانه. لا تفكروا أبدا، لا تتوقفوا أبدا عند حركاتكم وأفعالكم، أطردوا أفكاركم من رؤوسكم، تردّدكم من قلوبكم، اكتفوا بكونكم الذراع التي تضرب واللواء الأخضر والشعلة. تذكّروا جيدا هذا، تذكروه ليل نهار : إذا ما صدمك شيء وأنت تزرع الموت والنار فانتبه إلى أنه الشيطان الذي كان يعلم بانتصارك القادم وبالتالي يحاول أن يصرفك عنه.

أغلق المفتي كتابه بخشونة. لقد انتهى الدرس. المدرب العسكري الذي جلس خلف الأحراش ينظر في الفراغ، وقف ضاربا يديه بعضهما ببعض. نهض المجندون الجدد، شكلوا مربعا وقد وضعوا القبضات على الصدر والركبتين

في الذقن وغابوا داخل الغابة وهم يصرخون كما المظليين. المدرب هو عريف مظلي سابق، بهراوة يدوّرها في الهواء ويصرخ عاليا في المتباطئين طالبا أن تكون الصفوف متراصة. الأناشيد المرعدة التي تطلع من أفواه ذئابه الصغار تخلق وقعا مع اهتزازات التراب.

اقترب أبو تراب من المفتي الجالس على زربية وهو منشغل بتأمل تكشيرات وجهه في قطعة مرآة.

– لم أسمع خطيبا ساحرا مثلك، معلم.

غمز المفتي بعينه، مخاتل مثل الجن:

– لأنك في السابق لم تكن تولي أهمية لفتح أذنيك.

– فعلا، معلم، أكّد أبو تراب على ذلك بطريقة خبيثة. كلامك جرعة سحرية تسكن الروح.

– للأسف، إنها لا تمنع كلماتك من أن تكون مزيفة، أخ أبو تراب.

– أنا صادق.

خبّأ المفتي قطعة المرآة في جيب سري داخل قميصه ووقف. يفوق أبا تراب ونافعا بطول رأسين وذاك ما منحه زيادة في العجرفة.

– أيها الأخ العزيز، لو كنتُ أعشق غناء جنيات البحر لكنت أهيم الآن على رصيف صخري قبالة البحر. بفضل

الله، سمعي متأهب وثاقب. ينذرني دوما قبل الوقت. لو جعلني القدر ملكا وأنا بهاتين الأذنين لما غار قصري من المدافن ولعلّقتُ المتملقيَن من ألسنتهم ولقضيتُ على المتواطئين بسرعة لا يتوقعونها. هل تعرف لماذا ؟

– لا، معلّم.

– لأنني لا أستمع أبدا إلى كلمة دون أن أفتت الفكرة التي تحركها. يصطدم التملق بجلدي ويرجع تماما كما تفعل حبيبات البَرَد حين تصطدم بالدرع. عليك إذن أن تعفي نفسك هذا النوع من الدوران وادخل مباشرة في الموضوع.

– جيد، معلم. كنتَ تقول منذ قليل أنه من واجب المجاهد ألا يشك أبدا في أميره.

– تماما.

– هل نستطيع أن نشك في مجاهد ؟

رمى المفتي ذيل عمامته فوق كتفه وتسلق منحدرا صغيرا.

– ما الذي تريد الوصول إليه، أخ أبو تراب ؟

– وصلت أنا والأخ نافع إلى الكتيبة في فصل الربيع وها هو الصيف يوشك على الانتهاء ولم يتم تقديم أي سلاح لنا. بعض المجندين الجدد تم تكوينهم وإرسالهم لتدشين العمل الحربي. أنا ونافع نواصل الاعتناء بالبغال والجلوس من دون

أي شغل آخر رغم أننا أثبتنا قدراتنا بمدينة الجزائر وهذا بتصفية مجموعة من الكفّار.

– لماذا في نظرك لم يحتفظ بكما أمراؤكما السابقون ؟

– واجبنا هو عدم البحث عن السبب. ربما فشلنا في شيء ما سهوا منا وإذا كانت هذه هي الحال فإننا نريد أن نستدرك أنفسنا. لقد كنت الملازم الأول لأبي مريم. من المؤكد أنني خيبت ظنه دون علم مني لكنني ما خنته أبدا. أتمنى الآن أن يضعونا أمام الاختبار. إذا ما تعثرنا ثانية، فليتركونا هنا على الأرض للأبد. إن أعمال السخرة يا معلم تهيننا كثيرا. الحرب على أشدّها ونود أن نشارك فيها. حين رفعنا السلاح كان من أجل النصر أو الموت.

– تحدثوا إذن مع الأمير.

– تستطيع أنت الدفاع عن قضيتنا خيرا منا. لك سمع ثاقب وأنا على يقين من أنك تدرك صدقي.

بلع المفتي ريقه وتفرس وجهي الرجُلين. أخرج لا ندري من أين سبحة كهرمانية وفرط حبيباتها مطرقا.

– حسنا، سأرى ما أستطيع فعله. في انتظار ذلك، عودا إلى جانب البغال. أحيانا تكون رفقتهم أكثر تنويرا من رفقة الخيل.

– هكذا تريدان إقناعنا بأنكما ترفضان الخمول ؟

كان أبو تراب ونافع وليد في كوخهما يحضران الغذاء حين طلع صوت عبد الجليل خلفهما مثل الرعد. أوقفا حركاتهما ووقفا لأنهما تفاجآ لزيارة المحارب الأكثر جرأة في الكتيبة.

كان عبد الجليل عملاقا حقيقيا إلى الحد الذي لم يكن من السهل إيجاد حذاء على مقاسه. طويل وعريض، أحزمة الخراطيش في شكل سلاسل على صدره والساطور معلق في الحزام. له القدرة على قتل فرائسه بغمضة عين. يطلع للتو من كابوس بشعره المجدول الذي يذكّر بالميدوسا وصوته الذي يذهب أبعد من صوت البندقية. حين يتفقد رجاله في الاستعراض تنطلق منه رائحة الحيوانات الجارحة فتبعث فيهم الرعشة من الرأس حتى القدمين.

لم يكن عبد الجليل من لحم ودم فقط ولكنه كان الموت تمشي على قدمين.

هو من أقارب شرحبيل، يحكم الفصيلة المتنقلة التابعة للوحدة، تلك التي تطلع في أي مكان، في أي لحظة، مبيدة مثل الوباء، صاعقة مثل البرق.

– لقد كلفني الأمير كي أرى ما أستطيع أن أستخرجه من سارقين مثلكما.

– إنه لشرف أن نخدم تحت أوامرك، صاح أبو تراب.

– أنا لست أصما.

اضطر للانحناء كي يدخل الكوخ.

تفقد زوايا الغرفة وقلب برجله سريرا حقيرا، جلس على ركبته أمام القدر ورفع الغطاء :

– ماذا تطبخان لنا ؟

– مرق باللحم.

– أنا لا أقصد هذا البراز بل أردت ما يدور في خلدكما.

وقف، أخرج ساطوره من الحزام وضرب به راحة يده.

تجمد نافع.

قاوم أبو تراب كي لا يوهى عزمه. من المؤكد أن مصيرهما متعلق بالثواني الموالية. ركز بشدة، تنفس جيدا وأجاب بصوت واضح وصارم :

– ليس لدينا سوى رأس واحدة، هي رأس الأمير.

رفع عبد الجليل شفرته وجعلها تلمع تحت شعاع الضوء الداخل من ثقب في الحائط. حركه بمهارة أمام أبي تراب قبل أن يمررها تحت ذقن نافع.

– الخوّافون المزيفون لا يوجد أمامهم وقت كي يتعفنوا هنا لدي. ما أعرّضهم إليه هو شيء لا يتخيلونه أبدا.

– لا يستأهلون أقل من ذلك، وافق أبو تراب وقلبه يخفق بجنون.

مدّ عبد الجليل شفتيه وراحتْ عيناه الهائجتان تنقبان هنا وهناك بحثا عن أدنى تشنج مشبوه أو نظرة مترددة. بعد أن رضي، بلع ريقه ومرّ أمام الرجلين وهما في حالة استعداد يشبهان اثنين من الطيارين الانتحاريين وهما يقفان من أجل صورة للأجيال القادمة.

أعاد الساطور إلى غمده وغاب دون أن يقول كلمة.

أطلق أبو تراب تنهيدة انثنى لها نصفين.

أما نافع فأخذ وقتا أطول كي يدرك أن كل شيء انتهى.

بعد بضعة أيام حصلا على بندقية صيد، كمية من الخراطيش وصدرية واقية من الرصاص مصنوعة من مطاط العجلات المملوء بالرمل وتم إلحاقهما بفصيلة عبد الجليل.

أول خرجة قادتهما إلى مسافة خمسين كيلومتر في منطقة بين جبلين حيث نصب الجيش معسكرا. وعد شرحبيل بتخصيص استقبال جيد للطاغوت في مقاطعته. قنبلتان تقليديتان في وسط الطريق الترابي، وجماعة تقارب الثلاثين محاربا مترصدين داخل الغابة كانت كافية كي يقضي الكمين على سبع عشرة من الجنود ويغنم حوالي عشرة رشاشات وما يعادلها من الصدريات الواقية من الرصاص،

بعض صناديق الذخيرة، جهاز إرسال لاسلكي، وكذا تدمير شاحنة وسيارة جيب.

حين عاد الأبطال إلى سيدي عياش كان من حقهم التمتع بحفل لا ينسى. نجاح العملية أفرح حتى أمير الناحية –أي قائد مجمل كتائب المنطقة بأكملها– الذي جاء على رأس حرسه كي يهنئ شخصيا عبد الجليل.

– البلاد ملكنا الآن، صرّح بلغة مهيبة.

كان يقول الحقيقة. البلاد كانت في يد الأصوليين المسلحين. تتنقل الكتيبة حيثما تشاء بكل طمأنينة. تصادر شاحنات النقل التي يتم إيقافها عند إقامة الحواجز المزيفة، تسرق تلك المركونة في مآرب البلديات، تستهزئ بقوات الأمن، تقوم بالاستعراض داخل القرى في وضح النهار بروؤس أرفع من الرايات. يتم استقبالها كل مرة بالتشريفات، يحتفون بها، يهتفون لها. بمجرد ما تظهر في الأفق حتى يجري الأطفال لاستقبالها ويدع الفلاحون عرباتهم من أجل تحيتها في حين تطلق النساء الزغاريد التي تملأ الريف. أما الأعيان فلا يبخلون أبدا بالوسائل. يصففون عشرة كباش مشوية في الساحة مصحوبة بقصعات الكسكسي والعسل والشاي الأخضر. ترتفع الأناشيد الدينية في العلا ويرتعش الضعفاء انفعالا ويسكبون دموعا من الفرح باقتراب المنقذين. في بعض الأحيان يمتطي شرحبيل فرسا بيضاء. في تلك الأيام، بعمامته الوضاءة وبرنسه الحريري والبابوج

المطرّز بالذهب فإنه يجسد إماما مبعوثا الذي يكفي ظلّه كي يُحدث هستيريا جماعية. بعد المأدبة التي يستدعى إليها الجميع، يتم تجميع السكان حول المسجد ويبدأ المفتي في سرد نظرياته. يحدثهم عن بلد مدهش به أضواء وهاجة ويكون فيه الناس أحرارا سواسية، حيث السعادة قطوف دانية... بلد نسمع فيه ليلا همسات حدائق الرحمان مثلما نسمع كل صباح صدى نداء الأذان.

يهرب الخريف أمام تقدم الكتيبة. بنى شرحبيل لنفسه أسطورة. كانت له زوجة في كل ضيعة وكنز في كل جبل. يتم جمع أموال التبرعات في الأكياس ويتم تهديد وابتزاز القرى المترددة. أحيانا، من أجل إخضاع الحلفاء أكثر وإدخال «العصاة» في الصفوف يتم القضاء على عائلة بأكملها هنا وحرق بعض المزارع هناك، عن طريق الصدفة. إن وجد دوار لا سبب لمعاتبته، فإنهم يخرجون له حتما أحد الأعيان غير المرغوب فيهم أو أحد المواقف الذميمة بهدف معاقبة سكانه. أجهزة المذياع والتلفزيون ممنوعة ويتعرض أصحابها للجلد. تتم ملاحقة المتآمرين والأئمة العنيدين والوجوه الرمزية سالفا والنساء غير المستقيمات وأولياء الطواغيت. هؤلاء يتم ذبحهم، تقطيع رؤوسهم، حرقهم أحياء أو تقطيعهم وعرض جثثهم في الساحة.

بالموازاة فإنهم يقومون بمطاردة فلول الجيش الإسلامي للإنقاذ من أجل إبعادهم عن المراكز والمناطق الحساسة وبهذا

يتحقق عزلهم عن قواعد الإمدادات لتجويعهم ودفعهم للسجود أمام الجيا. تندلع المناوشات التافهة هن وهناك. البغاة أقل تجهيزا وأقل حماسا ولذا فهم يهربون بسرعة تاركين وراءهم مخابئهم ووثائقهم. أحيانا، حين تتم محاصرة فريق منهم فإنهم يسلّمون أسلحتهم. يتم استعبادهم قبل أن يرسلوا إلى القبر.

في حين أنه أثناء عمليات التمشيط التي كان يقوم بها الجيش في البداية للتحسس كان يعود خائبا. وحدات الجيش ثقيلة جدا، كانت تفضح نفسها منذ البداية وتصل دوما إلى الأماكن بعد فوات الأوان. لم يكن على شرحبيل سوى الميلان على جانب كي يترك العاصفة تمر قبل مهاجمة الوحدات المعزولة عند رجوعها من العمليات. بفضل فضائل عبد البصير يتم زرع الألغام، تفخيخ السيارات التي تترك عمدا في المكان لتُلحق بالعدو خسائر دون الاشتباك معه بالحديد.

يتعاون السكان مع الأمير. يعلمونه في الحين عن تحركات الجيش، مسالكه، تشكيلاته وأهدافه. بمجرد ما يتم نصب معسكر في مكان ما حتى يتم التعرف عليه وتقدير عدده وعدّته. مراكز الدرك التي تبنى في «سرية تامة» يتم تدميرها بالديناميت يوما قبل دخولها. أحيانا قنبلة واحدة تحوّل يوم الافتتاح إلى مجزرة. بقدر ما يستميت الطغاة في محاولة الحصول على انتصارات ومساحات أكبر بقدر ما يوسع

الجيا مجاله الحيوي. إن تصعيد عدد الاعتداءات في قلب المدن والقرى، النزوح الريفي الجماعي يضخم ضواحي المدن، الرعب المسيطر، اختطاف الأشخاص أمام نظر الحراس، الهجمات ضد الحواجز والدوريات، العبوات المتفجرة المزروعة في وسط الحظائر والأحياء السكنية العسكرية، كل هذا السيل من الضربات والإرهاق يؤدي إلى خلخلة «السلطات» ويضع بقية البلاد بما فيها الأرياف وشبكات الطرقات تحت عناية الكتيبة. نشهد إذن تقسيما للعدو الذي تتقلص سيطرته تقلصا كبيرا، وتزايدا في شراهة الأمراء الذين انتشوا بعدم تعرضهم للعقاب وراحوا يغذون طموحات مفرطة ويحلمون بإمبراطوريات خيالية.

لقد استيقظت شياطين الشقاق.

اتحد الطمع مع الشراهة.

بدأ العرش يتململ تحت مرح التحالفات وتحت تشنج الصراعات الداخلية.

في صبيحة أحد الأيام حلت حالة هيجان بسيدي عياش. باشروا الأشغال اليومية بالناحية ووزعوا أحذية رياضية جديدة على المجندين الجدد وألبسوا الجميع ثيابا أفغانية : قائد بارز سيشرف الكتيبة بزيارته. لبس شرحبيل ثيابه المخصصة للمراسيم، تلك التي يضعها في زياراته للقرى المتحمسة. تم شي قرابة عشرين كبشا. لأول مرة يختلط

الحرس المقرب من المقاتلين العاديين لإخفاء لون الوجوه القرمزي والسمنة المحرجة. في منتصف النهار وصل المتقدمون من البعثة، تفقدوا المخيم ووضعوا الحراس في كل مكان. في أواخر المساء حل الأمير زيتوني مع جيوشه المدهشة. بوجه رمادي، رفض تذوق المأدبة وأغلق الباب لساعات طوال وهو يتحادث مع القادة الأساسيين في الكتيبة داخل منزل شرحبيل. بعد انتهاء الاجتماع، غادر الضيعة في منتصف الليل.

أعلم عبد الجليل رجاله بأن فئة منشقة تتشكل من أربعمائة من الخونة تهدد وحدة الجيا.

قال وهو يصرخ متظاهرا بالتقيؤ :

– سلفيون... حقراء لا يغسلون حتى مؤخراتهم. هذا جيد، سنرى ما إذا كانت شجاعتهم تتناسب مع ما يملكون في أدمغتهم.

يتعلّق الأمر بجماعة قادة بن شيحة، حلاق من مدينة سيدي بلعباس، أعرج مصاب بداء العظمة، حكم كتيبة الغرب قبل أن يتم عزله ويحكم عليه بالإعدام من طرف المجلس الوطني. هو شخصية أسطورية، تميز بالهجمات الأكثر دموية ضد مواقع عسكرية هامة في الغرب. كان رجاله من الأفغان الخطيرين جدا. يمتلكون أحسن الأجهزة الحربية والوحيدين الذين يوجد تحت تصرفهم سلاح المدفعية

وقاذفات الصواريخ. طالب الأمير بجزء من ترسانتهم كي يسلح جماعات العاصمة. لم يرفض قادة بن شيحة الأمر فقط بل طلب بأن يتم تعيينه على رأس الجيا وهذا ما دفعه للزحف على المقر الوطني للقيادة لاحتلاله بالقوة.

جمع شرحبيل وحداته وتوجه دون انتظار نحو الغرب. وفي طريقه تبعته كتائب أخرى. مئات الرجال على ظهور البغال أو في شاحنات مسروقة أو مسلفة من السكان يقطعون الجبال ثم التقوا في ضواحي جبل الونشريش حيث ينتظرهم السلفيون بحزم.

كانت المعارك طاحنة. عشرات القتلى. نعمة غير متوقعة بالنسبة للجيش الذي استغل الفرصة الذهبية لوجود المتحاربين لتقطيعهم إربا إربا في ساحة المواجهة.

جرى الانسحاب في ظروف فوضوية عارمة. طائرات الهيلكوبتر تلاحق حشود الأصوليين والمدفعية تقطع عنهم الطرق، أما المظليين فيوقفونهم في مصائد نهمة. جُرح أبو تراب في ظهره. كان يمكن أن يموت لولا وجود نافع. عبأ عبد الجليل موتاه على مقطورات وجرحاه على البغال ووجد بأعجوبة ممرا في شبكة النار. استغرق الأمر أياما عديدة كي يتمكن من اللحاق بالكتيبة التي كانت هاربة نحو الجنوب وقد تلقت ضربات قاتلة.

تم نسيان الخسائر بسرعة ووصفت معركة الونشريس بالإيجابية. تم الانتصار على السلفيين وذاك هو الأهم. لم

يخف الأمير زيتوني ارتياحه لكنه رأى بأن المناخ ما زال مسموما. شن حملة تصفية واسعة. حكمت المحكمة العسكرية على أمير المنطقة بالإعدام للتخابر مع السلفيين، انتحال وظيفة والهرطقة. علقت رأسه على عمود كهربائي في مدخل القرية التي ولد فيها. الكثير من القادة لقوا نفس المصير. تم حل بعض الوحدات أو نقلها بطرق دموية. تمكن التعديل الحاصل من إعادة الأشياء إلى نصابها.

أصبح شرحبيل أميرا للمنطقة. كي يحتفل بالترقية، توجه نحو دوار أسرته ليعلن زواجه من قريبة له. بعد حفل الزواج كلف شيخين بالذهاب لإيجاد الجيش وإخبارهم بأن الأمير يحتضر وأن ثمانية «إرهابيين» ينتظرون في القرية لدفنه. كان الطعم لذيذا. لم يطل الوقت حتى ظهر موكب عسكري. في منعطف أحد المنعرجات المطلة على هوة سحيقة سقط الموكب في الفخ. الشاحنتان الأولى والأخيرة تعرضتا لانفجار القنابل. وجدت بقية الفرقة نفسها محاصرة فاحترقت تحت وابل الرشاشات. تم مقتل ثلاثين جنديا. تم تكديس الجرحى فوق عربة ورشهم بالبنزين وحرقهم أحياء. تردد صدى صرخاتهم في الجبل مثل جوقة ملعونة لم تهدئها لا الرياح المتجمدة ولا ثلوج الشتاء النازلة.

– أدخل، صاح عبد الجليل وهو يشير إلى جلد صوفي مطروح على الأرض.

أطاع نافع وليد. جلس مقرفصا في المكان المشار إليه وأطبق يديه على بعضهما في الفراغ بين رجليه.

كانت القاعة قليلة الإضاءة بها إناء طبخ يطلع منه بخار يعطرها بروائح طيبة. ما كان بها أي أثاث ما عدا طاولة صغيرة في الوسط. على الحيطان الجرداء توجد بعض غنائم الحرب : سيفان متشابكان، خوذة جندي معوجة، وجهاز «صهد» – قاذف صواريخ تقليدي عاطل ومضحك أخذ من وحدة للجيش الإسلامي للإنقاذ.

تربع عبد الجليل فوق منصة مبطنة، حول أصبعه سبحة، فوق كتفيه برنس الأسياد. عين على رأس الكتيبة ولذا لم يعد في حاجة إلى أن يثقل على نفسه بحمل جعبة الخراطيش والساطور. كلمته أصبحت هي القانون، صرخاته هي القرارات، وإذا كان لدينا الإيمان الكافي فإننا نستطيع بذلك أن نرى في الهالة التي تحيط به ما يشبه الخفقان الخفي لذلك الجناح الملائكي.

– كيف حال صديقك ؟

– سينجو، أمير.

حرك عبد الجليل لحيته. تلك اللحية المباركة مثل بيرق مرفرف.

بعد لحظة من التأمل أعلن :

– لقد تمكنتَ من إقناعي، أخ نافع.

أحضر أحد الشبان المقاتلين إبريق شاي وملأ كأس الأمير ثم كأس نافع وانصرف على رؤوس أصابعه.

– استرخ واشرب شايك.

بلع نافع جرعة ساخنة أحرقت حنكه ثم ثانية وثالثة حتّى احترق بلعومه. لم ينتبه حتى إلى أن المشروب من دون سكر.

– كانت لي عين عليك مذ جئت عندنا. تأملتك في الونشريس وفي الانسحاب. لقد كنتَ باسلا. لا تبدو أنك تبحث عن أهداف شخصية. باختصار، أنت شخص مترفع، متواضع وفعال. الرجل الذي أحتاجه كي يكون تحت إمرتي.

– أنا...

– لا تقل شيئا، قاطعه وهو ينهض من مكانه.

دار داخل الغرفة بيدين خلف ظهره.

– مع ذلك فيك شيء مؤسف.

وضع نافع كأسه وقد وصل إلى حدوده.

جلس عبد الجليل أمامه.

– هناك صدع في درعك، أخ نافع... شق فضيع: عيناك. إنك تخفضهما بسرعة كبيرة.

اضطرب نافع وأحنى رقبته.

– هل ترى ؟ إنك تنظر كثيرا إلى قدميك وهذا سيء للغاية. بهذه الطريقة، لن تعرف وجهتك... ارفع رأسك، أخ نافع. من له شجاعتك عليه أن يبقي رأسه عالية، عالية في السماء... هل تعرف لماذا استدعيتك ؟

– لا، أمير.

– كي أضع دعامات تحت رقبتك حتى تتمكن من إبقاء رقبتك عمودية...

– لا حاجة للدعامات، أمير.

– إذن، ارفع رأسك لأنك بدءا من اليوم ستقود سَرية متنقلة.

– أنا ؟

– هل ترى شخصا ثالثا هنا ؟... إنها سَرية قاسية لا يسهل ابتلاعها. إنها تتطلب زندا من فولاذ، وإني أحذرك. تعيينك سيثير الغيرة لدى البعض. هناك محاربون أكثر تأهيلا منك، أقدم منك، ينتظرون على أحر من الجمر من أجل القيادة. مشكلتهم هي أنني أمقت الرجال المستعجلين والطماعين. إنهم على استعداد للمشي على جثث أقاربهم من أجل إشباع طموحاتهم. وهذا ما أرفضه. هل كلامي واضح ؟

– نعم، أمير.

– حسنا. قف الآن.

وقف نافع.

وضع عبد الجليل يديه فوق كتفي نافع وسحقه تحت ثقله. كانت إشارة على احترام كبير يكنه له.

– تهاني لك، أمير نافع. سدّد الله خطاك وضرباتك. من الآن، أنت قائد. ستتمتع بالامتيازات التي يمنحك إياها القانون وستطلع بمسؤولياتك الفردية. سيتم تنفيذ أوامرك حرفيا. لا تقبل التردد ولا أي تفكير في غير محله. سيكون رجالك بمثابة أصابع اليد، لا شيء أكثر. هل فهمتني ؟

– نعم، أمير.

– أعوّل عليك كي تدخل كل هذا في أذهان مرؤوسيك. أطلب التحكم بقبضة صاعقة جازمة، أن تبقي رأسك عالية في السماء وعينيك مفتوحتين على الآخر.

– حسنا، أمير.

– لتقصم ظهر الغيورين، وفي حالات قصوى، من حقك أن تتخلص من واحد أو اثنين كي تعطي المثل للآخرين.

– أتمنى ألا أفعل ذلك.

– سيفعلها الآخرون.

وافق نافع.

أدار له عبد الجليل ظهره.

انتهت المقابلة.

لم يكن التحكم ضروريا. مرور عبد الجليل في السرية أثر على العقول ولم يجد نافع أيّة صعوبة في فرض سيطرته. الكل أبدى خنوعه ما عدا خباب –نقيب سابق في الطيران تحوّل إلى صانع قنابل–، لم تكن السرية سوى ظلا لنفسها. هزيمتها في الونشريس أعادت لها تواضعها. بعشرة قتلى وثمانية جرحى لم يكن العبوس من حقها.

قسوة الشتاء أدت إلى التقليل من المهام في الزمان وفي المكان. افتتح نافع إمارته بغزوات متواضعة هنا وهناك، بعض الحواجز المزيفة الرمزية وعاد إلى سيدي عياش للتمتع براحة المحارب.

منصبه كأمير يعفيه من جملة من الاهتمامات الوضيعة. ما عاد ينشغل بأمر سرير النوم وغطائه. هناك على الدوام خادم خنوع في إثره، على استعداد لتلبية رغباته بتلقائية جنيّ طيب.

أصبح يقيم في بيت محترم، تشتعل النار في مدفأته ليلا نهارا. في الصباح وإلى جانب الفطور الفخم، يجد الماء الساخن من أجل الوضوء.

كان أميرا.

اكتشف نشوة السلطة والاحترام. رأى ألا شيء أروع مما هو فيه. تماما مثل أولئك الذين اصطفاهم الله وهم يتجولون

في جنات عدن، ما كان عليه سوى طرطقة أصابعه كي تتبدد الأوهام. أحيانا لا يكلف نفسه عناء ذلك. يفكر رجاله في مكانه ويحاول كل واحد منهم بذل الجهد كي يحظى بلطفه وتشكيل متعته.

اندهش نافع لسهولة الأشياء والناس. انتقاله من رتبة مقاتل إلى أمير حدث بسهولة رائعة.

بسهولة سحرية.

هديل الغابة يعلن ذوبان الثلج. هدير الشلالات يغرق الصمت في سمفونيات بلورية. تطلع البساتين من المساحات الثلجية البيضاء التي راحت تتقلص شيئا فشيئا. تخضر الأرض تحت سماء حنون. حين رفع نافع عينيه على إقليمه كان بمثابة جزء من الجنة بدأ يفتح ذراعيه له. كان يعجبه الوقوف على قمة صخرة وقضاء الساعات في الإصغاء إلى أطراف معطفه وهي تصفق له تحت مرور النسيم. يقف أعلى من الجبال والرجال ولم يكن عليه سوى أن يرفع يديه في السماء كي يطير.

.19

صفير قطع الهواء متبوعا بانفجار. على بعد مئات الأمتار من الضيعة، طلعت سحابة غبار في وسط الغابة. قفز نافع وليد واقفا خارج كيس النوم وأسرع إلى الخارج. وقفت جماعة من المقاتلين بوجوم في الشارع الصغير تنظر إلى مصدر الانفجار.

– ما هذا؟

– قد يكون أحد تلامذة خباب، أمير.

قطب نافع حاجبيه. عاد إلى غرفته لإحضار منظار ثم بدأ يتقصى الريف. لا وجود لشيء مريب على ما يبدو. بدأ النهار يطلع وبالكاد تستضيء السماء. الطريق الخالي والملتوي الذي يدور على سفح الجبل يلمع تحت قطرات الندى. في البعد بدأت أضواء الضيعة تتبدد تحت انعكاسات أنوار الفجر.

– اذهبوا وانظروا ما الذي يحدث.

خرج عبد الجليل وزوجته بدورهما أمام منزلهما. أشار بيده ليستفسر عن الوضعية. صاح نافع باتجاهه يخبره أنه أرسل رجالا إلى عين المكان.

– من المؤكد أنها غلطة من طرف صانع القنابل.

حرك عبد الجليل رأسه موافقا. حين همّ بالدخول إلى البيت، سمع جملة من التصفيرات التي تشبه صوت تمزيق قطعة قماش وهي تعبر السماء. في نفس اللحظة تفجرت بعض الأكواخ الموجودة في أطراف الضيعة وتناثرت أشلاؤها. دارت الأحجار والصفائح المعدنية في عواصف من النار والغبار.

– إنها ضربات المدفعية، صاح عبد الجليل. اذهبوا إلى المخابئ في الغابة.

سقطت رشقة ثانية على المساحة وعصفت ببعض الدواب الرابضة هناك. تهاوت الأكواخ المصعوقة وسدّت الممرات الضيقة بركامها. تعالت الصرخات ونحيب النساء ثم حلت الفوضى. ارتمى المقاتلون إلى خارج الأكواخ، قفزوا من النوافذ وركضوا في مختلف الاتجاهات نساؤهم في أثرهم. تساقطت دفعة ثالثة دحرت معها قمة الجبل وأخذت في طريقها سياجا ومرآبا. يئن الجرحى تحت الأنقاض، بعضهم يسحبون أجسادهم ويتشبثون بالأسوار. دخان كثيف بني غشي الضيعة في حين اشتعلت الغابة وبدأت النار تنتشر عبر الأشجار.

في سفح الجبل ظهرت الشاحنات الأولى من قافلة عسكرية ليس لها آخر بدأت تحتل الطريق.

أمر عبد الجليل خباب أن يأُخذ فريق القنابل ويذهبوا لتفجير الجسر. النقيب السابق عبأ بعض القنابل التقليدية على البغال وغاص في الأجمة.

في الضيعة التي غطاها الدخان، واصلت العبوات هجماتها على المتأخرين التائهين بفعل الانفجارات والذين لم يكفوا عن الدوران في نفس المكان. فجأة، طلعت طلقات الرصاص في الأسفل متبوعة برش مكثف.

نادى نافع على خباب بالراديو :

– ماذا أيضا عن هذه الضجة ؟

– من المستحيل الاقتراب من الجسر، أجاب النقيب. هناك مظليين في كل مكان.

– هل أنت تهذي أم ماذا ؟

– أقول لك بأن هناك مظليين فوق الجسر. ماذا علي أن أفعل ؟

– لغّم الطرق الترابية.

– أنا في اشتباك معهم.

– ضع قنابلك في مداخل الضيعة. هذا أمر.

ظهر سرب من طائرات الهيلكوبتر خلف الجبل.

– تبا ! صرخ عبد الجليل. ما كان هذا في الحسبان أبدا.

تراجعت الكتيبة نحو الدغل تاركة وراءها الموتى والجرحى.

قامت طائرات الهيلكوبتر بسحق الضيعة. تعوي صواريخها في الهواء قبل أن تبقر كومة من البيوت. عادت من جديد كي تقصف محيط الضيعة واستغلت كثافة الدخان المحيط بالغابة كي تهبط على الأرض. نزلت منها فصائل من المظليين وأسرعوا لاحتلال مواقعهم على المرتفعات في انتظار التجمع للقيام بالهجوم.

تسمرت الكتيبة في مكانها واختفت في الملاجئ عاجزة عن الرد أو القيام بأية مناورة دون التعرض لهجمات جوية. من ناحية الجسر سكت صوت الرشاشات. أخبر خباب الأمير أن ذخيرته نفذت وأنه سيتراجع. في الأسفل راحت القافلة العسكرية تتقدم دون هوادة.

قرّر عبد الجليل قائلا :

– علينا التراجع حالا وإلا ستتم محاصرتنا كالفئران.

بقيت جماعة كي توقف زحف المظليين للحظة وتقوم ببعض مناوشات الإلهاء في حين اختفت بقية الكتيبة داخل الغابة كي تنجو من الملاحقات التي تقوم بها طائرات

الهيلكوبتر. في منتصف النهار وصلت إلى فوهة معتمة على بعد عشرة كيلومترات إلى الأسفل. أبلغ فريق التغطية أن طائرات الهيلكوبتر تأتي بالدعم وأن القافلة تنزل عساكرها على الجانب الشمالي من الجبل كي تباشر عملية التمشيط. من مكان المراقبة الذي يحتله نافع فوق صخرة مرتفعة تمكن من رؤية قوافل أخرى آتية من الشرق ومن الغرب كي تحاصر الغابة بين كماشتين.

غمغم نافع قائلا :

– نحتاج إلى معجزة.

في ظرف ساعات فقط تم إحكام القفل. مئات العساكر تجتث الأشجار، تنسف المخابئ وتحرق المؤن الموجودة بداخلها وتحتل منابع المياه. حاولت الكتيبة اختراق خطوط العدو لكن تم ردها. حاولت ثانية في أماكن أبعد لكنها قوبلت بنفس المقاومة. قبل المساء، ارتفعت خسائرها إلى خمسة وعشرين قتيلا وما يعادل ذلك من الجرحى. أمر عبد الجليل سراياه بالتراجع نحو الفوهة ونجحت الكتيبة في التسلل وسط المنحدرات ووصلت إلى مجرى النهر الذي ابتلعته الحشائش وهناك خبأت جرحاها ونساءها داخل المغارات وصعدت كي تهاجم العدو وتصرف نظره وتبعده عن الفوهة. زادت الاشتباكات ضراوة. شيئا فشيئا انحرف محور العمليات مانحا بعض الراحة للمحاربين. تقدم الطاغوت على محاور متعددة محاصرا الأماكن المشبوهة

داكا إياها بضربات مدفعية قبل تفتيشها بدقة. يمكن سماع أصواتهم عبر اللاسلكي وهم يقدمون تقاريرهم عن نتائج عملياتهم وأعداد جثث الأصوليين التي حصدوها. بفضل التصنت عليهم استفادت الكتيبة من مجال هام للحركة وربح الوقت.

– لا بد أن نصمد حتى مجيء الليل، شرح عبد الجليل. بعدها سنتقدم من خطوط العدو كي نبحث عن ثغرة.

– كيف ذلك ؟ سأل نافع وقد حبطت عزيمته.

– الأمر بسيط للغاية. نتقدم ونطلق الرصاص، إذا ما كان هناك رد فعل نتراجع ثم نعاود الكرة في مكان بعيد على الجانب حتى إذا لم نجد أية مقاومة ذاك يعني أن الطريق آمن.

انطلت حيلة الأمير. قبل طلوع الفجر حددت الكتيبة ثغرة ودخلت منها دون انتظار. أسرعت نحو منطقة مشجرة تقع بين جبلين ولجأت إليها حتى نهاية عمليات التمشيط التي دامت خمسة أيام. استطاعت الصمود رغم العطش والجوع. لم تستطع التنقل تحت سماء مرتعدة بطائرات الهيلكوبتر فانكمشت عند جذوع الأشجار ولم تتحرك، متغذية على النباتات الصالحة للأكل والفواكه البرية. حين رفع الجيش الحصار رأى عبد الجليل أنه لم يعد في الإمكان العودة إلى سيدي عياش. فقد أقام الجيش معسكرين للمظليين وعزز الطرقات بمجموعة من الحواجز.

كُلِّف نافع بالعودة إلى الفوهة لاستعادة النساء والجرحى الذين مات ثلثهم بسبب نقص الأدوية والمئونة. هنا بدأ الترحال والتشرد. غدت المنطقة عامرة بالكمائن والدوريات التي تجوب الجبال. من حين لآخر تقوم طائرات الهيلكوبتر بالتحليق فوق الغابات وقصف الأماكن المشتبهة وتنسحب مطلقة سلالا من المناشير التي تطلب من الأصوليين وضع أسلحتهم وتسليم أنفسهم. في ذلك اليوم، لمعت السماء بقصاصات ورقية حلقت كآلاف الفراشات العملاقة قبل أن تغطي أرضية الغابة. لكن الويل لمن يتجرأ على أخذ وريقة واحدة منها. بعد أن تعرضت الكتيبة للعطش والإنهاك والمطاردة من كل الجهات والصوم لمدة أيام، طلبت رخصة للالتحاق بمركز القيادة للمنطقة. رفض شرحبيل ذلك كلية. أمر عبد الجليل بعدم التنازل عن الجبل لصالح الطواغيت وتدبّر الأمر لعدم قطع الصلة مع القبائل الحليفة والتي ستتعرض للإبادة على يد الضيعات المتمردة في أول فرصة سانحة.

اختار عبد الجليل معسكرا قديما هجرته قوات الجيش الإسلامي للإنقاذ في منتصف المسافة بين سيدي عياش وقرية مسقط رأس شرحبيل. يتمحور المكان حول منبعي ماء وهو مشجر ومرتفع لكن قدرته على الاستقبال محدودة جدا. تم حفر ملاجئ إضافية وزرع الحواشي بالألغام لرد أي عدوان محتمل لأن الضيعات المجاورة معادية للجيا وتدافع

عن قضية البغاة. مرت الكتيبة بمرحلة جهنمية في ظروف حياة مأساوية. تم ترك الأغطية والملابس والأواني والأدوية والمئونة في سيدي عياش. كان عليهم البدء من نقطة البداية والاعتماد على ما هو متوفر فقط. انتهت حياة القصور، البنايات بالإسمنت، دخان المدفئات ومخزون المئونة. ملاجئ ومغارات المعسكر الجديد تمنح إحساسا بالملل المر والرغبة في العدول عن كل شيء. إنها مفتوحة على رياح الجهات الأربعة، غير مريحة تماما وكئيبة، تجعل المبيت فيها يجمد الدم في العروق. ينام الأفراد منكمشين في زاوية على الأرض بدون غطاء وبيدين بين الفخذين والركبتين محاذيتين للذقن. في الصباح، الأطراف المتجمدة اليابسة تدفع أشجعهم على الصراخ. أمام تقهقر معنويات رجاله، قرّر عبد الجليل استعادة زمام الأمور. أية محاولة للذهاب لطلب المساعدة من القرى المجاورة تبقى عملية خطيرة. مجرد وشاية تدفع إلى هجوم من طرف الجيش. أصبحت الكتيبة صغيرة ومتروكة لوحدها وبدا أنها لن تصمد أمام عملية تمشيط ثانية. أصبح نافع وسريته مضطرين للقيام بعمليات على بعد كيلومترات في المحيط حتى لا يفضح أمر قاعدة الحياة الاضطرارية للوحدة. على رأس أحسن المقاتلين، يجوب الجبال والبساتين طيلة أيام وليالي، يحوّل شاحنة في طريق خال، يسرق القطعان في الزرائب المعزولة، يجرد الباعة المتجولين من بضاعتهم ويعود إلى المخيم بعد أن يأخذ

احتياطاته للتشويش على الآثار. هاجم أيضا مركزا للمعاقين ومسجدا من أجل الاستيلاء على معدات الإدارة والكتب الدينية والزرابي.

في غضون ذلك تعقدت الأشياء كثيرا. تواصلت المضايقات العسكرية ولم تكف الجماعات المسلحة عن التراجع تاركة المجال أمام الطاغوت. بدأت الثكنات تقام في وسط الغابات وأخرى في القرى. بالموازاة مع ذلك بدأ السكان يتنصلون من القضية. تشكلت في بعض المناطق أولى جماعات الدفاع الذاتي...

في إحدى الأمسيات تم استدعاء نافع وليد من طرف أمير الكتيبة. داخل المغارة المفروشة بالزرابي المسروقة، بدا عبد الجليل بوجه مكفهر. إلى جانبه تجلس زوجته زبيدة، امرأة حديدية حزمت بدلتها العسكرية المبقعة وارتدت حذاءها الرياضي وعلقت مسدسها في الحزام. كانت فارهة، طويلة القامة. نظرتها المغناطيسية دائما تصرع نافع الذي لا يستطيع احتمالها ثانيتين. خلفها عثمان يجلس القرفصاء فوق حصير، إمام سابق بالبليدة، يظهر قلقا للغاية. قبالته، على رجلين قصيرتين وقف شخص اسمه رامول وهو يسحق أصابعه بعضها ببعض.

كان رامول هذا من تجار الغنم الأثرياء في المنطقة. تقع مزرعته في مخرج ضيعة أولاد مختار إلى الجهة الأخرى من الغابة. بلغ حوالي الخمسين من العمر لكنه يشرق صحة

داخل ألبسته الرثة النتنة. يظهر عليه جليا أنه غير مرتاح بحيث تتحرك عيناه بسرعة تحت عمامته الوسخة. صافح نافع ثم انحنى مثل الخادم.

– هل تعرفان بعضكما ؟ قال الأمير.

– نتلاقى من حين لآخر.

– إذن، يؤكد لنا سي رامول الإشاعات التي تشير إلى تعبئة جزء من المجتمع ضدنا. ما كنا نعتقده مجرد دعاية يقودها الطاغوت بدا حقيقة تجنح إلى الانتشار الواسع. إن القرى تحضّر لاستقبال الفصائل العسكرية بهدف إقامة جماعات للدفاع الذاتي. هكذا فإن دواوير مطمر، شايب، بوجرة وقبائل أولاد مختار، الرياح ومصابيح تحرض أبناءها الممسوخين على محاربتنا. حسب سي رامول، يبدو أن الطلبات للحصول على الأسلحة تودع يوميا لدى الدرك.

– صحيح، قال راموك محركا رأسه.

طرق عبد الجليل على طاولة منخفضة بأصابعه كي يذكره باحترام النظام. انكمشت عيناه حين عاود القول :

– نحمد الله على أن المرض لم يلوث منطقتنا. مع ذلك فإن الإصابات بالعدوى بدأت تظهر هنا وهناك. يصر أمير المنطقة على عدم ترك فرصة أمام هذه الجروح كي تتفشى في إقليمه. لقد أمر بمعالجة نهائية صادمة.

– صحيح، زايد رامول دون أن يصحح سلوكه وقد استنشق قبضة من الشمة. يجب ألا تعمم هذه القضية. أنا تاجر ماشية وأسافر كثيرا. ما رأيته لا يصدّق. هل تعلمون أن عدد أفراد الميليشيات بمنطقة القبائل يجعل السكان في غنى عن الجيش ؟ أؤكد لكم أن ذلك صحيح. رأيته بأم عيني. تنقلت إلى الظهرة أيضا لبيع حوالي مائة من رؤوس الغنم وهناك رأيت كذلك مثلما أنا أراكم الآن مجموعة من أفراد الدفاع الذاتي وهم يقيمون الحواجز على الطرقات. ظننت أنهم أصدقاؤنا. كان رجال الدرك يقدمون لهم يد المساعدة. هذا صحيح أؤكد لكم. إذا ما لم أره بأم عيني كما أراكم الآن ما كنت لأصدّق. أما في ضواحي تيارت فإن الأشياء أخطر بحيث يقوم رجال الدفاع الذاتي بدوريات ويقيمون حتى الكمائن. جماعاتنا لم تعد تتحرك كما في السابق. أحيانا لا يجدون ما يأكلونه...

ضرب عبد الجليل على الطاولة.

– لو كنتُ مكانك يا سي رامول لاحترستُ مما أقول.

– لماذا ؟

– أنت هنا تقوم بعملية تحريضية.

– أنا ؟

– أغلق فمك !

تراجع رامول خطوتين للوراء تحت صرخة الأمير.

– أدر سبع مرات لسانك اللعين في فمك النتن قبل أن تتلو علينا حماقاتك المبتذلة.

أحس تاجر الماشية برجليه وقد خرت عضلاتهما. تحول لونه إلى الرمادي. لم يتمكن من البقاء واقفا فجلس وهو يرتعش. تفاحة آدم تطلع وتنزل في حلقه مثل مكبس عاطل.

– حين نستمع إليك تتملكنا رغبة الاعتقاد بأن الكرة قد غيرت جهتها. لازلنا أسياد الموقف. كل هذه المسخرة عبارة عن حركات عقيمة. توجد فعلا كمشة من الخسيسين الذين اغتروا بمديح الطاغوت لهم لكن هذا لا يعني أبدا نهاية العالم. كم عدد هؤلاء الذين يريدون لعب دور الكفار بأولاد مختار ؟

– عددهم ستة، تلجلج رامول وهو يخرج من جيبه ورقة منكمشة.

– وتسمّي هذا ميليشيا ؟

– لا، سيدي. أردت تضخيم الأشياء فقط كي نأخذها على محمل الجد.

– هذا ليس مشكلك أنت.

– بالضبط، سيدي.

– هل أقلقك شيء ما في مزرعتك ؟

– لا، سِيدي.

– إذن، انسحق.

شاحبا محموما، مسح راموِل طرفي فمه بإبهامه متضائلا.

قدم عبد الجليل القائمة لنافع:

– سيدلك سي راموِل على بيوت هؤلاء الكلاب. أريد أن أرى رؤوسهم معلقة على باب البلدية.

أوقف نافع أربعة من هؤلاء الخونة الذين باغتهم في بيوتهم على الساعة الثالثة صباحا. شيخ مجاهد قديم، ابنه وحفيده ذي التسعة عشر سنة وفلاح. ربطهم بسلك معدني وساقهم إلى الساحة التي تجمع فيها السكان تحت حراسة حوالي ثلاثين من الأصوليين. أخبرهم بأن كل شخص يتسلى بطلب سلاح لمعارضة الثورة الإسلامية والله سيلقى نفس العقاب. تلا الإمام عثمان سورة ذكرت فيها معاملة الكفار شارحا للحشد بأن من واجبه الحذر من الحكام الذين حاولوا إشراكه في مؤامرات شيطانية ووعدهم بأن يوم النصر قريب وانسحب ليفسح المجال أمام السفاحين كي يقطعوا رؤوس المرتدين الأربع.

لم يفسح سكان أولاد مختار الطريق أمام الخوف بل دفنوا «شهداءهم» وأقسموا على قبورهم على ألا يخرج سفاح أصولي حيا من قريتهم. في انتظار الحصول على السلاح الذي طلبوه من السلطات، صنعوا لأنفسهم سكاكين

ومقاليع وحضّروا قنابل المولوتوف ونظموا الدفاعات عن وحدتهم. عاد نافع بهدف إخضاعهم وهو على يقين أنهم سيهربون بمجرد سماع غرغرة منه. طردوه بالحجارة وبالقارورات الحارقة.

في الأسابيع الموالية استقرت حول المعسكر ثلاث فصائل من الحرس البلدي مرغمة الكتيبة على الانتقال إلى غابة أخرى داخل البلاد.

انتشرت في الجبل إشاعة موعد انتخابي زارعة الشك والذهول: إنهم ينوون انتخاب رئيس للجمهورية. باعتبار أن الجماعات الأصولية منفصلة عن العالم -الإذاعة والجرائد كانت ممنوعة والمسموح به هو بيانات المجلس الوطني التي كانت توزع- كان هذا النوع من الأخبار ينزل كالصاعقة على معنوياتهم. في بعض الأماكن لوحظت حالات التمرد لكن تم قمعها بسفك الدماء. الاستبداد الأعمى للأمراء الذين فقدوا توازنهم بفعل انقلاب الأحداث، إضافة إلى حالة التشرد البشعة التي بلغها رجالهم المطرودون من «قلعتهم» والمحكوم عليهم بالتشرد دون هوادة للإفلات من الضربات الجوية وعمليات التمشيط، الحالة التي غدت أكثر صعوبة مع التراجع الحساس في عدد القرى الحليفة التي تفككت شبكات الدعم فيها والتي دفعت بالعصابات في غياهب ليل دامس. عاد من جديد شبح الفتنة والريبة ليسكن

أدمغة الأصوليين ويضعف صفوفهم. في كل يوم يتغيب بعض المحاربين أثناء المناداة، بعضهم تم إعدامهم لمجرد افتراضات وبعضهم فضل تسليم نفسه بالسلاح والأمتعة بدل العيش تحت ظلال سيف قاطع بالقرب من الرقبة. كل تراجع عن الواجب يبعث بالكتيبة على دروب السفر من جديد. يتعاون «التائبون» مع الطاغوت ويأخذونهم إلى حيث المراكز ويشاركون كمرشدين في العمليات العسكرية. حتى يوقف عمليات الاستسلام أمر شرحبيل بإيقاف منح الإجازات واعتبار كل محارب خارج عن مكان تجمعه كعاص يمكن «إعدامه» للتو.

– يجب عليك مراقبة عمر وهارون، همسَ أبو تراب في أذن نافع. إنهما يبدوان غريبين هذه الأيام. يميلان إلى العزلة كثيرا ولا يبتعدان عن بعضهما البعض بخطوة واحدة.

– وماذا بعد؟

– إنهما على هذه الحال مذ أطلقت طائرات الهيلكوبتر تلك المناشير علينا. حسب رأيي المتواضع، من الأحسن أن تلقي نظرة على أغراضهما.

لم ينتظر نافع سماع النصيحة للمرة الثانية. ذهب ووجد المشتبه فيهما، فتشهما ووجد منشورا للطواغيت مخبأ في كيسهما.

– ما هذا؟

ودون أن ينتظر الإجابة، أخرج مسدسه وأرداهما قتيلين برصاصة في الرأس، في وسط أفراد السَّرية وهم يتناولون الغذاء. هذا التحذير أتى أكله. قضى الرعب على النيات السيئة. يموتون على الطرق شديدة الانحدار، تقطعهم القذائف والطائرات المقنبلة إربا إربا لكنهم لم يفكروا ولو للحظة واحدة في مفارقة العشيرة. ثم أنه لتغذية هذا النوع من الأفكار الانتحارية يجب أن يكون هناك شخصان على الأقل كي يشجعا بعضهما البعض ويحضرا مخططا للهرب. المشكل أن المحارب لا يكون أبدا في حالة عزلة. أصغر نظرة، أصغر إشارة قد تجلب الصاعقة على رأسه. إنه ينعزل داخل الصمت ولا يتفوه بكلمة أبدا. يصبح انصياعه هو خلاصه الوحيد. عليه ألا يظهر الكثير من المثابرة أو الكثير من السهو. أن يكون مذعنا مثل الإنسان الآلي. يجيب حين يسمع التصفير ويتكلم حين يطلب منه ذلك.

في إحدى الاجتماعات في مركز القيادة بالمنطقة أراد شرحبيل أن يبدي تفاؤله. وعدهم بأن الانتخابات الرئاسية ستمنى بفشل ذريع وأن الشعب سيقاطع الاقتراع لأن الشعب حسب خبراء المجلس الوطني يطالب بقطيعة مع نظام المنحرفين الذين يحكمون البلاد. مع ذلك فإن التعليمات لا تستبعد تطبيق إجراءات ردعية تكون مفيدة. كان شرحبيل مخطئا. فقنبلة خباب الموضوعة في أحد مكاتب الانتخاب أودت بحياة اثني عشر شخصا وجرحت ما يقارب الستين

لكن الانتخاب حدث. أفظع من ذلك، لقد تجاوب الشعب على نطاق واسع مع كرنفال الطاغوت. كان ذلك بمثابة أبشع يوم منذ خلاص البشر. الغزوات العقابية ضد القرى، المذابح على الطرقات، الاعتداءات بالقنابل في الأسواق، كل أنهار الدم والدموع لم ترو عطش شرحبيل للانتقام.

.20

– لم أعد أطيق الانتظار، قال عبد الجليل. يجب أن أذهب إليه هناك كي أتفاهم مع شرحبيل. التكملة التي وعدني بها لم تصل بعد. لقد أصبح من المستحيل العمل في مثل هذه الظروف. شهر رمضان يقترب ولا أعتقد أنني سأتمكن بخمسين مقاتلا فقط من منع هؤلاء الخسيسين المرتدين من صوم رمضان في راحة تامة.

سوّى قميصه الأفغاني، أنزل بندقيته المعلقة ووضع أظافره التي تشبه أظافر الطيور الجارحة على كتفي نافع :

– أعهد إليك بالكتيبة. لا تقم بأي شيء في غيابي. رجالنا منهكون. سأعود في ظرف أسبوع.

– هل تحتاج إلى حرس ؟

– لا حاجة إلى ذلك. سآخذ معي حنظلة ودجانة. لوحدهما يساويان سرية. سترافقني زوجتي أيضا.

– حفظكم الله.

تفقد عبد الجليل خزائن الخراطيش بطريقة ميكانيكية وخرج من الملجأ. كان حنظلة ودجانة ينتظران على الدرب ببغل محمل بالهدايا التي ستعطى لشرحبيل. كانت زبيدة ترتدي بذلة عسكرية وهي تتلألأ مثل ملكة فارسة. طاردت نظرتها نظرة نافع دون أن تلحق بها.

– حسنا، قال عبد الجليل. إلى اللقاء. لا جدوى من إتعاب الرجال. لا إفراط قبل أن أعود. أتمنى أن أرجع ومعي سرية إضافية وإلا أنا لا أدري كيف سنوفي بتعهداتنا خلال الشهر المقدس.

– اتفقنا، أمير.

– هناك شيء آخر : عليك أن تهتم بأدق التفاصيل. الفرار يحدث بسرعة.

– لن يحدث ذلك.

التحق بزوجته وطلب من مرافقيه أن يسبقاهما.

انحدرت الشمس والظلال الممتدة تستعد لاستقبال الليل. في الغابة يسخر طائر الوقواق من الشحرور. رأى نافع قائده يبتعد. التفتت زبيدة. قالت له عيناها الساحرتان : الوداع. ابتسم. كانت أول مرة يبتسم فيها لزوجة أمير وتساءل إذا ما لم يكن ذلك فأل نحس.

بعد يومين أعلمه مشغل الراديو أن عبد جليل قد جرح. أخذ نافع جماعة من الحرس وممرضا وتحرك لنجدة رئيسه.

وجده ممددا على بطانية داخل كوخ مهجور وعلى بطنه يوجد جرح شنيع.

– لقد رأينا بيتا منعزلا وقررنا المبيت فيه، حكت زبيدة. في اللحظة التي دفعنا فيها الباب، أطلقت علينا امرأة النار وتلقى عبد الجليل كامل حمولة رصاص الصيد عن قرب.

فحص الممرض الجريح بوجه المتشائم. نظّف الجرح، وضع حوله لفافة ونصح نافع بنقل الأمير عاجلا نحو المعسكر. قاوم عبد الجليل الموت بما تبقى من طاقة اليأس. تمدد عرضا فوق ظهر البغل وهو يرتعد بالحمى ويهذي. راح النزيف يفرغ الدم لآخر قطرة. نقلوه إلى ملجئه وأوكلوه للممرض.

أعلم مشغل الراديو نافعا أن شرحبيل محاصر وأنه ليس بالإمكان إرسال طبيب.

– هذا ليس مهم، قال عبد الجليل.

قبل أن يسلم الروح أضاف قائلا :

– تبا ! عبد الجليل قتلته امرأة. حتى في الجنة ستلاحقني الحكاية.

دفنوه تحت زيتونة منفردة في أعلى الرابية. بكاه الإمام عثمان بدموع ساخنة وأقسم أن يقيم في المكان الذي يرقد فيه الشهيد نصبا سيأتي تلاميذ المستقبل في الدولة الإسلامية كي يترحموا على روحه.

تأسف شرحبيل لضياع عضو من أسرته وحثّ الكتيبة على أن تكون جديرة بتضحيته. في انتظار تعيين أمير جديد، كلّف نافع بضمان العمل بالنيابة.

– لماذا بالنيابة ؟ احتجت زبيدة. الكتيبة من حقك قانونا.

مشغل الراديو الذي قدم توجيهات المنطقة طأطأ رأسه. دعته زبيدة للانسحاب وتركها وحيدة مع نافع.

– هل تريد أن يأتي شخص آخر ليسلب منك هذه الفرصة وينزلك ربما إلى رتبة مقاتل بسيط ؟

– ما الذي تريدينني فعله ؟ شرحبيل هو الذي يقرر.

– يجب أن نعاود الاتصال به ونقول له أن لا جدوى من البحث عن قائد بما أنه موجود هنا.

– سيتهمنا بالعصيان.

– لا تتركهم يدوسونك. ستنتهي مطروحا على الأرض.

– لا تصرّي فأنا لا أريد أن أكون في الفوهة.

تقدمت منه زبيدة مثيرة أكثر من أي وقت مضى. وضعت يدها فوق كتفه ثم مررت أصابعها واحدا واحدا نحو رقبته ثم داعبت لحيته.

أدار نافع رأسه.

– لا تخفي عني زرقة عينيك، همست قائلة. إنك تحاول أن تصادر مني لون السماء الذي أفضل.

– أرجوكِ، قال نافع مرتبكا. لم يمر على موت عبد الجليل سوى أسبوع.

– ليس للأموات معرفة بالزمن.

أحس نافع بنفس ينمو في بطنه. شيء فيه ارتعش. في لحظة جاءته رغبة كي يأخذ اليد التي فوق لحيته ويضعها على شفتيه. استعاد رشده، دفع الأرملة وفر هاربا.

تمدد نافع فوق بساطه وقد تسمرت عيناه على النور الخافت الطالع من قنديل الزيت عاجزا عن التخلص من الحروق التي تركتها يد زبيدة على رقبته. مهما قامت النساء السبايا بمسد رجليه باهتمام كبير لم يسكنه شيء كما فعلت يد الأرملة. ارتجف جسده والنفس المتأجج الذي ولد في بطنه في الساعات الماضية تحوّل إلى نار. أملا في التخفيف منه، حوّل اهتمامه إلى إحدى السبايا وهي مراهقة تم خطفها خلال حملة تأديبية وكان هو الذي فضها في السابق. كانت جميلة بثديين متينين وخصر مكتنز. رغم أنه يمتلكها كل ليلة، فلا هي ولا السبايا الأخريات تمكن من إثارته في العمق كما فعلت تلك الأصابع الصيادة بكتفه ورقبته ولحيته. لقد فتنته زبيدة على الدوام. بدأ يحلم بها منذ أن رآها في صبيحة يوم ما بسيدي عياش.

تنحت ستارة الملجأ جانبا كما السحر ودخلت هي. وقف نافع بسرعة فائقة حتى ارتطمت رأسه بعارضة صغيرة.

تأملت زبيدة السبيّ. بيدين فوق الخاصرتين، قامت بطردها. انتظرت الصبيّة حتى يسرّحها سيدها.

– انصرفي، قال لها.

قامت وخرجت في الظلمة.

شبكت زبيدة يديها على صدرها وبعينين لا يمكن الصمود أمامهما، مررت نظرها داخل الكوخ ثم وقفت عند مصباح الزيت. فتحتهما واسعتين حتى غمرتا عيني الأمير.

– كنتَ تترصد ظلي سرًا وها أنت تهرب مني الآن عندما أصبحتُ حرة.

– أنا لا أهرب منك.

– إذن اقرأ الفاتحة.

– لماذا ؟

– أريد أن أكون زوجة شرعية لك.

– ألا تعتقدين بأن هذا سابق لأوانه ؟

– نحن في حرب. لا أحد يستطيع توقع ما سيحدث غدا... اللهم إلا إذا لم تعد لديك رغبة في.

– أنا ؟

– في هذه الحالة، ما الذي تنتظره كي تتلو الفاتحة ؟ قالت وهي تفتح حزامها بوقع طويل.

ضم نافع يديه براحتين متوجهتين نحو الأعلى وقرأ الفاتحة وهو يرتعش مثل طفل صغير.

هزت زبيدة شعرها الطويل المنسدل وراء ظهرها وبدأت تفك أزرار سترتها. ثدياها الفخمان جففا حلق الرجل.

– قل لي أني أعجبك يا زوجي.

– تعجبينني.

– قل لي أنك تريدني.

– أنا أريدك.

– اطف المصباح.

– أفضل أن أتأملك أولا.

ركعت على ركبتيها، شمرت جبتها، لامست بطرف شفتيها زغب الرجلين ثم تسلقت شيئا فشيئا الفخذين المرتعشين والعامرين بالعضلات.

– لقد أعجبت بك في اليوم الذي جئت فيه إلى سيدي عياش، قالت موشوشة. سحرتني عيناك الزرقاوان. لم أعش إلا من أجل السباحة فيهما ليلة واحدة مع وميض ابتسامتك في مكان ضوء القمر.

أطفأ نافع المصباح.

كانت أجمل ليلة في حياته.

– لقد فكرتُ مليا، قالت له وهي تنقر شفتيه. إذا كان ولا بد لهذه الكتيبة من أمير، يجب أن تكون أنت الأمير. يجب ألا تتنازل عن ذلك. سنغلق أفواه الجميع. يكفي أن ترغب في ذلك يا عزيزي. هل تريد أن تكون أميرا ؟

– نعم أريد.

– حسنا. يبقى علينا أن نحقق شيئا لن يكون في مقدورهم الاعتراض عليه أو التقليل من قيمته. شيء مدوّ ينسفهم مثل الإعصار. لا تقاطعني. إذا كنت تريد الذهاب قُدما فأصغ إلي.

– أنا أصغي إليك.

– يقال أن أبا طلحة يشتهي التقتيل الجماعي وأن سعادته تقاس بعدد الضحايا. إذن سنقدم له ما يريد... صه ! لدي فكرة بهذا الخصوص. كنت أريد أن أتناقش فيها مع عبد الجليل. اليوم أطرحها أمامك. هل تعرف قرية قاسم ؟

– قرية الجيش الإسلامي للإنقاذ ؟

– بالضبط. لقد رفض سكانها السلاح الذي اقترحه عليهم الطاغوت معتقدين أنه بمقدور البغاة ضمان حمايتهم. ما لا يعرفونه هو أننا سنبتلع قريتهم دفعة واحدة.

– هناك ثكنة عسكرية على مسافة أقل من خمس عشرة كيلومتر.

– لن يتدخل الجيش ما دام يعرف أن القرية تابعة للأصوليين وبدأ يرتاب من سكانها مذ تعرض عساكره لكمينين. حتى ولو تم إعلامهم في الوقت سيشكون في وجود فخ ولن يستطيعوا القيام بأي شيء قبل طلوع النهار.

– واصلي، هذا مهم.

– لديّ مخطط لا يقاوم. سنقضي على هؤلاء الحقيرين وحين يسمع أبو طلحة بأن قرية قاسم قد مُسحت من الخارطة سيريد معرفة هذا الساحر الذي كان سببا في خدعة خفة اليد. بذلك لن أتعجب يا عزيزي إذا ما رأيتك على رأس المنطقة كلها.

– هل تعتقدين ذلك حقا؟

– أنا متأكدة.

لثمتْ فمه بحنو:

– سأجعل منك زعيما، شخصية كاريزمية في الجهاد. في يوم النصر سأكون إلى جانبك كي نفتح مساحات أخرى. في الحياة يا أميري على الإنسان أن يتجرأ. العالم ملك للذين يذهبون للبحث عنه.

رفع نافع نفسه مستعينا بمرفقه، وضع خده في راحة يده حتى يصبح بإمكانه القيام بإطلالة على وجه زوجته المشرق:

– حدثيني الآن عن خطتك يا رائعتي. أنا لا أعرف السبب لكن هناك شيء يقول لي بأننا سنشتاق كثيرا إلى قرية قاسم.

بعد صلاة الفجر، أمر نافع أبا تراب كي يجمع الرجال من أجل مهمة جوهرية.

– كم نترك من الرجال لحماية المعسكر ؟

– لا أحد.

– في هذه الحالة ما الذي نفعله بالسبايا ؟

– اذبحهن.

ما كان على قاسم أن يختار هذا الجبل الشرس الضائع في أعماق الغابات. قرية نسيتها الآلهة والبشر، ستدفع غاليا فاتورة زهدها. كانت ضيعة بائسة بمساكن متداعية معوجة رميتْ بفوضى وسط الحقول من دون ممرات ومن دون مسجد، مجرد خليط من باحات الديار التي تدير ظهورها لبعضها البعض والتي لم تكن تختلف كثيرا عن زرائب الحيوانات. رغم المطر وهبات الريح، في الحقول يلعب أطفال يرتدون الرث من الثياب. صياحهم يشبه نباح الجراء. على الطريق الترابي الموحل والوحيد الذي يقود إلى الدوار تحاول مجموعة من الرجال تصليح جرّار. في أماكن أخرى

انشغلت بعض النساء في الفناء وقد غطين رؤوسهن بالخرق. بعض المداخن تخرج البخار، بعض النوافذ تصفق لكن نافع لم يلمح في أي مكان سببا للعدول عن مشاريعه.

في السماء المتورمة بسحب نحاسية، رفضت شمس المساء الظهور كأن ما سيحدث لا يهمها. بعد دوران الرعد ختمها ضوء البرق الخاطف. اهتاجت الأمطار ضد القرية دون أن توقظها على نفسها...

– لا تستثنوا لا أطفالهم ولا دوابهم، صرخت زبيدة.

انقسمت الكتيبة إلى أربع جماعات وحاصرت القرية. الفلاحون الذين تحلقوا حول الجرار لم يترك لهم الوقت كي يكتشفوا غلطتهم. أول ضربات الساطور هشمت رؤوسهم. أوقف الأطفال صراخهم. فجأة، فهموا نكبتهم وفرّوا نحو الأكواخ. كانت البداية. لا شيء سيوقف عجلة القدر. هاجم المفترسون ضحاياهم مثل غيلان الليل. السيف يضرب، الساطور يسحق، السكينة تقطع. غطى عواء النساء والأطفال على عواء الريح. تتدفق الدموع أعلى من الدم. تنهار أبواب الأكواخ الهشة تحت الركل. يقتّل السفاحون دون تأثر أو شفقة. تقطع سيوفهم للتو سباق الأطفال المجنون وتخرج أرواح المعذبين. عما قليل ستتكدس الجثث في مداخل البيوت، وعمّا قليل ستملأ الدماء برك المطر. يضرب نافع ويضرب ويضرب... لم يعد يسمع سوى السعار يدق صدغيه، لم يعد يرى سوى هلع الوجوه المعذبة. كان

حبيس دوامة من الصراخ والهيجان وكان قد ضيع تماما رشده.

حينما أفقت كان قد فات الأوان. لم تحدث المعجزة. لم يمسك أي ملَك بيدي ولم يستوقفني أي وميض. كنت هناك فجأة وقد تبددت أوهامي وبين يديّ رضيع مغطى بالدم. أنا أيضا كساني الدم بما في ذلك عينيّ. في وسط هذا المستودع الكابوس الذي امتلأ بجثث الأطفال ما عادت الأم تستعطف أحدا. أمسكتْ رأسها بيديها، غير مصدقة، متحجرة في ألمها.

في الخارج، ارتمت الجثث وسط هياكل الدواب المبقورة، في كل مكان، على مد البصر. النيران تلتهم الأكواخ وتضيء لنا الحلبة كي نتشبع برؤيتها. رائحة حرق الأموات تزيد للمأساة مسحة من نهاية العالم. كان مهولا لكنه كان مقدرا.

جلس الإمام عثمان فوق صخرة وهو يبكي. راح يرتّل :

– إذا ما لم يوجد في نظرك شيء يستحق التقدير فقل لنفسك بأنك لا تعني الشيء الكثير.

– ما الذي تخرف ؟

أشار إلى الضيعة المشتعلة بيد مرعوبة :

– تحفتنا المنجزة لا تحتاج إلى تعليق.

– نحن في حرب.

– لقد خسرناها للتو، أمير. يخسر الناس الحرب حين يقتلون الأطفال.

– قف.

– لا أستطيع.

– قف، هذا أمر.

– قلت لك ما عدت أستطيع.

وجهت مسدسي نحوه وأسقطته.

غصنا في الغابات ومشينا قسطا من الليل ثم توقفنا قليلا في مجرى أحد الأنهار. هنا، حين سمعتُ الغابة ترتجف أمام صليل سيوفنا سألت نفسي: بماذا تحلم الذئاب وهي في جحورها، بين زمجرة شبعانة وأخرى، حين ترفّ ألسنتها داخل الدم الدافئ لفرائسها المعلقة في فمها النتن كما تتعلق أشباح ضحايانا بأذيال ستراتنا.

في اليوم الموالي غادرنا ستة من رجالي، من المحتمل أنهم ذهلوا أمام بربريتهم.

لم نر معسكرنا بعد ذلك أبدا.

هجمت علينا زمرة من رجال الجيش الإسلامي للإنقاذ في مكان مكشوف. دامت المواجهة لساعات واضطررنا للتراجع.

في مكان آخر أبعد، لحقت بنا طائرات هيلكوبتر فوق إحدى القمم وحاصرتنا هناك حتى جاءت قوات الطاغوت. ضحيتُ بسَرية كي أنقذ الباقي.

حين وصلنا إلى مرتفعات منطقة الحياة، لمحنا دخانا كثيفا يتصاعد من المخيم الذي حل به جنود آخرون.

توجهنا نحو ضيعة للتزود بالمؤن وماء الشرب. استقبلنا أفراد الحرس البلدي بهيجان خالص. همنا على وجوهنا في الغابة مثل قطعان ابن آوى المطاردة، ليلا نهارا، عاجزين عن إيجاد ثغرة نهرب عبرها من شبكة العدو.

دعاني شرحبيل بالراديو :

– مرت أيام وأنا أحاول الاتصال بك، أين أنت ؟

– لا أدري.

– ما هذه الجيش العرمرم في قطاعك ؟

– إنهم في إثري.

– ما الذي جرى ؟

– لقد هاجمت دوار قاسم.

– ماذا ؟ هذا أنت إذن ؟ ما الذي دهاك، من الذي أعطاك الأمر أيها الحمار ؟ تجرأتَ على تجاوز سلطتي، أين تحسب نفسك ؟ قلت لك يجب أن تنتظر قدوم الأمير الجديد. لقد

قتل في الطريق بسبب غلطتك. ما الذي كنتَ تريد إثباته أيها الغبي ؟ كنت تريد القفز على المراحل، أليس كذلك ؟

– اعتقدتُ أنني انتهزت فرصة.

– أحمق. ما هي خسائرك ؟

– هامة.

– أريد أرقاما.

– واحد وعشرون قتيلا، سبعة جرحى وستة من المفقودين.

– لا، غير ممكن. لا يمكنك أن تفعل هذا لي. ليس لي أنا. ليس الآن. هذه ضربة غادرة، إنها خيانة. لن أغفرها لك أبدا. أريد أن أراك في مركز القيادة حالا، حالا، حالا...

امتقع وجه مشغل الراديو.

لقد بدأ الآن يرى شبحي.

– لا تعطهم فرصة لقتلك، قالت لي زبيدة ببسالة.

– إنها غلطتكِ.

– لقد أخذنا مسؤولياتنا، لنتحملها الآن. كان مخططا جيدا. كنا نستطيع مغادرة الناحية في الوقت المناسب لولا حضور هؤلاء البغاة. ثم أننا لم نتوقع رِدة رجالنا. هم الذين خانونا. لقد خسرنا شوطا وليس المقابلة.

صعقتني برودتها.

استفردت بي وأسرّت قائلة :

– لقد جمع عبد الجليل كنزاً حين كان يقود السرية المتنقلة وأنا أعرف مكانه. فيه من الأموال والحلي ما يكفينا لتكوين كتيبتنا الخاصة.

– سأذهب للقاء شرحبيل وسأشرح له.

– مهما يكون، سيتخلص منك. أرجوك لا تضيع صوابك. غنيمة عبد الجليل لا تقدر. سيكون لدينا ما يمكننا من إقامة سريتين أو ثلاثة.

– سيقضي علينا شرحبيل.

– لنعدْ إذن إلى البليدة أو مدينة الجزائر. سنشتري بأموالنا مخابئ وسنرسل جماعاتنا للقيام بهجمات ضد الوزارات.

– اسكتي، بحق الرب. دعيني أنظم أفكاري.

انعزلتُ في مغارة لليلة كاملة.

في الصباح لم أجد رجالي. ربما أعلمهم مشغل الراديو بتهديدات شرحبيل وفضلوا الالتحاق بمركز قيادة المنطقة من دوني. إنهم لا يعيبون على أنفسهم شيئا.

لم يبق سوى حنظلة لأن أخاه مصاب بالربو وهو مصرّ على أخذه للبيت. بقي كذلك علي ورفيق، وهما ابنا عم التحقا بنا منذ مدة قصيرة ولم يتمكنا من التأقلم. بقي أيضا

دجانة قائد سرية والذي رأسه مهددة بالسقوط حين أسقط أنا. وبقيت زبيدة.

– هكذا إذن، أبو تراب أعز أصدقائي يتخلى عني.

قالت زبيدة :

– لم يغادر. إنه هناك في مكان ما خلف الهضبة.

كان أبو تراب متكئا على شجرة وهو يرمي بأحجار في رزمة من الحشائش القزمة. هذه الحركة كانت حركة رجل يترك نفسه للتسيب.

جلستُ على ركبتيّ قبالته.

رفض النظر إلي وواصل رمي الأحجار في اتجاه آخر.

– ظننتك غادرت.

– إلى أين تريدني أن أذهب ؟

– لم نخسر شيئا بعد.

– ليس هذا ما اعتقده أنا.

– سنعود إلى مدينة الجزائر. فقد حدثتني زبيدة عن كنز مخفي. بمجرد أن نسترجعه، سنعود إلى بيوتنا. سنشتري مخابئ ونشكل فريقا سيكون لنا.

رمقني بنظرة مستخفة.

– هذا ما يدور برأسك : مواصلة القتال.

– لم ينته القتال بعد.

– بالنسبة لي، لقد انتهى.

– هل تريد تسليم نفسك ؟

– للطواغيت ؟ للكلاب الذين جعلوا مني وحشا ؟ أبدا. سأتدبر أمري وأحصل على وثائق كي أغادر هذا البلد. إنه ما عاد بلدي.

– أنت غير جاد.

– لم أكن جادا يوما ما، لكن اليوم، بلى.

– هل لك فكرة عن الوجهة ؟

– سأرى. أما الآن فإنني لم أغادر هذا النفق بعد.

– أبو تراب، سنواصل القتال لأن الدولة الإسلامية قادمة غدا.

– مجرد وهم ! سراب ! أنظر حولك. لقد انهار المعبد ولم يعد للشعب رغبة في سماع أي حديث عنا. تمادينا كثيرا. لم نكن عادلين. أصبحنا مجرد وحوش بشعة تهيم في الطبيعة. إننا نجر آلاف الأشباح في شكل كرات حديد. إننا مرضى وكل ما نلمسه يصاب بالعدوى. إننا لا نساوي شيئا. لا من أحد يريدنا. حتى في جهنم، سيتظاهر الهالكون والشياطين ليطلبوا من الله أن ينقلنا إلى جحيم في مكان على النقيض من جحيمهم.

– لا تقل كفرا.

– نافع، لقد تغيرتَ بشكل جنوني. أعماك الطموح. كل ما يلمع بالنسبة إليك ذهب. تريد أن تكون مدللا، موقرا، مهابا مثلهم.

اعتدلتُ واقفا :

– أمنعك من التحدث معي بهذه النبرة. كان علي أن أقطع رأسك.

– ما الذي يمنعك ؟

استرجعت وعيي :

– أنت الحليف الوحيد الذي بقي لي.

– أرأيت ؟ أنت لا تفكر سوى في نفسك.

جمعنا الأشياء القليلة التي تركها لنا الآخرون ومشينا حتى انقطعت أنفاسنا. محاصرين، لا نعوّل سوى على أنفسنا، رحنا نتقدم على حواف مدببة. كان علينا مغادرة إقليم شرحبيل بأسرع وقت ممكن. تقودنا زبيدة بخفة الهنود. استرحنا خلال النهار ثم واصلنا مسيرتنا مساء بقفزات دقيقة والالتفاف على الأماكن التي من شأنها أن تخفي كمينا. أحيانا طقطقة تافهة تؤدي بنا إلى الوجوم لساعات كاملة. نشتمّ الهواء مثل الضواري بحثا عن أي رائحة مشبوهة.

بعد أسبوع من المشي الاضطراري، ونحن نترنح من الجوع والعطش، هاجمنا مزرعة بحثا عن الطعام.

في أمسية اليوم الثامن فتحت جبال الشريعة لنا ذراعيها. كم كانت سعادتنا عظيمة ونحن ننظر إلى أضواء مدينة البليدة، أضواء الحضارة. خرجنا من الليل البهيم. بدت لنا العمارات الصغيرة في سفح الجبال أعلى من برج بابل. كانت نظرة ساحرة، عجيبة إلى الحد الذي كنا نحس رغم المسافة بسماع هدير محركات السيارات. نمنا في العراء.

في تلك الليلة حلمت بوالدي...

– نافع، حركني أبو تراب.

طلع النهار. كانت السماء زرقاء والجبل سيدا. أبو تراب يكشر من شدة استيائه :

– لقد اختفت زبيدة.

فتشنا عنها طيلة الصبيحة ولم نجد إلا حقيبتها مرمية في ثنية من ثنايا النهر وبداخلها لباسها العسكري والحذاء الرياضي.

غمغم حنظلة قائلا :

– من دون شك أن الحقيبة كانت تخفي بداخلها لباسا مدنيا. لقد غيرت ثيابها وفرت.

– لقد أغرتنا بحكاية الغنيمة حتى نرافقها إلى هذا المكان، بالقرب من المدينة. تكون ابتعدت كثيرا الآن.

صحتُ قائلا :

– فلتذهب إلى جهنم !

لكن لم يصدقني أحد.

لا مجال للعودة إلى مدينة الجزائر في الحال التي كنا عليها. ستتمكن قوات الأمن من كشفنا دون أن تطلق رصاصة واحدة. كنا بحاجة إلى حلق لحانا والتخلص من قمصاننا الأفغانية. رأينا بيتا معزولا. كانت هناك مرآة فوق الخزانة. كدت أهرب حين لمحت صورتي. كنت مصدوما. لم أعد أعرفني. لا شيء من ظلي يشبه البشر. كان ظل وحش فار من خيال معذب.

حلقنا اللحى وقصصنا الشعر واستحممنا داخل حوض تشرب فيه البهائم. خدودنا البيضاء أكثر من اللازم تظهر على وجوهنا المحروقة. ستنتظرنا مدينة الجزائر. في انتظار استعادتنا لوجوه بشرية بدأنا نقيم حواجز مزيفة على عجل في الطرق الفرعية كي نجرد المسافرين من الأموال والجواهر والثياب. سرقنا هاتفا نقالا أيضا. وخلال غزوة من هذا النوع، جلبت أنظارنا سيارة فخمة. انتهى رجل من تبديل العجلة. في اللحظة التي نزع فيها الكرك رآنا متجمعين حوله. رفع يديه في الفضاء مذهولا وهو يتراجع.

كان زنجيا ضخم الجثة، مربعا مثل الحلبة، بأنف مشوه وجبهة مصارع.

قلت له :

– ما أصغر العالم.

فتح عينيه :

– نافع ؟

– بشحمه وعظمه، حميد. ما الذي دهاك كي تتجول في هذا المكان وفي هذا الوقت ؟

تساءل ما إذا كان يستطيع أن ينزل ذراعيه أم لا.

لم أساعده.

– إننا عائدون من جنازة السيدة راجا. لقد توفيت المسكينة، البارحة. كانت أمنيتها أن تدفن في مسقط رأسها بالقرية.

– كانت امرأة طيبة.

في السيارة يوجد رجل نائم.

خبطت بماسورة المسدس على النافذة لإيقاظه.

ضحكتُ ساخرا :

– جونيور الولد الشقي. يبحث دوما عن الفساد.

حاول حميد أن يستعطفني :

– لم يتحمل الصدمة.

فتحت الباب وانتشلت جونيور من مقعده. ذهل وراح يضرب بيديه ويرف بعينيه نصف نائم. اصفر وجهه تحت فوهات أسلحتنا. صرعتني رائحة الخمر في أنفاسه.

ردد بصوت مرتجف :

– أين نحن، حميد ؟ أين أدخلتني ؟

حين أدرك خطورة الموقف، رفع يديه في الهواء.

– لا تقتلوني، أرجوكم.

– أنا نافع، ألا تذكرني ؟

اختفى حاجباه تقريبا. تذكرني لكنه لم يعرف ما إذا كان سيفرح أو سيرتعد.

هو أيضا لم أقدم له أية مساعدة.

سألني حميد :

– هل ستقتلنا ؟

– سأزعج نفسي.

مال جونيور متمسكا بالباب.

– على ركبتيك، قلت له. أنا الزعيم هذا المساء.

– نافع، أتضرع إليك. كنا سابقا أصدقاء، تذكّر الزمن الجميل الذي قضيناه معا.

– أي زمن ؟ الزمن الذي كان فيه ذاك الوغد يلعب بي، الزمن الذي كنتُ أنا فيه مجرد منشفة، مجرد ممسحة تحت حذائه ؟... اركع على ركبتيك.

فجأة وقف جونيور.

– لن أقبل هذا الأمر.

توسله حميد :

– نفذ ما يقوله لك.

– أبدا. لم يركع قط فرد من عائلة راجا لأحد مهما كان.

توسلني حميد :

– إنه لا يعي ما يقول، إنه الحزن...

– على ركبتيك يا ابن الكلب.

رفض جونيور متعنتا :

– هنا، أنت تطلب مني الكثير.

حميد تملكه الذعر :

– لا ترتكب هذه الحماقة.

– قد أكون شربت كأسا زائدة لكنني أستطيع الوقوف على رجلي. لا يهم ما داموا سيسلخوننا. إنهم مجرد إرهابيين متعطشين للدماء. لا يعرفون شيئا آخر عدا القتل. إذا ما توقف قدري هنا فلأمت واقفا.

صفعتُه.

ترنح دون أن يسقط.

– من المؤكد أنك ستقضي نحبك أيها الطفل الرضيع. لكن قبل ذلك، أقسم بأنك سوف تزحف وتلحس حذائي وتتوسلني كي أجهز عليك.

– لا تنتظر ذلك مني.

بكى حميد غيظا قائلا :

– إنه لا يدري ما يقول. لقد أذهله الحزن.

– أنا في كامل وعيي، خو. هل تريد العيش في بلاد يحسب فيها أوغاد من هذا النوع أنفسهم فاتحين ؟

صاح حميد :

– صه.

دار جونيور بجسده دورة كاملة نحو حارسه الشخصي وهو مخمور، بأصبعه غير الواثق وصوته الثخين :

– إنك تكلم فردا من عائلة راجا (قالها مستديرا نحوي). أنا لم أعتبرك يوما ممسحة. كنتَ سائقا وكنت أنا صاحب العمل. هذه هي الحياة. ما الفقر والثروة سوى واجهة. كل واحد منا يحمل شقاءه في ذاته وسواء كان يرتدي الحرير أو الندى، لن يغيّر ذلك شيئا في انشغاله. ها هو الدليل، قال وهو يفتح ذراعيه. الفقراء يتهمون الأغنياء على أنهم

مصدر آلامهم. أما الأغنياء فيرون أنه من واجب الفقراء أن يلوموا أنفسهم فقط. هذا خطأ. العالم مجبول بهذا الشكل وهذا ليس خطأ شخص ما. يجب أن نتعلم الانتظار. يصبح القضاء ملك البشاعة إذا ما لم يدسّ لعبته. لم يكن للعالم معنى لو لم يقاوم. نعتقد أننا نعرف لكن الحقيقة أننا لا نعرف شيئا. حين نرفض قبول ذلك نصاب بالجنون الخالص.

استل أبو تراب خنجره.

ضربه حميد بقبضته على الوجه، أخذ خنجره، طوقه، ووضع الشفرة فوق رقبته.

– حركة واحدة وأقتل صديقك. إلى الوراء، إلى الوراء...

أشرت لرجالي بالامتثال.

– جونيور، اصعد داخل السيارة واهرب.

– لن أتركك وحيدا مع هؤلاء الوحوش.

– تبا، أهرب. سأتدبر أنا أمري.

ركب جونيور السيارة وانطلق كالإعصار المائي.

يختنق أبو تراب. خيط من الدم ينحدر من رقبته.

قال لي حميد:

– نافع، قلت لك أن جونيور هو منّتي السماوية ولن أترك شخصا يلمسه. إلى الوراء...

التفت يمنة ويسرة.

– أدركُ أنك ألقيت فرصتك أرضا من أجل جرعة مميتة يؤسف لها.

سحب أبا تراب حتى وصل به عند حافة حفرة كبيرة، رماه بداخلها ثم ارتمى بدوره. لم يكن في مقدورنا إطلاق النار دون أن نصيب صديقنا. انتهز حميد الفرصة كي يهرب متعرجا.

هاتف حنظلة خاله.

– إنه شخص موثوق به. لقد فقد ولدا له في الجبل. سيقدم لنا المأوى في انتظار أن نخطط لمستقبلنا في هدوء.

لم يكن أبو تراب موافقا على الفكرة لكنه لم يقترح شيئا آخر.

جاء خال حنظلة ليأخذنا من إحدى الطرقات مع حلول الظلام. أخذنا في شاحنة صغيرة إلى أحد أحياء ضاحية المدينة. في الطابق الثالث، كانت الشقة ضيقة.

قلتُ:

– عليّ أن أذهب بسرعة كي أرى أمي.

– انتظر لبعض الأيام، نصحني أبو تراب. نحن لم نصل بعد.

– لن أطيل الغياب.

ثم قلتُ لخال حنظلة :

– هل يمكنك أن توصلني ؟

– أنا كلي تحت تصرفكم.

أميرة هي التي فتحت الباب.

أو على الأقل ما بقي منها.

عيناها الغائبتان لمحتاني عبورا.

– زاد وزنك.

هذا ما وجدتْ لتقول لي بعد عامين من الفراق.

عادت إلى غرفة الجلوس. شعرها مبعثر، لونها شاحب، مشيتها متوجة في فستان أسود. لقد أصبحتْ نحيفة. غدت ظل أخت عرفتها سابقا. لوت رجليها فوق وسادة مرهقة وراحت تظفر بالصوف. لم يكن من عاداتها أبدا أن تدير ظهرها للآخرين. لم تكن أميرة سوية.

كانت غرفة الجلوس غير مرتبة. المخدات مرمية على الأرض. المقاعد المبطنة بالقماش ما عادت لها ذاكرة. من المصابيح الثلاث للثريا بقي مصباح واحد يشتغل. كان البيت معتما.

- هل أنتِ وحيدة ؟

- نعم، أنا وحيدة.

- أين الأم ؟

- إنها ليست هنا.

- متى ستعود ؟

- إنها لن تعود.

واصلت حبك الصوف غير مبالية بي.

ثم رددت بصوت رتيب :

- ذهبتْ لتشتري صندلا لنورة. انفجرت قنبلة في السوق. لم يجدوا من نورة سوى شريطة الشعر.

كانت تحبك الصوف وتحبك. .

حين وضعت مسلاتها، بدت مندهشة لرؤيتي في المكان.

- كنت أظنك انصرفت.

داخل الشاحنة الصغيرة، أدركتُ بأنني لم أسأل عن أخبار سعاد.

- يا أنت، انهض.

جذبني رفيق من السرير.

كان حنظلة وأخوه واقفين في الرواق وقد أصابهما الذهول.

ما زال الظلام مخيما.

– ماذا جرى ؟

– تحدث أشياء في مدخل السلالم، قال لي أبو تراب وهو يخرج بندقيته المضخية من كيسها.

– حنظلة، أين خالك ؟

– لا أدري ؟

كان علي يتصنت عبر الباب :

– وكأنهم يخلُون العمارة، قال بهمس.

حاول أن يطل من ثقب المفتاح ثم عبر المنظار. طلقة نارية فجرت رأسه.

أطلق دجانة شتيمة قائلا :

– دين الرب ! لقد حوصرنا كالفئران.

بماذا تحلم الذئاب ؟

عما قليل ستتكدس الجثث في مداخل البيوت، وعمّا قليل ستملأ الدماء برك المطر. يضرب نافع ويضرب ويضرب [...] كان حبيس دوامة من الصراخ والهيجان وكان قد ضيع تماما رشده.

حينما أفقتُ كان قد فات الأوان. لم تحدث المعجزة. لم يمسك أي ملاك بيدي ولم يستوقفني أي وميض. كنت هناك فجأة وقد تبددت أوهامي وبين يديّ رضيع مغطى بالدم. أنا أيضا كساني الدم بما في ذلك عينيّ.

[...] هنا، حين سمعتُ الغابة ترتجف أمام صليل سيوفنا سألت نفسي: بماذا تحلم الذئاب وهي في جحورها ؟ بين زمجرة شبعانة وأخرى ؟ حين ترفّ ألسنتها داخل الدم الدافئ لفرائسها المعلقة في أفواهها النتنة كما تتعلق أشباح ضحايانا بأذيال ستراتنا.

يعتبر ياسمينة خضرا كاتبا من الصف الأول في العالم، وقد ترجمت رواياته إلى أكثر من أربعين لغة.

ترجمة : عبد السلام يخلف


9 789947 872741